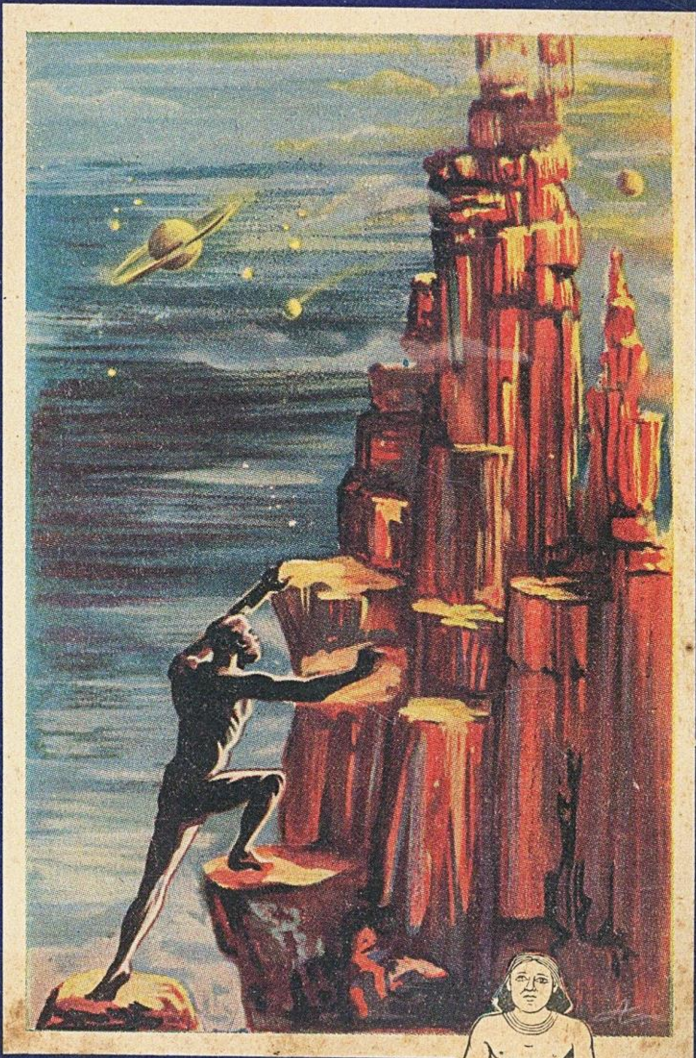
كتاب الشعب ٤

قصة الجنس البشري





تأليف

الدكتور هندريك فان لون

ترجمة

ابراهيم زكي خورشيد أحمد الشنتناوي

كتاب الشعب
٤

قصة
الجنس البشري

تأليف
الدكتور هندريك فان لون

ترجمة

ابراهيم زكى خورشيد   أحمد الشنتناوي

الجزء الثانى

مطابع الشعب
١٩٥٧

الإصلاح الديني

تقدم الجنس البشرى اشبه برقاص ساعة ضخم ، يروح ويغدو دائما ابدا . وقد امتاز عصر النهضة بعدم أحتفال الناس بالدين ، وغيرتهم على الفن والأدب . ثم أعقبه عصر الاصلاح الدينى ، فلم يحفل الناس فيه بالأدب والفن ، وتحمسوا للدين

لا شك انك سمعت بالاصلاح الدينى ، وان عقلك يتجه عند ذكر هذا الاصلاح الى جماعة قليلة العدد من الحجاج الشجعان الذين عبروا المحيط لكى تتاح لهم حرية العبادة . ولقد أصبحت عبارة الاصلاح الدينى بمضى الزمن (وخاصة فى الدول البروتستانتية) تدل دلالة غامضة على حرية التفكير . ويعد **مارتن لوثر** زعيم رواد هذا الاصلاح . على اننا اذا نظرنا الى التاريخ ، على انه شىء أسمى من تلك المجموعة من الاقوال التى نتملق بها اسلافنا الامجاد ، او اذا سعينا الى كشف « ما وقع فعلا من الحوادث » ــ على حد تعبير المؤرخ الالمانى **رانكه** ــ لامكننا ان نرى كثيرا من حوادث الماضى فى ضوء مختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

وقلما نجد فى حياة الانسان ما هو خير خالص او شر محض ، وقل من الاشياء ما يوصف بالسواد او البياض . ومن واجب المؤرخ الامين أن يعطينا صورة صادقة لجميع النواحى الخيرة والشريرة فى كل حادثة تاريخية ، ولكن ذلك عسير كل العسر ، لان كل واحد منا يحب أشياء ويكره اخرى ، ومع ذلك فانه يجب علينا أن نحاول الانصاف ما وسعنا ، والا نسمح لاهوائنا بان تطغى علينا .

ولنتخذ حالتى مثالا لذلك ، فانى قد نشأت فى وسط بروتستانتى قح فى دولة مغرقة فى البروتستانتية ، ولم يقع بصرى على كاثوليكى الى ان بلغت الثانية عشرة من عمرى تقريبا . . . فلما لقيت الكاثوليك بعد ذلك شعرت بضيق شديد ، وتوجست منهم بعض التوجس ، فقد كنت اعرف قصة اولئك الآلاف من الناس الذين احرقوا او شنقوا او قطعت اوصالهم على يد محاكم التفتيش الاسبانية ، وذلك عندما حاول **دون البا** أن يطهر هولندا من بدع **لوثر وكلفن** الدينية .

لقد كانت كل هذه الاحداث فى نظرى امرا واقعا لا مرية فيه ، بل كانت تبدو لى كحادث الامس . وقد تتكرر ليلة سانت برثلوميو ، وقد اذبح انا الضعيف المسكين فى ملابس نومى ، ويلقى بجسدى من النافذة كما حدث لامير البحر النبيل **ده كولينى** .

واتفق ان ذهبت بعد ذلك بمدة طويلة الى احدى الدول الكاثوليكية ، وعشت فيها بضع سنوات ، فوجدت اناسها اعظم بشاشة واكثر تسامحا من اهل بلدى ، بل كانوا لا يقلون عنهم ذكاء . وما اشد عجبى عندما اكتشفت ان للاصلاح الدينى وجها كاثوليكيا ، كما ان له وجها بروتستانتيا ! . وليس من شك فى ان أهل القرنين السادس عشر والسابع عشر الطيبين الذين عاشوا فعلا فى عهد الاصلاح الدينى ، لم يروا الاشياء على هذا النحو . فقد كانوا يشعرون دائما انهم على صواب ، وأن خصومهم هم المخطئون على الدوام ، فلم يكن ثمة مندوحة من ان تكون شانقا أو مشنوقا . على ان كل فريق كان يؤثر ان يكون الشانق ، وكان ذلك لا يعدو أن يكون أمرا من طبيعة الانسان لا يستوجب اللوم .

فاذا نظرنا الى العالم كما كان يبدو سنة ١٥٠٠ ــ وهى سنة يسهل تذكرها ، وفيها ولد الامبراطور شارل الخامس ــ لالفيناه على النحو الذى سنذكره . لقد تلاشت فوضى العهد الاقطاعى فى العصور الوسطى امام النظام الذى مكن له عدد من الممالك الممعنة فى المركزية . وكان شارل العظيم آنئذ ــ اقوى ملوك هذه الممالك جميعا ــ لم يزل فى المهد صبيا . . . فهو حفيد فرديناند وايزابلا وماكسمليان الهابسبورجى ــ آخر فرسان العصور الوسطى ــ وزوجته مارى ابنة شارل الجسور ، وهو الدوق البرغندى الطموح الذى قام بحملات موفقة على فرنسا ، ولكنه لقى حتفه على أيدى فلاحى سويسرا الاحرار . ومن ثم ورث الطفل شارل الجزء الاكبر من بلاد آبائه واجداده واعمامه واخواله وعماته فى كل من المانيا والنمسا وهولندا وبلجيكا وايطاليا واسبانيا ، كما ورث مستعمرات جميع هذه الدول فى آسيا وأفريقيا وأمريكا . .

ومن مفارقات الدهر ان شارل ولد فى **غنت** فى

حصن أمراء الفلاندرز ، وهو الحصن نفسه الذى اتخذه الالمان سجنا فى اثنـاء احتلالهم بلجيكا . وقد نشّىء شارل النشأة الفلمنكية على الرغم من انه كان ملكا اسـبانيا وامبراطورا جرمانيا . ولمـا توفى ابوه بالسم ـ كما يذهب الكثيرون ، وان لم يثبت ذلك ـ وجنت امه ، اذ كانت تنتقل فى أملاكها ومعها التابوت الذى يضم رفات زوجها الراحل . . تولت تربيته عمته مرغريت بما عرف عنها من صرامة . وشب شـارل فلمنكيا وابنا مخلصا من ابناء الكنيسة الكاثوليكية ، وكتب عليه ان يحكم الجرمان والاسبان ومائة جنس غريب آخر ، الا انه كان مع ذلك منكرا اشد الانكار للتعصب الدينى . وكان اميل الى الكسل والخمول ، بالغا وجلا ، ولكن القدر فرض عليه ان يحكم العالم فى وقت كان يغلى فيه مرجل الحماسة الدينية . كان دائما ابدا يهرع من مدريد الى انسبروك ، ومن براغ الى فينا ، فهو يحب السلام والهدوء ، ولكنه كان دائما فى حرب وقتال . ولمابلغ الخامسة والخمسين من عمره ، أشاح بوجهه عن الناس جميعا ، فقـد عافت نفسه ما تملك قلوبهم من بغضاء ، وما امعنـوا فيه من سخف وغباء . وتوفى بعد ذلك بثلاث سنوات بعد ان برّح به النصب واليأس .

هذا ما كان من امر شارل الخامس ، فماذا كان من امر الكنيسة التى كانت القوة الثانية فى العالم ؟ . لقد تغـيرت الكنيسـة تغيرا كبيرا عما كانت عليـه فى الايام الاولى من العصور الوسطى ،عندما هبت تحارب الكفار وتبين لهم عاقبة حياة الورع والاستقامة . لقد غدت الكنيسـة قبل كل شىء واسعة الثراء ، ولم يعد البابا راعيا لجماعة المسيحيين المستضعفين ، بل كان يعيش فى قصر فسيح يحيط به الفنانون والموسـيقيون ومشاهير رجال الادب . واكتست الكنائس والبيع بصور جديدة تبدى فيها القديسون أقرب الى آلهة اليونان مما ينبغى ، ووزع البابا وقته توزيعا غـير عادل بين شئون الدولة وشئون الفن . فخص الدولة بعشرة فى المائة من وقته ، أما التسعون فى المـائة الباقية فكان يعنى فيها عناية جدية بالتماثيل الرومانية والزهريات اليونانية المكتشفة حديثـا ، وباعـداد الخطط لاقامة بيت خلاوى جديد يقضى فيه الصيف ، او الاستعداد لاخراج مسرحية جديدة . وكان رؤساء الاساقفة والكرادلة ينهجون على منوال البابا ، وكان الاساقفة يحاولون تقليد كبار الاساقفة . أما القسس فى القرى فظلوا مخلصين لواجباتهم الدينية . . . فقد ترفعوا عن ذلك العالم الخبيث ، وعفوا عن ذلك الحب الوثنى للجمال واللذة ، وعاشوا بعيدا عن الاديرة حيث كان الرهبان فيمايظهر قد نسوا انهم قدنذروا انفسهم من قبل بأن يعيشوا عيشة البسـاطة والتقشف ، وانغمسوا فى المسرات بقدر ما واتتهم شجاعتهم من غير أن يذهبوا فى ذلك الى حد الافتضاح . وهنـــاك آخر الامر عامة الشعب . وكانت حالهم احسن بكثير مما كانوا عليه فى اى وقت مضى . . . فقد كانوا اكثر رخاء : يعيشون فى منازل احسن ، ويذهب اولادهم الى مدارس ارقى ، وكانت مدنهم اجمل مما كانت عليه . اما اسلحتهم فقد جعلتهم على قدم المساواة باعدائهم القدماء ، وهم النبلاء المستبدون الذين ظـلوا قرونا يجبون منهم الضرائب الثقيلة على تجارتهم . هـذا ما كان من امر الناس الذين كان لهم الشأن الاكبر فى حركة الاصلاح الدينى .

ولنأخذ الآن فى معرفة ما فعلته النهضة فى اوربا ، ومن ثم فانك ستتبين كيف أن احياء العلم والفن كان لا مناص من ان يعقبه احياء فى شئون الدين .

لقد بدأت النهضة فى ايطاليا ، وانتشرت منها الى فرنسـا ، على انها لم تنجح كل النجاح فى اسبانيا التى ظلت تحارب الاندلسيين خمسة قرون متوالية ، ضيقت من افق الشعب ، وجعلته شديد التعصب فى الأمور الدينية ، واتسعت الدائرة بعد ذلك شيئا فشيئا ، ولكن ما ان عبرت النهضة جبال الالب حتى أصابهـا الفتور .

لقـد كانت شعوب اوربا الشمالية تعيش فى مناخ يختلف اختلافا كبيرا عن مناخ جنوبى اوربا ، وينظرون الى الحياة نظرة تباين الى حـد عجيب نظرة أهل الجنوب . أما الايطاليون فكانوا يعيشـون فى الخلاء تحت سماء مشرقة ، فما ايسر ان يضحكوا وأن يغنوا وان يمرحوا . أما الالمـان والهولنديون والانـكليز والسويديون فكانوا يقضون معظم اوقاتهم فى منازلهم ينصتون الى الامطار تضرب النوافذ المغلقة لبيوتهم الصغيرة المريحة ، فلم يكونوا يضحكون كثيرا كما كان يضحك الايطاليون ، بل كانوا ينظرون الى كل شىء نظرة اكثر جدا . كانوا دائما ابدا يشعرون بنفوسهم الخالدة ، فلم يجنحوا الى الهزل فى امور يرون انهـا مبجلة مقدسة . وقد اهتموا كثيرا بالجانب الادبى من النهضة ، اى بالكتب ودراسة المؤلفين القدماء وكتب النحو وكتب المتون . ولـكن العودة الى حضـــارة اليونان والرومان الوثنية التى كانت من اهم نتـائج النهضـة فى ايطاليا ، كانت تملأ قلوبهم رعبا وفزعا .

على ان جميع البابوات والكرادلة تقريبا كانوا من الايطاليين ، وقد احال هؤلاء الكنيسة الى منتدى ممتع يتناقش فيه الناس فى الموسيقى والفن والمسرح ، وقلما يعرضون للشئون الدينية . ومن ثم اخذت الهوة تتسع اتساعا دائبا بين أهل الشمال الجادين ، واهل الجنوب الذين كانوا اكثر منهم حضارة ، وان كانوا أروح منهم عيشا واقل مبالاة بالامور . والظاهر ان احدا لم يفطن الى الخطر الذى كان يتهدد الكنيسة .

وهناك عدة اسباب ثانوية اخرى تفسر لنا لم قامت حركة الاصلاح الدينى فى المانيا ، بدلا من قيامها فى السويد او فى انكلترا . كان الالمان يحقدون منذ القدم على روما ، اذ كان النزاع المستمر بين البابا والامبراطور سببا فى ان كل فريق كان يشعر نحو الآخر بمرارة شديدة . اما فى الدول الاوربية الاخرى فكانت مقاليد الحكم فى ايدى ملوك أقوياء استطاعوا فى كثير من الاحيان حماية رعاياهم من جشع رجال الدين . اما فى المانيا فقد كان فيها امبراطور ليس له الا ظل من السلطة يحكم جمعا من الأمراء الصغار المشاغبين ، ومن ثم كان اهل المدن الطيبون تحت رحمة القساوسة والمطارنة مباشرة . وقد حاول هؤلاء جمع اموال كثيرة لصالح تلك الكنائس الهائلة التى كانت هواية البابوات فى عصر النهضة . وشعر الالمان أن الغرم واقع عليهم ، وكانوا بطبيعة الحال يأبون ذلك .

وهناك حقيقة اخرى قلما تذكر ، وهى ان المانيا كانت موطن الطباعة ، فقد كانت الكتب فى شمالى اوربا رخيصة الثمن . ولم يعد الكتاب المقدس مخطوطا محجبا بالاسرار فى حوزة رجل الدين الذى يقوم وحده على تفسيره ، بل اصبح كتابا من الكتب المتداولة فى كثير من البيوت التى كان ربها واولاده يعرفون اللغة اللاتينية . واخذت اسر بأجمعها تقرأ الكتاب المقدس ، وكان ذلك مخالفا لقوانين الكنيسة ، فتبينت ان القساوسة كانوا يقصون عليهم اشياء كثيرة تختلف بعض الاختلاف عن النص الاصلى للكتاب المقدس ، فاثار ذلك فى نفوسهم الشك ، وبدا الناس يتساءلون ، والأسئلة التى لايستطاع الاجابة عليها قمينة بأن تحدث اضطرابا كثيرا فى كثير من الأحيان .

وبدأت الحملة عندما اخذ الانسانيون من اهل الشمال يثورون على الرهبان ، فقد كانوا فى صميم قلوبهم مايزالون يكنون كثيرا من الاحترام للبابا ، فمنعهم ذلك من أن يوجهوا حملاتهم على قداسته . ولكن الرهبان الكسالى الجهلاء الذين كانوا يعيشون فى حمى اسوار صوامعهم الغنية بالخيرات ... لم يكادوا يغيرون ما بانفسهم .

والغريب فى الأمر انزعيم هذه الحركة كان شخصا من اخلص ابناء الكنيسة يدعى **جيرارد جيراردزون** او **ديزيديريوس ارازمس** — وهو الاسم الذى غلب عليه — وكان صبيا فقيرا ولد فى روتردام من اعمال هولندا ، وتعلم فى مدرسة **دفنتر** اللاتينية — وهى المدرسة نفسها التى تخرج فيها **توماس الكمبينى** — واصبح قسيسا ، وعاش فترة من الزمن فى احد الأديرة . وارتحل كثيرا ، وعرف المرمى الذى كان يقصد اليه بكتاباته . فلما بدأ حياته كاتبا يدبج الرسائل العامة — وهو عمل كان قمينا بان يسلكه فى وقتنا الحاضر فى عداد كتاب المقالات — ابتهج الناس ابتهاجا عظيما بسلسلة من الرسائل اصدرها غفلا من التوقيع ، كانت قدظهرت آنئذ بعنوان «رسائل رجال مغمورين » ، كشف فيها عن عظم حماقة رهبان العصور الوسطى المتاخرة وعجرفتهم ، باسلوب جرمانى لاتينى منحط غريب يذكرنا بقصائدنا الحديثة التى لايخرج منها المرء بمعنى مفيد . وكان ارازمس نفسه من العلماء الجادين ، أصاب حظا كبيرا من العلم ودرس اللغتين اللاتينية واليونانية ، وزودنا بأول ترجمة صحيحة يوثق بها للانجيل باللغة اللاتينية مع نسخة منقحة من النص اليونانى الأصلى . وكان يعتقد ، مثل الشاعر الرومانى **سالوست** ، أن لاشىء يمنعنا من « ذكر الحقيقة والابتسامة تعلو شفاهنا » .

وفى عام ١٥٠٠ زار ارازمس السير **توماس مور** فى انكلترا ، واعتكف خلال هذه الزيارة بضعة اسابيع كتب فيها كتابا صغيرا فكها يعرف باسم « مدح الحماقة » (Praise of Folly) هاجم فيه الرهبان واتباعهم المؤمنين بهم ... بسلاح من اخطر الاسلحة ، الا وهو الفكاهة . وقد بيع من هذا الكتاب مايزيد على أى كتاب آخر بيع فى القرن السادس عشر ، وترجم الى كل اللغات تقريبا ، وكان سببا فى اهتمام الناس بسائر كتب ارازمس التى نادى فيها باصلاح كثير من عيوب الكنيسة ، وناشد ارازمس زملاءه من الانسانيين مساعدته فيما اضطلع به من احياء الدين المسيحى احياء .

ولكن هذه الخطط البارعة لم تثمر شيئا ، فقد

كان ارازمس اعقل واسمح من ان يرضى معظم خصوم الكنيسة ، ذلك ان هؤلاء كانوا يتطلعون الى زعيم اعظم منه قدرة واشد بأسا .

وهاهوذا الزعيم قد ظهر ، وكان يدعى **مارتن لوثر** .

كان لوثر فلاحا من شمالي المانيا ، نابه العقل عظيم الشجاعة ، حصل على شهادة الاستاذية فى الآداب من جامعة ارفورت ، ثم التحق بدير دومينيكي . واصبح بعد ذلك أستاذا فى كلية وتنبرج الدينية ، وفيها اخذ يفسر الكتاب المقدس للفلاحين الغافلين من أهل وطنه سكسونيا . وكان لديه متسع من الوقت انفقه فى دراسة النصوص الاصلية للعهدين القديم والجديد . وسرعان مابدا يتبين له الاختلاف الكبير بين كلمات المسيح وبين ماكان يبشر به البابوات والأساقفة .

وزار لوثر روما عام ١٥١١ فى عمل رسمى ، وكان البابا اسكندر السادس ، من أسرة بورجيا ، قد توفى بعد ان جمع ثروة لابنه وابنته . وخلفه يوليوس الثانى ، وكان رجلا لاغبار على خلقه الشخصى ، ولكنه كان ينفق معظم وقته فى القتال واقامة العمائر ، فلم يكن من التقى بحيث يؤثر فى عقل هـذا الالمانى المتفقه فى الدين الذى كان يأخذ الامور مأخذ الجد . وعاد لوثر الى وتنبرج خائب الرجاء ، على ان الامور استفحلت من بعد ، واشتد تفاقمها .

كانت كنيسة القديس بطرس الهائلة ، التى فرض البابا يوليوس تبعة رعايتها على خلفائه الابرياء ، فى حاجة الى التعمير ، ولو انها كانت آنئذ فى بداية نشأتها . وكان البابا اسكندر السادس قد أنفق كل ما فى خزائنه . اما ليو العاشر الذى خلف يوليوس على عرش البابوية عام ١٥١٣ ، فكان على شفا الافلاس . لذلك لجأ الى وسيلة قديمة من وسائل جمع المال نقدا .

اخذ هـذا البابا فى بيع صكوك الغفران . وصك الغفران قطعة من الرق يبذل فيهـا الوعد للمذنب ، لقاء قدر من المـال ، بانقاص المدة التى سوف يمكثها فى المطهر . وكان ذلك عملا سليما فى عقيدة أهـل العصور الوسطى المتأخرة . فكما ان الكنيسة كانت لها سلطة غفران ذنوب أولئك الذين يتوبون توبة نصوحا قبل وفاتهم ، فكذلك كان لها الحق ، مستشفعة بالقديسين ، فى أن تنقص المدة التى لابد للنفس أن تتطهر فيها فى آفاق المطهر المظلمة .

ومن سوء الطالع ان هذه الصكوك لم يكن بد من ان تباع نقدا ، ولـكنها كانت وسيلة سـهلة من وسائل الحصول على الدخل . وكانت فى الوقت نفسه تمنح من غير مقابل للفقراء الذين يعجزون عن الدفع .

وحدث فى عام ١٥١٧ ان قصر بيع صكوك الغفران فى سـكسونيا على منطقـة وكل أمرهـا الى راهب دومينيـكي يدعى **يوهـان تتزل** . وكان هـذا الراهب متحمسـا فى بيـع صـكوك الغفـران لاتفتر له عزيمة . والحق انه اشـتط فى ذلك بعض الشطط ، فاسخطت أساليبه اتقياء تلك الدوقية الصغيرة . اما لوثر الذى كان رجـلا مستقيما ، فقد اخرجه الغضب عن طوره ، حتى لقد قام بعمل يتسم بالتهور ، ذلك انه قصد فى ٣١ اكتوبر سنة ١٥١٧ الى فناء الكنيسـة ، وعلق على أبوابها رقعة بها خمسة وتسعون بندا هاجم فيها بيع صكوك الغفران ، وقد كتب هذه البنـود باللغة اللاتينيـة . ولم يكن لوثر يقصد اشعال نار الفتنة لانه لم يكن ثوريا ، وانمـا عارض سنـة بيع صـكوك الغفران ، واراد ان يطلع زملاءه الاساتذة على رايه فى هذا الموضوع .

على ان هذا الامر كان فى ذلك الوقت من المسـائل التى تهم رجال الدين والأساتذة فحسـب ، ولم تكن تستهوى غيرهم من عامة الناس . على أنه مما يبعث على الاسف أنه كان من المستحيل استحالة مطلقة ، ان تناقش اية مسالة دون ان تثير هذه المناقشة فى الحال قلقا فى الافكار خطيرا ، ذلك ان العـالم كافة كان وقتئذ قد بدا يهتم بالمسائل الدينية لذلك العهد . ففى اقل من شهرين كانت أوربا بأسرها تناقش هذه المسـائل الخمس والتسعين التى وضـعها الراهب السـكسونى . وكان لزاما على كل فرد أن ينحاز الى لوثر أو الى الطرف الآخر ، بل ان كل فقيه من رجال الدين الصغار المغمورين كان عليه ان ينشر رايه فى ذلك . واخذت السـلطات البابوية ترتاع وتنزعج ، فاسـتدعت أستاذ وتنبرج الى روما ليبرر فعلته . ولـكن لوثـر كان حكيما فتذكر ماحدث **لهس** ... فظل فى المـانيا ، وكان جزاؤه الحرمان من الكنيسـة ، فمـا كان منه الا ان احرق مرسوم البـابا وسـط جمع من الناس المعجبين به ، ومنذ تلك اللحظة أصبح السـلام بينه وبين البابا مستحيلا .

واصبح لوثر بالرغم منه ، على رأس جيش عظيم من المسيحيين السـاخطين . وهرع الالمـان الوطنيون مثل **الريش فون هتن** للدفاع عنـه . وابدى طلبة وتنبرج وأرفورت وليبسك استعدادهم للمنافحة فى سبيله اذا حاولت السلطات أن تزج به فى السجن . وظاهر ناخب سكسونيا هؤلاء الشباب المتحمسين ،

فاعلن ان لوثر لن يصيبه اى مكروه مادام مقيما فى ارض سكسونية .

حدث كل ذلك عام ١٥٢٠ ، واضطر شارل الخامس ـ وكان وقتذاك فى العشرين من عمره يحكم نصف العالم ـ الى الاحتفاظ بعلاقاته الودية مع البابا ، فارسل يطلب عقد مجمع او جمعية عمومية فى مدينة ورمز الطيبة على الرين ، وطلب من لوثر المثول امام هذه الجمعية ليبرر مسلكه الشاذ ، فذهب لوثر الى المجمع ، وكان قد غدا بطل الالمان القومى ، ورفض ان يسحب اية كلمة مما قال أو كتب ، وقال انه لارقيب على ضميره الا كلمة الله ، وانه يحيا ويموت فى سبيل عقيدته .

وتداول مجمع ورمز فى هذا الامر ، واولاه حق عنايته ، ثم اعلن أن لوثر خارج على الله والناس ، وحرم على جميع الالمان ايواءه وتزويده بالطعام والشراب ، كما حرم عليهم قراءة كلمة واحدة مما كتبه هذا المارق الضال .

على أن المصلح العظيم ظل بعيدا عن أن يمسه الضر ... فقد انكر معظم المان الشمال هذا المرسوم ، وعدوه وثيقة اشد ماتكون جورا وعسفا . واخفى لوثر ، مبالغة فى الحرص على سلامته ، فى قلعة ورتبرج التى كانت تابعة لناخب سكسونيا ، وتحدى فيها كل السلطات البابوية ، واخذ ينقل الكتاب



لوثر يترجم الكتاب المقدس.

المقدس الى اللغة الالمانية ، حتى يستطيع الناس جميعا أن يقرأوا بانفسهم كلمات الله ويتفهموها .

ولم تعد حركة الاصلاح الدينى مسالة روحية او دينية عندما حلت هذه الايام . ذلك أن اولئك الذين كرهوا مافى عمارة الكنائس الحديثة من جمال .. انتهزوا الفرصة التى اتاحها لهم هذا العهد المضطرب ، واخذوا يهاجمون ويدمرون كل ما لايحبون لانهم كانوا يجهلون امره . اما الفرسان المفلسون فقد حاولوا أن يعوضوا خسائرهم فى الماضى ، فتخاطفوا الاراضى التابعة للاديرة ، واستغل الامراء المتذمرون فرصة غياب الامبراطور ، فعملوا على زيادة سلطانهم . واما الفلاحون الذين كانوا يتضورون جوعا ، فقد اتبعوا المهيجين المتائين واهتبلوا الفرصة ... فهاجموا قلاع اسيادهم ، واعملوا فيها السلب والقتل والاحراق بتلك الحماسة المأثورة عن الصليبيين القدماء .

وساد الامبراطورية عهد يمكن أن نصفه بحق بانه عهد عمت فيه الفوضى ، ودان بعض الامراء بالبروتستانتية (وهو الاسم الذى اطلق على المحتجين اتباع لوثر) ، واضطهدوا الكاثوليك من رعاياهم ، فى حين ظل آخرون على المذهب الكاثوليكى ، وشنقوا رعاياهم البروتستانت .

وحاول مجمع سبيير ، الذى انعقد عام ١٥٢٦ ، أن يجد حلا لهذه المسالة الشائكة الخاصة بالتبعية ، فاصدر حكمه بان الرعايا يجب أن يكونوا جميعا على دين امرائهم ، فاستحالت المانيا بذلك الى منطقة منقسمة الى الآلاف من الدوقيات والامارات الصغيرة المتعادية ، واصبحت فى موقف منعها من أن تنمو النمو السياسى الطبيعى مئات من السنين .

وتوفى مارتن لوثر عام ١٥٤٦ ، ودفن فى الكنيسة التى اعلن على ابوابها قبل ذلك بتسع وعشرين سنة اعتراضاته المشهورة على بيع صكوك الغفران . وفى اقل من ثلاثين سنة ولى عالم النهضة المرح الضاحك الذى لم يكن يبالى بشىء ، وحل محله عالم الاصلاح الدينى ، وهو عالم كان يؤثر الحجاج والنزاع والكيد والمناظرة . وانقضى عهد سلطان البابوات الروحى على العالم فجاة ، وتحولت اوربا الغربية باسرها الى ساحة حرب ، اقتتل فيها البروتستانت والكاثوليك فى سبيل تمجيد بعض العقائد الدينية التى يعجز جيلنا الحاضر عن فهمها ، عجزه عن حل مغاليق كتابات الاتروريين القدماء الخفية .

كان القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر نزاع ديني . ولو انك نظرت الى الناس اليوم لوجدت ان كل من حولك تقريبا يتحدثون دائما في المسائل الاقتصادية ، ويناقشون اجور العمال وساعات العمل والاضراب ، وعلاقة هذه المسائل بحياة المجتمع ، لان ذلك هو محور اهتمام الناس في وقتنا هذا .

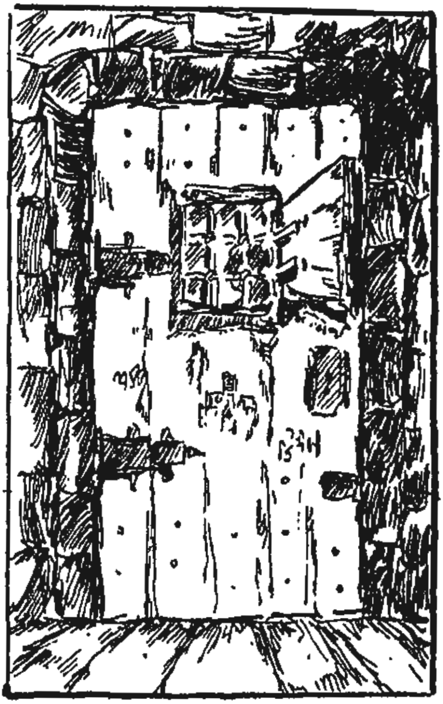
كان حال الصبية الصغار المسالمين في عام ١٦٠٠ او عام ١٦٥٠ اسوا من هذا ، ذلك انه لم يطرق اسماعهم قط شيء الا « الدين » . وكانت رءوسهم قد امتلات بكلمات من قبيل القضاء والقدر وغيرها من الكلمات العجيبة التي تعبر عن بعض النقاط المبهمة في العقيدة الحقة ، سواء كانت على مذهب الكاثوليك او البروتستانت . وكان هؤلاء الصبية يعمدون : اما كاثوليك او لوثريين او كلفنيين او زونجليين او منكرين للعقيدة وفقا لرغبة آبائهم . وكانوا يتعلمون امور دينهم من رسائل اوجسبرج الدينية التي الفها لوثر ، او من شرائع المسيحية التي كتبها كلفن ، او يلفظون بأحكام العقيدة التسعة والثلاثين المطبوعة في الكتاب الانكليزي الخاص بالصلاة للكافة . وقد لقنوا ان هذه الكتب دون سواها هي التي تمثل العقيدة الصحيحة . وسمعوا بما اقترفه الملك هنرى الثامن ملك انكلترا المزواج من سرقة املاك الكنيسة ، وهو الملك الذي نصب نفسه على راس الكنيسة الانكليزية ، واتخذ لنفسه حقوق البابوات القديمة ، الا وهي تعيين الاساقفة والقسس .

وكان يغشاهم كابوس من الفزع اذا ذكر احد محاكم التفتيش وسجونها وغرفها الكثيرة التي كان يعذب فيها الناس . وكانت تلقى على اسماعهم قصص لاتقل عن ذلك هولا تروى كيف اتفق ان جماعة من رعاع البروتستانت ، الذين ذهب الغضب بلبهم ، انقضوا على نفر من القسس العزل المتقدمين في السن وشنقوهم ، لالشيء الا لمجرد الاستمتاع بقتل جماعة يدينون بمذهب غير مذهبهم . ومما يبعث على الأسف ان الفريقين المتنازعين كانا متساويين في القوة ، ولولا ذلك لكان النزاع قد انتهى الى حل سريع . ومن ثم طال أمد هذه الخلافات الدينية ثمانية اجيال ، وبلغت من التعقيد حدا لا استطيع معه الا الاكتفاء بان اقص عليك اهم تفاصيلها ، ولا مناص من ان اسألك أن ترجع في شان بقية التفاصيل الى تاريخ من التواريخ الكثيرة التي الفت عن حركة الاصلاح الديني .

لقد اعقب حركة الاصلاح الكبرى التي قام بها البروتستانت، حركة اصلاح شاملة في داخل الكنيسة المسيحية . فقد اختفى من الميدان اولئك البابوات الذين كانوا يهوون الآداب القديمة ويدرسون الآثار الرومانية والاغريقية ، وحل محلهم بابوات من اهل الجد ينفقون كل يومهم في ممارسة تلك الواجبات المقدسة الملقاة على عاتقهم .

وانقضى العهد الطويل ، بل عهد اللهو المشين الذي اتسمت به حياة الاديرة ، واجبر الرهبان والراهبات على النهوض من نومهم مع طلوع الشمس لدراسة سير آباء الكنيسة ورعاية المرضى ومواساة المحتضرين، واخذت محاكم التفتيش ترقب ليل نهار كل مايطبع حتى لا تنتشر اية عقيدة من العقائد الخطرة عن طريق المطبعة . ومن المالوف ان نذكر في هذا المقام **جاليليو** الذي سجن لانه جاوز قليلا حدود الحكمة ، وكشف أمر السموات بمرقبه الصغير العجيب ، وقال بآراء من شان الاجرام السماوية تعارض كل المعارضة آراء الكنيسة المقررة . ولكننا يجب ان ننصف البابا ورجال الدين ومحاكم التفتيش كل الانصاف ، فنقول ان البروتستانت كانوا هم والكاثوليك سواء يتنكرون للعلوم والطب ، كما كانوا سواء فيما اظهروه من جهل وتعصب في نظرتهم الى أولئك الذين كانوا يستقصون الامور لانفسهم ، ويعدونهم الد أعداء الانسانية ..

ذلك ان **كلفن** المصلح الديني الفرنسي العظيم ، وطاغية جنيف في المسائل السياسية والروحية ، لم يكتف بشد أزر السلطات الفرنسية عندما حاولت ان تشنق **ميخائيل سرفتوس** — وهو الفقيه الديني الاسباني ، والطبيب الذي اشتهر بوصفه مساعدا



محاكم التفتيش

لفساليوس أول عالم عظيم من علماء التشريح — بل زج بهذا الرجل النابه فى غيابة السجن عندما حاول الهرب من محبسه فى فرنسا الى جنيف ، وسمح بان يحرق على المحرقة بعد محاكمة طويلة جزاء هرطقته ، ولم يحفل أيما احتفال بشهرته فى العلم .

وسارت الامور على هذا المنوال.على اننا نستطيع ان نقول على الرغم من قلة ما لدينا من احصاءات موثوق بها فى هذا الموضوع ، انالبروتستانت ضاقوا بهذا النضال قبل أن يضيقبه الكاثوليك بزمن طويل، ووقع معظم الرجال والنساء المخلصين الذين أحرقوا او شنقوا او اطيح برؤوسهم فى سبيل عقيدتهم الدينية ، فريسة كنيسة روما التى كانت متحمسة اشد الحماسة ، عنيفة اشد العنف . ذلك ان التسامح — وارجو ان تذكر ذلك عندما تتقدم بك السن — خلة حديثة العهد جدا ، بل ان اهل عالمنا الذى نسميه بالعالم الحديث لا يجنحون الىالتسامح الا فىالمسائل التى لاتعنيهم كثيرا . . . فهم متسامحون مع رجل من أهل افريقيا ، اذ يستوى ان يصبح هذا الرجل بوذيا او مسلما ، لأن البوذية أو الاسلام لا يعنيهم أمرهما فى كثير او قليل . . ولكنهم اذاسمعوا انجارا لهم منالتجار الاحرار الذين يعارضون فرض ضريبة جمركيةعالية لحماية البضائع المحلية — قد انضم الى حزب المطالبين بتعديل الرسوم الجمركية ، وانه اصبحمن محبذى فرض هذه الرسوم على الواردات ، فانهم يفقدون تسامحهم ، ويتفوهون بالألفاظ نفسها تقريبا التىيتفوهبها كاثوليكى رءوف (اوبروتستانتى) من اهل القرن السابع عشر عندما يعلم ان خير اصدقائه الذى كان يجله ويحبه على الدوام، قد وقع فريسة البدع الفظيعة للكنيسة البروتستانتية او الكاثوليكية . .

كانت البدع الدينية الى عهد قريب جدا تعد آفة من الآفات . اننا الآن اذا رأينا رجلا يهمل نظافة جسمه وبيته ،ويعرض نفسه واولاده لاخطار حمى التيفود أو غيرها من الامراض التى يمكن توقيها — فانا نخطر وزارة الصحة فيعمد طبيب الصحة الى الاستعانة بالشرطة لعزل هذا الشخص الذى يهدد سلامة المجتمع باسره . اما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد كان خطر المارق من الدين — وهو الرجل او المراة الذى يجاهر بالشك فى الاركان التى تقوم عليها العقيدة الكاثوليكية أو البروتستانتية — اشد فتكا من خطر حامل ميكروب التيفود . فحمى التيفود قد تهلكالبدن ، بل هىخليقة بأن تودى به ، ولكن المروق الدينى كان فى نظرهم يفتك بالنفس الخالدة فعلا ، لذلك كان يتعين على جميع المواطنين المخلصين العقلاء ان يبلغوا الشرطة من اعداء النظام المقرر للامور . اما الذين يتقاعسون من اداء هذا الواجب فقد كانت جريرتهم تماثل جريرة من يكتشف فى ايامنا ان جيرانه مصابون بالكوليرا أو الجدرى ويتقاعس عن اخطار أقرب طبيب تليفونيا .

انك سوف تسمع فى قابل الايام الشىء الكثير من الطب الوقائى . . . والطب الوقائى معناه الا ينتظر اطباؤنا حتى يمرض عملاؤهم ثم يبادروا بعلاجهم ، بل هم يتصرفون على خلاف ذلك ، فهم يدرسون حالة المريض والظروف التى يعيش فيها عندما يكون فىاتم صحة ،ويزيلون كل اسباب المرض المكنةبازالة الفضلات من جسمه وارشاده الى ما ياكل وما يدع ، وبتزويده ببعض الافكار البسيطة عن العناية الشخصية بصحته، بل هم يذهبون الىابعد من ذلك فيدخل هؤلاء الاطباء المخلصون المدارس ، ويعلمون

التلاميذ كيف يستخدمون فرشاة الاسنان وكيف يتجنبون البرد .

وكان اهل القرن السادس عشر – كما سبق ان حاولت ان ابين لكم – يرون ان البدن اقل شأنا بكثير من الآفة التى تهدد الروح ، ومن ثم وضعوا سننا تقى الروح من هذه الشرور . فما ان يشب الطفل بحيث يستطيع ان ينطق كلماته الاولى ، حتى يلقن المبادىء الصحيحة للعقيدة دون سواها . وسرعان ما انتشرت المدارس فى البلاد البروتستانتية . وقد ثبت ان ذلك قد افاد بصفة غير مباشرة فى التقدم العام الذى أصاب اهل اوربا . وقد انفقوا وقتا طويلا لا يقدر فى تفسير الكتب الدينية ، ولكنهم كانوا يلقنون الطلبة مسائل اخرى خلاف الدين . وقد شجعوا الناس على القراءة ، وكانوا اصحاب الفضل فى الرخاء العظيم الذى اصاب تجارة الكتب .

ولم يتخلف الكاثوليك عن هذه الحركة ، بل كرسوا للتعليم الكثير من وقتهم والكثير من تفكيرهم . ولقد آنست الكنيسة فى هذا المضمار صديقا صدوقا وظهيرا قويا ، تمثل فى هيئة جماعة اليسوعيين التى كانت قد انشئت حديثا فى ذلك المهد . وقد انشأ هذه الهيئة المشهورة جندى اسبانى انفق حياته فى الضلال ... ثم اهتدى ، فأحس ان الواجب يقتضيه أن يخدم الكنيسة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الخاطئين الذين بصرهم جيش الخلاص بضلالهم عن الطريق السوى ، فكرسوا ما بقى من حياتهم للأخذ بيد أولئك الذين لم تكتب لهم الهداية ، والترفيه عنهم .

كان هذا الاسبانى يدعى **اغناطيوس ده لويولا** ، ولد قبل ان تكتشف أمريكا بعام ، وهو قد جرح واصابه العرج بقية عمره ، ورأى فى منامه – وهو بالمستشفى – العذراء وولدها . ودعته العذراء الى ترك حياة الضلال التى كان يحياها . وصح عزمه على الحج الى الاراضى المقدسة لاتمام المهمة التى اضطلعت بها الحروب الصليبية ، على ان زيارته لبيت المقدس قد كشفت له عن استحالة تحقيق ما سعى اليه ، فعاد ادراجه الى الغرب ليسهم فى محاربة بدع اللوثريين .

وكان لويولا يطلب العلم بالسوربون بباريس عام ١٥٣٤ ، فاسس هو وسبعة من الطلاب رباطا من الاخوان ، ونذر الرجال الثمانية انفسهم بان يحيوا حياة دينية صالحة ، لا يسعون وراء الثروة ، وانما يسعون الى الصلاح والاستقامة ، وان يهبوا انفسهم جسدا وروحا لخدمة الكنيسة . وما ان انقضت سنوات قلائل حتى نما هذا الرباط الصغير فغدا هيئة منظمة اعترف بها البابا بولس الثالث ، واطلق عليها اسم جمعية اليسوعيين .

لقد كان لويولا رجل حرب يؤمن بالنظام ، ومن ثم اصبحت الطاعة العمياء لاوامر الرؤساء من اهم اسباب النجاح الهائل الذى أصابه اليسوعيون فى التعليم . وكانوا يلقنون من يعدونهم للدرس ، العلم شاملا محيطا كل الاحاطة قبل ان يسمحوا لهم بالتحدث الى تلميذ واحد . وكانوا يعيشون مع تلاميذهم ويشاركونهم فى العابهم ، ويراقبونهم مراقبة تنطوى على الشفقة والرحمة . ومن ثم نشأوا جيلا جديدا من الكاثوليك المخلصين نهضوا بواجباتهم الدينية فى جد ، شأنهم فى ذلك شأن اهل العصور الوسطى الاولى .

على ان اليسوعيين الدهاة لم ينفقوا كل جهدهم فى تعليم الفقراء ، فقد دخلوا قصور اصحاب السلطان ، واصبحوا المؤدبين الخصوصيين لاباطرة المستقبل وملوكه . وسوف تتبينون معنى ذلك عندما اتحدث اليكم عن حرب الثلاثين سنة . على انه قد حدثت أمور أخرى كثيرة قبل ان يندلع لهيب ذلك التعصب الدينى الفظيع الاخير .

توفى شارل الخامس فترك أمر حكم المانيا والنمسا لاخيه فرديناند ، اما سائر املاكه – وهى اسبانيا والأراضى المنخفضة وجزائر الهند وامريكا – فكانت من نصيب ولده فيليب ابن شارل من زوجته الاميرة البرتغالية ، وكانت ابنة عمه . والابناء الذين يكونون ثمرة لمثل هذه الزيجة خليقون بأن يكونوا شذاذا ... فقد كان ابن فيليب دون كارلوس – المنكوب الحظ الذى قتل من بعد بموافقة أبيه – معتوها . اما فيليب فلم يكن معتوها بمعنى الكلمة ، ولكن حماسته للكنيسة قد اشرفت به على الهوس الدينى ، ذلك انه اعتقد انه من اولئك الذين اختارتهم العناية الالهية لتخليص البشرية ، ومن ثم كان كل من يركب راسه ، ويأبى أن يشارك جلالته فى أفكاره ، قمينا بأن يعد نفسه عدوا للبشرية ، يجب القضاء عليه حتى لا يكون قدوة سيئة تفسد نفوس جيرانه الصالحين .

وكانت اسبانيا بلا شك دولة واسعة الثراء ، اذ كان ذهب العالم الجديد وفضته يتدفقان على خزائن قشتالة واراغون . ولكن اسبانيا عانت من آفة

اقتصادية عجيبة ، فقد كان فلاحوها رجال جد وعمل ، وكانت فلاحاتها اكثر من هؤلاء جدا وعملا ، ولكن طبقات الميسورين كانت تستنكر استنكارا مزاولة اى عمل الا الخدمة فى الجيش او البحرية او فى الحكومة . اما الاندلسيون الذين كانوا ارباب حرف عرفوا بالدأب والنشاط الجم ، فكانوا قد طردوا من البلاد قبل ذلك بأمد طويل . وكانت عاقبة ذلك ان اسبانيا ، مستودع أموال العالم ، ظلت دولة فقيرة ، لانها اضطرت الى تصدير جميع اموالها الى الخارج نظير استيراد القمح وغيره من ضرورات الحياة التى اهمل الاسبان انتاجها بانفسهم . وكان فيليب ـ حاكم اقوى دولة فى القرن السادس عشر ـ يعتمد فى دخله على المكوس التى كان يجبيها من الاراضى المنخفضة التى كانت تعج بالنشاط التجارى عجيج خلية النحل . ولكن الفلمنك والهولنديين كانوا من اتباع عقائد لوثر وكلفن المخلصين ، لذلك جردوا جميع كنائسهم من الصور والرسوم المقدسة ، واخبروا البابا انهم اصبحوا لا يعتبرونه راعيا لهم ، وانما هم قد عقدوا العزم على أن يتبعوا ما تمليه عليهم ضمائرهم ، وما اوصاهم به الكتاب المقدس الذى كان قد ترجم حديثا .

وقد احرج هذا الامر فيليب احراجا شديدا ، ذلك انه لم يكن فى موقف يبيح له التغاضى عن مروق رعاياه الهولنديين ، ولكنه كان فى حاجة الى اموالهم . فهو اذا سمح لهم بان يعتنقوا المذهب البروتستانتى ، ولم يتخذ من الوسائل ما يحمى به نفوسهم ، فانه يكون بذلك قد اخل بواجبه نحو الله . وهو لو ارسل رجاله من القائمين بشئون محاكم التفتيش الى الاراضى المنخفضة ، وأحرق رعاياه على المحرقة ، فانه يفقد بذلك الجزء الأكبر من دخله .

كان فيليب رجلا ضعيف الارادة ، فتردد طويلا ، واخذ يصطنع اللين والشدة ثم يعد ويتوعد ، ولكن الهولنديين ظلوا على صلابتهم ، واستمروا يتغنون بالمزامير ، ويستمعون لعظات الواعظين من اللوثريين والكلفنيين . وكان من امر فيليب أن ارسل اليهم فى ساعة يأس رجلا حديدى الارادة ، هو **دون البا** ، ليعيد هؤلاء الذين امعنوا فى الضلال الى صوابهم . واخذ البا يطيح برءوس الزعماء الذين لم يلزموا جانب الحكمة فيغادروا البلاد قبل وصوله .

وفى عام ١٥٧٢ ـ وهو العام نفسه الذى قتل فيه زعماء البروتستانت الفرنسيون جميعا فى تلك الليلة الرهيبة المعروفة بمذبحة سانت برتلوميو ـ هاجم



ليلة مذبحة القديس بارثلوميو

البا عددا من المدن الهولندية وذبح اهلها ليكونوا عبرة لغيرهم . وفى العام التالى حاصر مدينة ليدن مركز هولنده الصناعى .

وفى خلال ذلك كونت الاقاليم السبعة الصغيرة التى فى شمالى الاراضى المنخفضة اتحادا دفاعيا فيما بينهم ، يعرف باسم اتحاد اوترخت ، وجعلت وليم أورانج ـ وهو امير المانى كان كاتب سر الامبراطور شارل الخامس ـ قائدا للجيش وقائدا لبحارتها النهابين المعروفين باسم « متسولى البحار » .

ورأى وليم ان ينقذ مدينة ليدن فقطع الجسور ، فنشأ بحر داخلى ضحل ، وأمكنه تخليص المدينة بمساعدة بحرية مجهزة تجهيزا عجيبا بمراكب مسطحة القاع



قطع السدود لانقاذ ليدن

كانت تدفع دفعا فى هذه الاوحال ، وتسحب سحبا الى ان تبلغ اسوار المدينة .



مقتل وليم اورانج (وليم الصامت

وكانت هذه اول هزيمة منكرة ، تحل بجيش ملك اسبانيا الذى لا يقهر . ولقد عجب العالم فى ذلك الوقت لهذه الهزيمة ، كما عجب جيلنا لانتصار اليابانيين فى مكدن ، خلال الحرب التى وقعت بين الروسيا واليابان . وزود هذا الانتصار البروتستانت بنفحة جديدة من الشجاعة ، واخذ فيليب فى ابتكار وسائل جديدة لقهر رعاياه الثائرين . فاستاجر رجلا مسكينا متعصبا به جنة للذهاب الى هولندة لاغتيال وليم اورانج . ولكن الولايات السبع لم تخر ساجدة عندما رات زعيمها قتيلا ، بل ذهب الغضب بلبها .

وفى عام ١٥٨١ اجتمع مجلس ممثلى الطبقات ، وهو المجلس الذى يضم ممثلى الولايات بمدينة لاهاى ، ونقض اعضاؤه فى جلال بالغ ووقار عظيم عهد الولاء لملكهم الشرير فيليب ، وحملوا هم انفسهم اعباء الملك التى كانت حتى ذلك الحين موكولة الى فيليب الذى تولى الملك باسم الله .

وكان ذلك حادثا جليل الخطر فى تاريخ النضال الكبير فى سبيل الحرية السياسية ، وخطوة ابعد مدى من انتقاض النبلاء الذى افضى الى توقيع الوثيقة العظمى (Magna Carta) . ذلك ان هؤلاء المواطنين الصالحين قالوا « ان بين الملك ورعاياه تفاهما بالقلب على أن يقوم كل طرف بخدمات معلومة ، وأن يعترف كل طرف بواجبات معروفة مقررة ، فاذا خرج احد الطرفين على العهد اصبح من حق الطرف الآخر ان يتحلل من هذا العهد » .

لقد انتهى الرعايا الامريكيون للملك جورج الثالث الى مثل هذه النتيجة فى عام ١٧٧٦ ، على انه كان يفصل بينهم وبين ملكهم ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيط . اما مجلس الطبقات فقد اتخذ هذا القرار الذى كانت عاقبته الموت البطىء اذا قدر له الهزيمة ، على مسمع من المدافع الاسبانية ، وعلى الرغم من الخوف الذى كان يلازمهم من توقع وصول عمارة اسبانية تثار منهم .

كانت القصة التى رويت عن تجهيز حملة بحرية عجيبة لغزو هولندا وانكلترا ، حين خلفت الملكة اليصابات البروتستانتية الملكة مارى الكاثوليكية المتعطشة الى الدماء . . قصة قديمة . لقد ظل البحارة الذين كانوا يعيشون على السواحل يتحدثون بهذه القصة سنوات . وفى العقد الثامن من القرن السادس عشر اتخذت هذه الشائعات صورة واضحة . نقد ذكر الربابنة الذين كانوا فى لشبونة ان جميع احواض السفن فى اسبانيا والبرتغال كانت تشتغل ببناء السفن ، وان دوق پرما فى الاراضى المنخفضة الجنوبية (بلجيكا) يجهز حملة كبيرة تحمل من اوستند وامستردام الى لندن بمجرد ان تصل العمارة البحرية الى هناك .

وفى عام ١٥٨٨ ابحرت عمارة بحرية عظيمة نحو الشمال ، غير ان ثغور الشاطىء الفلمنكى كان يحاصرها



الارمادا قادمة . . .

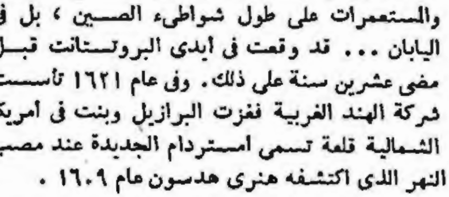
أسطول هولندى ، وكان الانكليز يحرسون بحر المانش . أما الاسبان الذين اعتادوا مياه الجنوب الهادئة ، فلم يكونوا يعلمون كيف يسيرون فى مثل هذه المياه الشمالية المليئة بالاعاصير والرياح . ومابى من حاجة الى ان اروى لكم ماحدث للارمادا عندما هاجمتها سفن الاعداء وعصفت بها العواصف . فقد التفت سفن قلائل منها حول ايرلندا وركنت الى الفرار لتروى قصة هذه الهزيمة الشنعاء ، اما السفن الأخرى فقد رقدت الى الابد فى قاع البحر الشمالى .

ومن الحق ان نصل ما انقطع من حديثنا فنقول ان البروتستانت من البريطانيين والهولنديين ، اخذوا آنئذ ينقلون الحرب الى أراضى العدو . واكتشف هوتمان قبيل نهاية القرن السادس عشر ، الطريق الموصل الى جزائر الهند مهتديا بكتيب كتبه **لنشوتن** ، وهو هولندى كان فى خدمة البرتغال . وكان من نتيجة ذلك أن تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية الكبرى ، وشنت حربا جديدة منظمة على المستعمرات البرتغالية والاسبانية فى آسيا وافريقيا .

واحتدم الخصام فى قضية عجيبة نظرت امام المحاكم الهولندية أثناء ذلك الطور المبكر من الفتح الاستعمارى . فقد حدث فى اوائل القرن السابع عشر أن اسطولى ربان هولندى يدعى **فان هيمسكرك** ــ وقد اشتهر بالحملة التى قادها ساعيا الى الكشف عن ممر شمالى شرقى الى جزائر الهند ، وقضى الشتاء على شواطىء جزيرة **نوفا زمبلا** التى كان يغطيها الجليد ــ على سفينة برتغالية فى بوغاز ملقا . ولعلك تذكر ان البابا كان قد قسم العالم الى قسمين متساويين اعطى احدهما للاسبان والنصف الاخر للبرتغال . وكان من الطبيعى أن يعد البرتغاليون المياه التى تحيط بجزائرهم الهندية جزءا من املاكهم ، ولم يكونوا فى ذلك الحين فى حرب مع الولايات السبع الهولندية المتحدة ، وادعوا انه ليس من حق ربان شركة هولندية تجارية خاصة ان يدخل فى دائرة املاكهم الخاصة ويسرق سفنهم .. لذلك رفعوا الامر الى القضاء . واتخذ مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية محاميا نابها يدعى **ده جروت او جروتيوس** للدفاع من قضيتهم ، فما كان منه الا أن دفع دفعا عجيبا : وهو ان المحيط مباح للجميع ، وقال ان البحر ، فيما وراء مرمى مدفع من البر ، يجب أن يكون طريقا حرا مفتوحا لجميع سفن الدول على اختلافها .

وكانت هذه اول مرة يعلن فيها هذا الرأى الجرىء صراحة فى ساحة القضاء . وقد عارضت هذا الرأى سائر الدول البحرية دون استثناء . وقد كتب **جون سلدن** الانكليزى معارضا الدفع الفرعى الشهير الذى قال به جروتيوس خاصا «بالبحر الحر» (Mare Liberum) او البحر المفتوح ، رسالته الشهيرة عن البحر المغلق (Mare Clausum) وفيها تناول الحق الطبيعى لدولة فى اعتبار البحار التى تحيط بلادها من أملاكها الخاصة . والسبب الذى من أجله ذكرت هذا ، هو أن المسألة لم تكن قد استقرت ، كما أنها أثارت فى الحرب الاخيرة جميع انواع المصاعب والارتباكات .

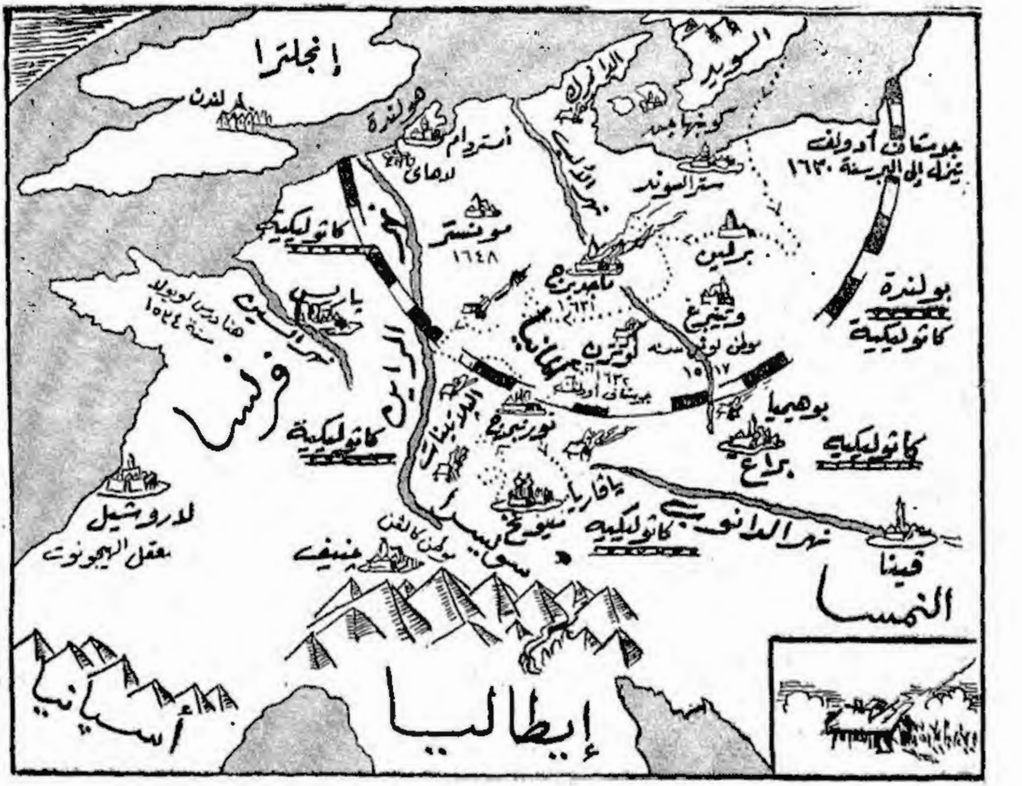
ولنعد الآن الى قصة الحروب بين الاسبان والهولنديين والانكليز . ذلك أن أعظم المستعمرات شأنا فى جزائر الهند وفى راس الرجاء الصالح وسيلان ، والمستعمرات على طول شواطىء الصين ، بل فى اليابان ... قد وقعت فى أيدى البروتستانت قبل مضى عشرين سنة على ذلك . وفى عام ١٦٢١ تأسست شركة الهند الغربية فغزت البرازيل وبنت فى أمريكا الشمالية قلعة تسمى امستردام الجديدة عند مصب النهر الذى اكتشفه هنرى هدسون عام ١٦٠٩ .



وفاة هدسون

وقد أثرت كل من انكلترا وهولندا بفضل هذه المستعمرات الى حد انهما استطاعتا استئجار الجنود للقيام بحروبهما البرية فى حين كرستا جهودهما للتجارة والصناعة . وكانت الثورة البروتستانتية فى نظر كل من انكلترا وهولندا معناها الاستقلال والرخاء . على أن هذه الحرب كانت فى نظر كثير من دول اوربا الاخرى سلسلة من الفظائع اذا قيست اليها الحرب الاخيرة لكانت بمثابة رحلة هينة يقوم بها صبيان مدرسة وادعون فى يوم من ايام الاحد .

وكانت حروب الثلاثين سنة التى نشبت عام ١٦١٨ ، وانتهت بمعاهدة وستفاليا الشهيرة عام ١٦٤٨ ، النتيجة الطبيعية المألوفة لقرن اشتدت فيه الحزازات الدينية



حرب الثلاثين عاما ..

باطراد . لقد كانت حربا مروعة كما قلت ، اخذ كل فرد فيها يقاتل الآخر ، ولم يتته هذا القتال الا بعد أن حل التعب والنصب بجميع المتحاربين ، فعجزوا عن الاستمرار فى القتال .

وقد احالت هذه الحروب فى اقلّ من جيل أجزاء كثيرة من أوربا الوسطى الى برارى موحشة يقتتل فيها الفلاحون الجياع مع ذئاب اكثر منهم جوعا ومسغبة على جيفة حصان نافق ، وتخربت أكثر المدن والقرى الالمانية ونهبت البلاتينات فى غرب أوربا ثمانيا وعشرين مرة ، ونقص عدد السكان من ١٨ مليون نسمة الى أربعة ملايين . وما كاد فردیناند الثانى سليل بيت هبسبورج ينتخب امبراطورا حتى انطلقت العداوات من عقالها . فقد شب هذا الامبراطور فى احضان اليسوعيين ، فعنوا بتربيته عناية دقيقة ، ومن ثم كان مطيعا للكنيسة غاية الطاعة ، مخلصا لها أشد الاخلاص.

وقد نذر نفسه ، وهو بعد شاب يافع ، بان يستأصل كل الفرق وجميع أصحاب البدع الدينية فى بلاده ، وبر بوعده ما استطاع الى ذلك سبيلا . وقبل انتخابه امبراطورا بيومين اختير خصمه الاكبر فردريك ــ ناخب البلاتينات البروتستانتى ، وصهر جيمس الاول ملك انكلترا ــ ملكا على بوهيميا ، وكان فى ذلك نقض مباشر لرغبات فردیناند ، فما كان من جيوش آل هبسبورج الا ان سارت الى بوهيميا . وتطلع الملك الشاب الى من يعينه على هذا العدو الجبار فباء بالخيبة ، فقد كانت جمهورية هولندا راغبة فى مساعدته الا انها كانت مشتبكة فى حرب ضروس مع الفرع الاسبانى من بيت هبسبورج ، فلم يكن فى مكنتها ان تصنع شيئا ذا بال . اما ملوك انكلترا من بيت ستيوارت فكانوا أكثر اهتماما بتوطيد سلطانهم المطلق فى بلادهم من اهتمامهم بانفاق المال والرجال فى سبيل مغامرات عقيمة فى بلاد

قاصية كبوهيميا . وطرد ناخب البلاتينات بعد قتال دام أشهرا قليلة ،واعطيت املاكه الى البيت الكاثوليكي الذى كان يحكم بافاريا . وكان ذلك بداية الحرب الكبرى .

عند ذلك خرجت جيوش هبسبورج بقيادة تلى وولنشتين تشق طريقها فى الجزء البروتستانتى من المانيا حتى بلغت شواطىء البحر البلطى . وكان فى قيام جار كاثوليكى للدانيمارك خطر عاجل يهـدد ملكها البروتستانتى . وأراد كريستيان الرابع ان يدافع عن نفسه ، فهاجم اعداءه قبل أن يزداد بأسهم فلا يقوى على دفعه ، وسارت الجيوش الدانيماركية الى المانيا ، ولكنها هزمت . وتابع ولنشتين انتصاراته فى نشاط وعنف ، فاضطرت الدنيمارك الى طلب الصلح . ولم يبق من مدن البحر البلطى فى ايـدى البروتستانت سوى مدينة واحدة هى مدينة سترالسند .

وقد نزل فى هذه المدينة فى مستهل صيف عام ١٦٣٠ الملك جوستاف أدولف ملك السـويد من بيت فاسا ، وهـو الذى اشتهر بدفاعـه عن بلاده ضد الروس . وكان جوستاف هـذا اميرا بروتستانتيا بعيد الاطماع ، راغبا فى جعل السويد مركز امبراطورية عظيمة فى الشمال . وقد رحب به امراء اوربا من البروتستانت باعتباره نصير الدعوة اللوثرية . وأوقع الهزيمة بالقائد تلى الذى كان قد أفلح فى ذبح البروتستانت من أهـل مجـدبرج ، ثم سارت جيوشه متوغلة فى قلب المانيا محاولة بلوغ املاك هبسبورج فى ايطاليا . وكان الكاثوليك يهددون مؤخرة جوستاف ، لذلك نجده يغير وجهته فجأة ويهزم جيش هبسبورج الأكبر فى وقعـة لوتزن . ومما يبعث على الاسف أن جوستاف لقى حتفه وهو يتجول بعيدا عن جنده ، غير أن شوكة آل هبسبورج كانت قد كسرت .

وكان فردیناند رجلا من دأبه الشك ، فبدأ من فوره يرتاب فى خدامه ، فكان أن قتل ولنشتين كبير قواده بايعاز منه . ولما سمع ملوك فرنسا الكاثوليك من بيت بوربون بذلك ــ وكانوا يحكمـون فرنسا ، ويكرهون منافسهم سليل بيت هبسبورج ــ انضموا الى أهل السويد البروتسـتانت . وغزت جيوش لويس الثالث عشر القسم الشرقى من المانيا ، واقتسم قائدا هذا الجيش ــ تورين وكنديه ــ الشهرة التى اثرت عن القـائدين السويديين بانر وفيمر ، ذلك انهما عمدا الى تذبيح آل هبسبورج ، ونهب ملكهم وتحريقه . وافضى ذلك الى ازدياد ثراء السويديين وشهرتهم مما احفظ اهل الدانيمارك عليهم . وعنـد ذلك أعلن اهل الدانيمارك البروتستانت الحرب على السـويديين البروتستانت ، وكان هؤلاء حلفـاء الفرنسيين الكاثوليك الذين كان قائدهم السياسى الكردينال ريشيليو قـد حـرم الهيجونوت (أى البروتستانت الفرنسيين) وشيكا من حقوقهم فى التعبد علانية ، وهى الحقوق التى خولها لهم مرسوم نانت الذى صدر عام ١٥٩٨ .

ولكن هذه الحروب كانت على غرار مثيلاتها من المصادمات ، فلم تحسم شيئا عندما انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ ، ذلك أن الدول الكاثوليكية ظلت على مذهبها الكاثوليكى كما ظلت الدول البروتستانتية مخلصة لعقائد لوثر وكلفن وزونجلى . وتم الاعتراف بسويسرا وهولندا البروتستانتيتين جمهـوريتين مستقلتين . واحتفظت فرنسا بمـدن متز وتول وفردان وبجزء من الالزاس . واستمرت الامبراطورية الرومانية المقدسة قائمة كالشبح بلا رجال او مال ، مفقودة الامل مسلوبة الشجاعة .



امستردام عام ١٦٤٨

وكان الخير الوحيد الذى تمخضت عنه حروب الثلاثين سنة خيرا سلبيا ، فقد ثبطت همة الكاثوليك والبروتستانت عن معاودة اشعال نار الحرب بحال من الاحوال ، ومن ثم تركت كل منهما تنعم بالسـلام والامن . على ان ذلك لم يكن يعنى ان الشعور الدينى والحزازات الدينية قد زالت من الوجود بل ان الامر كان على العكس من ذلك .

صحيح ان المشاحنات بين الكاثوليك والبروتستانت قد انتهت ، ولكن الجدل بين الفرق البروتستانتية المختلفة ظل مستعر الاوار كما كان من قبـل ، وقد اختلف الراى فى هولندا حول الطبيعة الحق للمذهب الجبرية ، وهى مسالة من مسائل الدين الغامضـة كل الغمـوض ، ولكنهـا كانت على جانب عظيم

من الاهمية في نظر اجداد اجدادنا . فاثار ذلك نزاعا انتهى باطاحة راس جون سليل بيت اولدنبارنفلت ، والسياسي الهولندي الذي كان له الفضل في نجاح الجمهورية في السنوات العشرين الاولى من استقلالها . وقد كان هذا الرجل هو ذلكم العبقري العظيم الذي نظم شركة الهند الهولندية التجارية . اما في انكلترا فقد انتهى هذا النزاع الى قيام فتنة فيها .

ويجدر بي ان اقص عليكم طرفا من تاريخ انكلترا السابق على ذلك قبل ان احدثكم عن هذه الفتنة التي ادت الى محاكمة ملك اوربي والقضاء باعدامه ، وكانت هذه اول سابقة من نوعها .

وانا احاول في هذا الكتاب الا اسوق لكم من حوادث الماضي الا ما كان منها يلقي ضوءا على الظروف التي تمر بعالمنا الراهن . فاذا تغاضيت عن ذكر بلاد بعينها فليس معنى ذلك انني اكن لها في قلبي كراهية او حقدا . وقد كنت احب ان يتاح لي ذكر ماحدث في النرويج وسويسرا والصرب والصين ، ولكن هذه البلاد لم يكن لها شأن كبير في تطور اوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومن ثم فاني اتجاوز عنهما تجاوز الكرام . على ان الموقف بالنسبة لانكلترا يختلف عن هذا ، ذلك ان ما فعله أهل تلك الجزيرة الصغيرة في السنوات الخمسمائة الاخيرة قد تحكم في مجرى التاريخ في كل ركن من اركان العالم .

وانت أيها القارىء لا تستطيع ان تفهم ما تقراه في الصحف الا اذا عرفت خفايا التاريخ الانكليزي معرفة صحيحة . ولذلك فان الامر يقتضيك ان تعلم كيف اتفق لانكلترا ان تمكنت من انشاء صورة برلمانية من صور الحكم ، في حين كانت سائر دول القارة الاوربية لا يزال يحكمها ملوك لا معقب لسلطانهم .

الثورة الإنجليزية

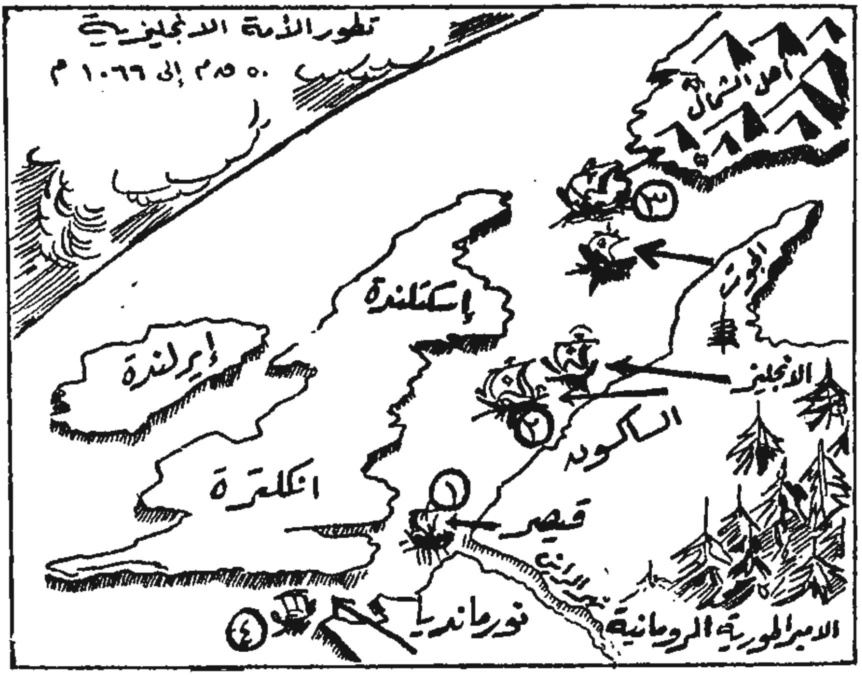
النزاع بين حق الملوك الالهي وحق البرلمان ، وهو حق اقل من الاول قدسية ، واقرب منه الى العقل ، وكيف انتهى هذا النزاع بمأساة حلت بالملك شارل

عبر قيصر ، اقدم مستكشف لشمال غربي أوربا ، القناة الانكليزية عام ٥٥ قبل الميلاد ، وفتح انكلترا . وظلت هذه البلاد ولاية رومانية أربعة قرون . ولما اخذ البرابرة يهددون روما ، سحبت روما حامياتها التي كانت مرابطة على الحدود ، للدفاع عن وطنها فتركت بريطانيا من غير حكومة ، وحرمت بريطانيا من اسباب حمايتها .

وما ان علمت القبائل السكسونية الجائعة في المانيا الشمالية بذلك ، حتى عبرت البحر الشمالي ، واستوطنت هذه الجزيرة الزاهرة ، وانشات فيها عددا من الممالك الانجلو ــ سكسونية المستقلة . وقد سميت بذلك الاسم نسبة للمغيرين الاصليين وهم الانكليز والسكسون . ولكن هذه الممالك الصغيرة دابت على التنازع فيما بينها ، ولم يظهر في الميدان ملك قوي يستطيع توحيد البلاد تحت سلطانه . وظلت ممالك مرسيا ، ونورثمبريا ، ووسكس ، وسسكس وكنت ، وانجليا الشرقية ، نيفا وخمسة قرون عرضة لهجمات القرصان الاسكندناويين على اختلافهم . وفي نهاية الامر اصبحت انكلترا والنرويج وشمالي المانيا في القرن الحادي عشر جزءا من الامبراطورية الدانيماركية الكبيرة التي أسسها كانيوت الاكبر ، وبذلك زال آخر اثر من آثار استقلالها . واخرج الدانيماركيون من البلاد بمرور الزمن ، وما كادت انكلترا تستعيد حريتها حتى غزيت للمرة الرابعة . وكان غزاتها الجدد سلالة قبيلة أخرى من أهل الشمال اغارت على فرنسا في بواكير القرن العاشر واسست بها دوقية نورماندي .

وكان وليم دوق نورماندي يتطلع بعين الحسد منذ امد بعيد الى البلاد التي وراء القناة ، لذلك نجده يعبر القناة الانكليزية في اكتوبر عام ١٠٦٦ . وفي الرابع عشر من شهر اكتوبر من السنة نفسها قضى وليم على جيوش هارولد ملك وسكس الضعيفة في وقعة هاستنجس واقام نفسه ملكا على انكلترا . وكان هارولد هذا آخر الملوك الأنجلو ساكسون .

ولم يكن وليم ولا خلفاؤه من بيت انجو وبلانتاجينات يعدون انكلترا موطنهم الحقيقي ، فقد كانت الجزيرة في نظرهم لا تعدو ان تكون جزءا من ميراثهم الهائل في القارة ، او مجرد مستعمرة يسكنها أناس متاخرون فرضوا عليهم لغتهم وحضارتهم . على أن



الامة الانجليزية

المستعمرة الانكليزية اخذت تطغى شيئا فشيئا على الوطن الاصلى نورمانديا .

وكان ملوك فرنسا فى الوقت نفسه يبذلون جهد اليائس للتخلص من جيرانهم الاقوياء الانكليز ــ النورمانديين الذين لم يكونوا فى الحقيقة سوى مواطنين متمردين على التاج الفرنسى . وبعد حروب دامت قرنا من الزمان تمكن الشعب الفرنسى بقيادة فتاة صغيرة تسمى **جان دارك** من طرد الاجانب من بلادهم . ووقعت جان فى الأسر فى وقعة **كومبيين** عام ١٤٣٠ ، وباعها آسروها البرغانديون الى الجنود الانكليز فأحرقوها على اعتبار انها ساحرة . ولم تتوطد اقدام الانكليز قط فى القارة الاوربية ، واستطاع ملوكهم آخر الأمر ان يصرفوا كل وقتهم فى العناية بممتلكاتهم البريطانية . وكان النبلاء والاقطاعيون فى الجزيرة الانكليزية قد انهمكوا فى مشاحنة من تلك المشاحنات العجيبة التى كانت شائعة شيوع الحصبة والجدرى فى العصور الوسطى ، كما كان معظم أصحاب الأراضى القدماء قد قتلوا فى الحروب المعروفة باسم حروب الوردتين ، ومن ثم كان من أسهل الأمور على ملوك انكلترا ان يوطدوا سلطانهم .

وما ان أشرف القرن الخامس عشر على نهايته ، حتى اصبحت انكلترا دولة ممعنة فى المركزية يحكمها هنرى السابع من بيت تيودور . وقد قمعت محكمته المشهورة المعروفة بغرفة النجم (Star Chamber) التى ترتعد لذكرها الفرائص ، كل مابذله النبلاء الذين كانوا على قيد الحياة من محاولات فى سبيل استعادة نفوذهم القديم على الاداة الحكومية بمنتهى الشدة والقسوة .

وفى عام ١٥٠٩ خلف هنرى الثامن والده هنرى السابع ، ومنذ ذلك الوقت اكتسب تاريخ انكلترا شأنا جديدا ، ذلك أن البلاد لم تعد مجرد جزيرة من جزائر العصور الوسطى ، بل اصبحت دولة حديثة . ولم يكن هنرى الثامن يهتم بالدين اهتماما كبيرا . وقد استغل مغتبطا فرصة خلاف خاص قام بينه وبين البابا فيما يتعلق بطلاقه الأول ، واعلن استقلاله عن كنيسة روما ، وبذلك جعل كنيسة انكلترا اول



حرب المائة عام

تلك الكنائس الوطنية التى اصبح فيها الحاكم الدنيوى هو ايضا الرئيس الروحى لرعاياه . ولم يكسب هذا الاصلاح السلمى الذى تم عام ١٥٣٤ بيت تيودور تأييد رجال الدين الانكليز الذين كانوا قد تعرضوا للهجمات العنيفة من قبل كثير من دعاة اللوثرية مدة طويلة فحسب ، بل زادايضامن سلطان الملوك بفضل ماعمدوا اليه من مصادرة ماكان للأديرة من أملاك .

كما ان هذا الاصلاح قد جعل هنرى فى الوقت نفسه محبوبا من التجار وأصحاب الصناعة ، فقد كان هؤلاء يعتزون بكونهم سكانا موفقين مرزقين لجزيرة يفصلها عن سائر أوربا قناة واسعة بعيدة الغور ، ومن ثم كانوا ينطوون على كراهية شديدة لكل ماهو أجنبى ، ولا يحبون أن يهيمن اسقف ايطالى على نفوسهم البريطانية الطاهرة السليمة !

توفى هنرى الثامن عام ١٥٤٧ تاركا العرش لولده الصغير ، وكان وقتذاك فى العاشرة من عمره . وكان الأوصياء على هذا الطفل يعطفون على تعاليم لوثر الحديثة ، فعملوا كل مافى وسعهم لنصرة الدعوة البروتستانتية . على أن هذا الصبى توفى دون أن يبلغ السادسة عشرة من عمره فخلفته على العرش اخته مارى زوجة فيليب الثانى ملك اسبانيا ، فأحرقت اساقفة الكنيسة الوطنية الجديدة ونهجت فى المسائل الأخرى نهج زوجها ملك اسبانيا .

ومن حسن الحظ أن مارى توفيت عام ١٥٥٨ ، وخلفتها على العرش اليصابات ابنة هنرى الثامن من زوجته الثانية آن بولين ، احدى زوجاته الست ، وهى

التى امر بقطع رأسها بعد ان فقدت الحظوة عنـده . وكانت اليصابات هـذه قد امضت ردحا من الزمن سجينة ، ولم يطلق سراحها الا بتدخل امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكانت هذه الملكة عدوة لدودة لكل ماهو كاثوليكى او اسبانى ، ولقد شاركت اباها عدم اهتمامه بالمسائل الدينية ، ولكنها ورثت تلك الكفاية التى اثرت عنه : الا وهى دقة الحكم على طبائع الناس . وجلست اليصابات على عرش انكلترا خمسا واربعين سنة قضتها فى تقوية سلطان البيت المالك وفى توسيع ممتلكات الجزائر البريطانية السعيدة وتنمية دخلها . وقد عاونها فى ذلك خير معاونة عدد من الرجال تجمعوا حول عرشها وجعلوا عصرها من رفعة الشأن بحيث ينبغى لك أن تدرسه بالتفصيل فى كتاب من الكتب الخاصة الكثيرة التى كتبت عن هذا العهد .

على ان اليصابات لم تكن مطمئنة كل الاطمئنان على عرشها ، لقد كانت لها منافسة عظيمة الخطر . ذلك ان مارى سليلة بيت استيوارت ،وابنة دوقة فرنسية واب اسكتلندى ، وارملة فرنسيس الثانى ملك فرنسا وزوجة ابن كترين ده مديشى — التى دبرت مذبحة سانت برثلوميو — كانت أم صبى قيض له ان يصبح فيما بعد اول ملوك انكلترا من اسرة استيوارت . وكانت مارى هذه كاثوليكية متعصبة ، وصديقة حميمة لكل اعداء اليصابات . بيد ان عجزها فى حلبة السياسة واصطناعها العنف فى تاديب رعاياها من أتباع كلفن قد ادى الى قيام الثورة فى اسكتلندا ، فاضطرت الى الالتجاء الى ارض انكليزية ، وقضت فى انكلترا ثمانية عشر عاما دائبة على التآمر ضد المرأة التى آوتها . واضطرت اليصابات آخر الامر الى الاخذ بنصيحة أصحاب مشورتها المخلصين فقطعت راس هـذه الملكة الاسكتلندية . وقد تم ذلك عام ١٥٨٧ وكان سببا فى اشتباك انكلترا فى حرب مع اسبانيا ، ولكن الأسطولين الانكليزى والهولندى ، انزلا مجتمعين الهزيمة بارمادا فيليب المنيعة الجانب كما ذكرنا من قبل . وانقلبت الضربة التى قصد بها القضاء على هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين كانتا تتزعمان الحركة المناهضة للكاثوليكية ، الى مغامرة تجارية عادت عليهما بالنفع .

ذلك ان الانكليز والهولنديين قد انتهى بهم الرأى آنئذ بعد تردد دام عدة سنوات الى الاعتقاد بان من حقهم غزو جزائر الهند وامريكا للاقتصاص من الاسبان جزاء ماأنزلوه باخوانهم البروتستانت من محن وارزاء . ولقد كان الانكليز فى طليعة من سار على منوال كولومبس .



جون وسباستيان كابوت يرتادان ساحل نيوفوندلاند

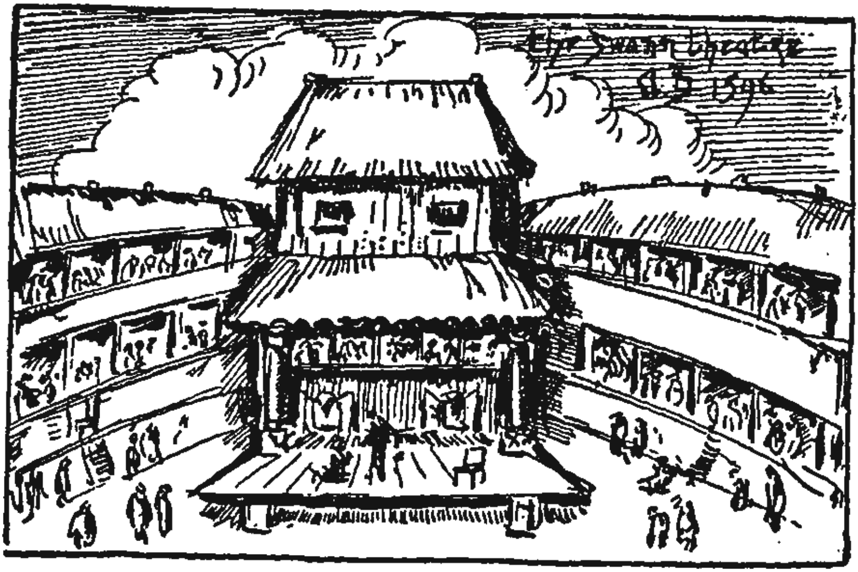
فكانت السفن الانكليزية بقيادة الملاح البندقى جيوفانى كابوتو او كابوت أول من كشف عن امريكا الشمالية عام ١٤٩٦ .

وكانت لبرادور ونيوفوندلاند مستعمرتين ضئيلتى الشأن لاتبشران بالخير ، ولكن شواطىء نيوفوندلاند كانت مغنما خصبا لاسطول الصيد الانكليزى . وارتاد كابوت ساحل فلوريدا بعد ذلك بعام اى سنة ١٤٩٧ .

ثم حلت سنوات حافلة بالحوادث ولى فيها عرش انكلترا هنرى السابع ثم هنرى الثامن ، فلم يجدا بين ايديهما من المال مايتيح لهما القيام باعمال الاستكشاف . اما فى عهد اليصابات فكانت انكلترا فى سلام ، ومارى استيوارت بين جدران سجنها ، وكان الملاحون يغادرون موانىء بلادهم مطمئنين على مصير اولئك الذين خلفوهم وراءهم .

وقد خاطر ولوبى — عندما كانت اليصابات لاتزال بعد طفلة — بالابحار الى ماوراء الراس الشمالى ، واوغل احد ملاحيه ، وهو **ريتشارد تشانسلور** ، شرقا بحثا عن طريق الى جزائر الهند الشرقية، فوصل الى اركانجل الروسية حيث انشأ علاقات دبلوماسية وتجارية مع حكام هذه الامبراطورية المسكوفية البعيدة الذين كانت تحيط بهم الأسرار .

وفى خلال السنوات الأولى من عهد اليصابات ،اعقب هذه الرحلة رحلات اخرى كثيرة ، فقد قام جماعة من التجار المغامرين الذين يعملون لصالح شركة من شركات الخاصة ، واسسوا مراكز تجارية اصبحت مستعمرات فيما تلا ذلك من قرون . وقد حمل ملاحو اليصابات العلم الانكليزى ، كما حملوا شهرة ملكتهم العذراء الى الأركان الاربعة للبحار السبعة ، وكان هؤلاء الملاحون اشبه بالقرصان ، واشبه بالدبلوماسيين ، مستعدين للمقامرة بكل شىء فى سبيل رحلة واحدة سعيدة . كانوا مهربين لكل شىء يمكن أن توسق به سفينة من



المسرح فى عهد اليصابات

السفن ، يتاجرون بالرجال والبضاعة على حد سواء ، ولا يحفلون فى ذلك الا بما يعود عليهم بالربح .

وكان شكسبير فى الوقت ذاته يعمل على تسلية جلالتها فى ارض الوطن . وتعاون صفوة العقلاء وخيرة الألباء مع الملكة فى محاولتها احالة الملك الاقطاعى الذى ورثته عن هنرى الثامن الى دولة قومية جديدة .

وفى عام ١٦٠٣ توفيت هذه السيدة العجوز بالغة من العمر سبعين سنة فخلفها على العرش ابن عمها ، وهو سبط جدها هنرى السابع ، وولد مارى استيوارت منافستها وعدوتها ، ولقب بجيمس الأول . وقد وجد جيمس نفسه ـ بفضل الله ـ حاكم دولة نجت من المصير التى آلت اليه دول القارة الاوربية ، فبينما كان البروتستانت والكاثوليك فى أوربا يقتل بعضهم بعضا فى محاولة يائسة للقضاء على قوة خصومهم وغلبة عقيدتهم الخاصة بحيث لاتقوم لأية عقيدة اخرى قائمة ، كانت انكلترا تعيش فى سلام ووئام ، وتصلح أمر دينها فى يسر واطمئنان دون أن تشتط اشتطاط لوثر أو لويولا .

وقد اكسب كل ذلك هذه المملكة الجزرية ميزة هائلة ، فى نضالها المقبل فى سبيل تملك المستعمرات ، وضمن لانكلترا الزعامة فى الشئون الدولية، تلك الزعامة التى ظلت محتفظة بها الى عهد قريب . بل ان تلك

المغامرة المشئومة ، مغامرة تولية آل ستيوارت العرش ، لم تستطع ان توقف هذا التطور الطبيعى .

لقد كان آل ستيوارت الذين خلفوا آل تيودور على عرش انكلترا أجانب عن البلاد ، والظاهر انهم لم يقدروا هذه الحقيقة او يفهموها، ذلك أن بيت تيودور الوطنى كان فى مقدوره ان يسرق حصانا ، اما بيت استيوارت الاجنبى فلم يكن يسمح له بالتطلع الى لجام الحصان دون أن يثير ذلك سخطا عاما كبيرا .

لقد حكمت الملكة اليصابات ، تلك الملكة العريقة ، ملكها على ماتحب وتهوى ، على انها كانت بصفة عامة تسير دائما وفق السياسة التى ترمى بأن يدخل المال فى جيوب الأمناء، وبمعنى آخر فى جيوب التجار الانكليز! ومن ثم كانت الملكة دائما أبدا موقنة من تعضيد رعاياها الشاكرين تعضيدا صادرا عن قلوبهم ، فكان الشعب يتغاضى عن طيب خاطر عن الحريات غير الجوهرية وعن الحقوق والامتيازات التى سلبتها الملكة من البرلمان الانكليزى فى سبيل المصالح الكبرى التى كانت تتحقق بفضل سياستها الخارجية القوية الموفقة .

وتابع الملك جيمس هذه السياسة فى ظاهر الأمر ، ولكنه كان ينقصه تلك الحمية الشخصية التى كانت من أخص خصائص سلفته العظيمة . فقد استمر فى تشجيع

التجارة الخارجية ، ولم يمنح الكاثوليك اية حرية من الحريات . على انه ما ان اقبلت اسبانيا على انكلترا محاولة ان تعقد معها صلات ودية حتى استجاب جيمس لهذا الاقبال . وكان معظم الشعب الانكليزي ينفر من ذلك ، ولكن جيمس كان ملكهم فاستكانوا .

وسرعان مالاحت اسباب اخرى للخلاف بين الملك وشعبه ، فقد كان جيمس ومن بعده ولده شارل الاول الذي خلفه على العرش عام ١٦٢٥ ، يعتقدان اعتقادا جازما بحق الملك الالهي في حكم مملكته بحسب مايرى ومن غير ان يتعرف على رغبات رعاياه . ولم تكن هذه الفكرة جديدة ، فقد كان البابوات الذين كانوا من عدة وجوه خلفاء اباطرة الرومان ، أو قل انهم كانوا يمثلون المثل الاعلى للامبراطورية الرومانية الذي يرمي الى اقامة دولة واحدة متحدة تشمل العالم المعروف باسره ـ يعدون انفسهم على الدوام خلفاء المسيح على الأرض ، وقد اعترف الناس لهم جهرة بهذه الصفة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك انه لم يشك الا القليلون في حق هذا الخليفة المقدس في أن يفعل ما فعله المسيح ، وان يطلب الطاعة من الجماهير ، لانه كان يمثل مباشرة المدبر الأعظم للكون ، كان هو المسئول امام الله العلى القدير دون سواه .

فلما ثبت نجاح الاصلاح الذي نادى به لوثر انتقلت هذه الحقوق المقدسة التي كانت من قبل في ايدي البابوات الى كثير من الملوك الاوربيين الذين اصبحوا يدينون بالبروتستانتية ، واصر هؤلاء على أن يكونوا خلفاء المسيح في حدود ملكهم بوصف كونهم رؤساء كنائسهم الوطنية او الكنائس التي يتوارثونها . ولم يناقش الشعب حق ملوكه في اتخاذ هذه الخطوة ، فقد سلموا بها كما نسلم نحن الآن بفكرة النظام النيابي الذي يبدو في نظرنا انه الصورة الوحيدة المعقولة من صور الحكم التي تتحقق بها العدالة . ومن ثم فليس من الانصاف أن نقول ان اللوثرية او الكلفنية هي مصدر ذلك الشعور الخاص بالسخط الذي كانت تقابل به دعوة الملك جيمس بحقه الالهي الذي كان لاينفك يرددها جهرة ، ولا بد أن تكون ثمة اسباب اخرى لهذا الشعور السليم الذي احس به الانكليز ، الا وهو عدم الاعتقاد في الحق الالهي للملوك .

لقد سمع أول صوت أنكر بالفعل الحق الالهي للملوك في الأراضي الواطئة، وذلك عندما نادى مجلس الطبقات بخلع سيد البلاد الشرعي الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٨١ ، فقد ذهب الى أن الملك قد اخل بالعهد الذي بينه وبين شعبه ، ولذا وجب ابعاده كما يبعد اى خادم آخر اخل بالأمانة ، وانتشرت منذ ذلك الوقت فكرة مسئولية الملك امام رعاياه بين كثير من الشعوب التي تسكن شواطىء بحر الشمال . وكانت هذه الشعوب في مركز موات كل المواتاة، فقد كانت غنية . اما الشعوب الفقيرة في اواسط اوربا التي كانت تحت رحمة الحرس الذي اقامه ملوكهم ، فلم يكن في مقدورهم مناقشة مسألة تزج بهم على الفور في سجن اقرب القلاع اليهم . اما تجار هولندا وانكلترا الذين كانوا يملكون المال اللازم للانفاق على جيوش واساطيل عظيمة ، والذين كانوا يعرفون كيف يستخدمون ذلك السلاح القتال الا وهو الاقراض ، فلم يغش قلوبهم ما غشى قلوب هؤلاء من خوف ، ذلك انهم كانوا مصممين على ان يضعوا حر مالهم في الميزان امام الحق الالهي الذي يدعيه اى ملك من ملوك الهبسبورج او البوربون أو الاستيوارت . فقد عرفوا انهم يستطيعون بذهبهم ان يفلوا الجيوش الاقطاعية المفككة التي كانت السلاح الوحيد الذي يعتد به الملك . كانوا يستطيعون ان يقدموا على العمل ، اما غيرهم فقد كتب عليهم ان يقاسوا العذاب صامتين ، اويغامروا بحياتهم على حبال المشنقة .

ولما بدأ آل ستيوارت يزعجون الشعب الانكليزي بدعواهم ان لهم الحق في عمل مايحلو لهم دون ان يكونوا مسئولين عن ذلك امام احد ، اخذت الطبقات الوسطى تتخذ من مجلس العموم حصنا اماميا لها يعصمها من سوء استخدام الملوك لسلطتهم . وقد رفض الملك أن يذعن للشعب فكان من امره ان حل البرلمان . وظل شارل الاول يحكم البلاد بمفرده احد عشر عاما ، فكان يجبى الضرائب التي عدها معظم الشعب امرا غير مشروع ، واخذ يدبر شئون الدولة البريطانية كانها ملك خاص له . وكان يعاونه في ذلك مساعدون مقتدرون . والحق انه اوتي الشجاعة على ابرام مارسخ في عقيدته .

ومن سوء الحظ ان شارل لم يعمل على اكتساب معونة رعاياه الاسكتلنديين المخلصين ، بل اشتبك في نضال مع رجال الدين **البرسبتيريين** . وشعر شارل بحاجته الماسة الى مال نقدى فانتهى به الأمر ، على غير ما يحب ، الى دعوة البرلمان بمجلسيه مرة اخرى . فاجتمع في شهر ابريل عام ١٦٤٠، فتجهم له ، فحله بعد اسابيع قليلة من اجتماعه . واجتمع برلمان آخر في نوفمبر ، ولكنه كان اكثر تشددا من

البرلمان السابق ، فقد ادرك اعضاؤه انه يجب ان تحل مسالة الحكم بمقتضى الحق الالهى ، اوالحكم عن طريق البرلمان حلا نهائيا حاسما ، وهاجموا الملك فى شخص مستشاريه ، وقتلوا نفرا منهم ، واعلنوا انهم سوف لايسمحون بحل البرلمان دون موافقة اعضائه . وكان ان قدموا للملك اخيرا فى ديسمبر سنة ١٦٤١ عريضة احتجاج كبرى فصلوا فيها الكلام عن المظالم الكثيرة التى تغضب الشعب من مليكه .

وغادر شارل لندن فى يناير عام ١٦٤٢ الى الريف آملا ان يكتسب بعض التأييد لسياسته فى أقاليمه . واخذ كل فريق يعد جيشا يتاهب للقتال السافر بين سلطان الملك المطلق وسلطان البرلمان المطلق . وسرعان ماتقدم الصفوف فى اثناء هذا النضال اقوى العناصر الدينية فى انكلترا الا وهم **المتطهرون** ، وهم من اتباع الكنيسة الانجليكانية الذين كانوا قد رغبوا ان يطهروا عقائدهم الدينية من ادرانها تطهيرا . فتقدمت كتائبهم المؤلفة من رجال ورعين وعلى راسهم **اوليفر كرومويل** ، يسودهم النظام الذى اثر عنهم ، وتتملكهم الثقة الوطيدة فى قداسة اغراضهم ، فاصبحوا بعد قليل قدوة لجيوش المارضين جميعا . وحلت الهزيمة بشارل مرتين وفر الى اسكتلندا عام ١٦٤٥ بعد وقعة ناسبى ، ولكن الاسكتلنديين باعوه الى الانكليز .

واعقب ذلك فترة من الدسائس والمؤامرات ، وحدث انتقاض من البرسبيتيريين الاسكتلنديين على المتطهرين الانكليز . وفى اغسطس عام ١٦٤٨ وضع كرومويل ، بعد موقعة برستون بانز التى دامت ثلاثة ايام ، حدا لهذه الحرب الاهلية الثانية ، واستولى على ادنبرة . وفى خلال ذلك قرر جنوده ــ وقد ضاقوا بالنقاش فى المسائل الدينية والساعات الضائعة فى هذا النقاش ــ ان يقدموا على العمل من جانبهم فاخرجوا من البرلمان القديم كل من لم يوافق على آراء المتطهرين ، أما الباقون من اعضاء البرلمان القديم فقد اتهموا بالخيانة العظمى .

ورفض مجلس اللوردات ان يحكم فى هذا الموضوع ، فاختيرت محكمة خاصة ادانت الملك وحكمت عليه بالاعدام . وفى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، سار الملك فى هدوء خارجا من نافذة فى قصره هوايت هول الى المشنقة . وفى ذلك اليوم تصرف الشعب صاحب الكلمة العليا ممثلا فى نوابه المنتخبين ، فاعدم للمرة الاولى حاكما عجز عن ان يدرك مهمته فى دولة حديثة . وينسب العهد الذى اعقب مقتل الملك شارل الى اوليفر كرومويل . وكان كرومويل فى اول عهده دكتاتورا لم يعترف به الشعب ، ثم اعترف به سيدا حاميا للبلاد عام ١٦٥٣ ، وقد دام حكمه خمس سنوات . وسار فى هذه المدة على سياسة اليصابات . وقد غدت اسبانيا مرة اخرى الخصم الألد لانكلترا ، بحيث اصبحت الحرب بين الاثنتين امرا لامفر منه وواجبا مقدسا . ووضعت تجارة انكلترا ومصالح تجارها فى المكان الأول ، واصطنعت الصرامة فى دعم العقيدة البروتستانتية فى أشد صورها . وافلح كرومويل فى تعزيز مكانة انكلترا فى الخارج ، ولكنه فشل فشلا ذريعا فى اصلاحاته الإجتماعية . فالعالم مكون من عدد من الناس قلما يتشابهون فى أفكارهم . وقد بدا ان هذا الراى سليم حكيم بمرور الزمن ، ذلك ان حكومة تعمل لفريق واحد فى المجتمع تقوم به وتعمل من اجله لايمكن ان تدوم . لقد كان المتطهرون بلا شك قوة عظيمة عندما سعوا الى اصلاح مساوىء السلطة الملكية ، ولكن الناس ضاقوا بهم عندما اصبحوا حكام انكلترا المستبدين بأمرها .

وكان من اليسير على آل ستيوارت ان يعودوا الى عرشهم القديم بعد وفاة كرومويل عام ١٦٥٨ . ولا ريب ان الشعب البريطانى قد رحب بهم ، وعدهم مخلصين له من محنته .. ذلك انهم وجدوا أن نير المتطهرين لا يقل فداحة عن نير الملك شارل المستبد . ووعد الشعب بانه سوف يدين بالولاء والاخلاص لبيت ستيوارت ما اظهروا عزمهم على نسيان الحق الالهى فى الحكم الذى نادى به أبوهم الفقيد المأسوف عليه ، والاعتراف بأن البرلمان هو صاحب السلطة العليا .

وتطلب نجاح هذا النظام الجديد جيلين . على ان ملوك الاستيوارت لم يكونوا فيما يظهر قد اعتبروا بذلك الدرس الذى مر بهم ، وكانوا الى ذلك عاجزين عن ان يقلعوا عن عاداتهم القبيحة . وعاد شارل الثانى الى عرش انكلترا عام ١٦٦٠ ، وكان رفيقا ، ولكنه كان شخصا تافها . فقد تحاشى ــ ببلادة طبعه واصراره على اصطناع اهون الاساليب الدستورية وأيسرها ، وببراعته فى الكذب ــ الوقوع فى نزاع سافر مع شعبه . وقضى شارل على سلطان رجال الدين من المتطهرين بمقتضى مرسوم التوفيق الصادر عام ١٦٦٢ ، وقد اقصى جميع رجال الدين المخالفين عن عن أبرشياتهم .

ثم أصدر فى عام ١٦٦٤ القانون المعروف باسم قانون

جماعة المعتزلين (Conventicle Act) حاول فيه منع المنشقين من حضور الاجتماعات الدينية مهددا اياهم بالنفى الى جزائر الهند الغربية . وكان مافعله اشبه شيء بفعال ملوك سالف الزمن يوم كانوا يستمتعون بالحق الالهى فى الحكم ، وبدا الناس يظهرون ما اثر عنهم من امارات الغضب . ولقى البرلمان فجاة مشقة فى تزويد الملك بالاعتمادات المالية اللازمة . ولما راى شارل انه لايستطيع الحصول على مال من برلمان يأباه عليه ، لجأ الى اقتراض المال سرا من جاره وابن عمه لويس ملك فرنسا ، فخان بذلك حلفاءه البروتستانت مقابل ٢٠٠ الف جنيه سنويا ، وسخر من رجال البرلمان الساذجين .

وكان من امر استقلال الملك فى تدبير المال ان اكسبه ثقة عظيمة فى قوته وباسه . وكان شارل قد قضى سنوات كثيرة من منفاه بين عشيرته من الكاثوليك ، فكان لذلك يضمر الميل لعقائدهم . ولعله كان يحس بأن فى مكنته العودة بانكلترا الى احضان كنيسة روما ، فقد اصدر اعلانا بالغفران اوقف به القوانين القديمة التى سنت ضد الكاثوليك والمنشقين ، وحدث ذلك فى الوقت نفسه الذى قيل فيه ان اخاه الاصغر جيمس قد اعتنق المذهب الكاثوليكى . وكان كل ذلك مريبا فى نظر الشعب ، فبدأ يتوجس من ان يكون البابا يحيك خيوط مؤامرة فظيعة ، ومن ثم ساد القلق فى البلاد . وكان معظم الناس يرغبون فى الحيلولة دون نشوب حرب اهلية اخرى ، فقد كانوا يفضلون الاستبداد الملكى ووجود ملك كاثوليكى فى الحكم ، بل كانوا يؤثرون ان يتمتع هذا الملك بالحق الالهى فى الحكم على قيام فتنة جديدة بين ابناء الوطن الواحد . على أن ثمة آخرين كانوا اقل من هؤلاء تسامحا ، وهم المنشقون الذين كان الناس يخشونهم خشية شديدة ، والذين كانوا قد أوتوا فى جميع الاحوال الشجاعة على الجهر بعقائدهم . وكان على راسهم عدد من أعيان الأشراف الذين كانوا راغبين عن ان يروا عودة تلك الايام التى كان فيها الملك هو صاحب السلطان المطلق .

وظل هذان الحزبان الكبيران ، وهما الأحرار (Whigs) (وهم الطبقة الوسطى الذين اشتق اسمهم هذا من الحادث الذى وقع عام ١٦٤٠ ، الا وهو قيام طائفة من سائقى الخيل الايقوسيين بزعامة رجال الدين البرسبيتيريين بالمسير الى ادنبرة لمناهضة الملك) والمحافظون (Tories) (وهو لقب كان فى الاصل يعبر به الايرلنديون من انصار الملك ، ولكنه يطلق الآن على انصار الملك انفسهم) قرابة عشر سنوات يعارض كل منهما الآخر ، ولكن كان كل من الحزبين راغبا عن دفع الامور الى حد احداث ازمة فى البلاد ، فكان ان تركوا الملك شارل الثانى يموت آمنا فى سريره ، وسمحوا لجيمس الثانى الكاثوليكى بأن يخلف اخاه على العرش عام ١٦٨٥ ، ولكن جيمس روع البلاد باتخاذه تلك البدعة الأجنبية المفزعة : الا وهى انشاء جيش دائم يتولى قيادته فرنسيون كاثوليك ، ثم أصدر تصريحا ثانيا بالغفران عام ١٦٨٨ ، وامر بتلاوته فى جميع الكنائس الانجليكانية ، فتجاوز بعض التجاوز ذلك الحد المعقول الذى لايمكن أن يتجاوزه الا أحب الملوك لدى الشعب فى الظروف الاستثنائية الخطيرة . ورفض سبعة اساقفة الاستجابة لقرار الملك ، فاتهموا بالتمرد وحوكموا ، ولكن هيئة المحلفين حكمت ببراءتهم فنالت بذلك رضا الناس واستحسانهم الكبير .

وفى هذه الآونة غير المواتية اعقب جيمس ولدا من زوجته الثانية ماريا الكاثوليكية سليلة بيت مودينا استه ، وكان معنى ذلك ان العرش سوف يؤول الى صبى كاثوليكى لا الى اخت من اختيه مارى وآن اللتين كانتا على المذهب البروتستانتى . فاخذ الشك يدب مرة اخرى فى نفوس الناس ، لان زوجة جيمس ـ ماريا مودينا ـ كانت أسن من أن تلد البنين ، فتساءلوا أيكون ذلك كله طرفا من اطراف دسيسة مدبرة ؟ . وجرى على الألسن أن قسيسوعيا احضر هذا الغلام الغريب الى القصر الملكى لكى يؤول عرش انكلترا الى ملك كاثوليكى . ونمت الشائعات على هذا النحو ، وبدا ان الجو ينذر بنشوب حرب اهلية أخرى . وعند ذلك كتب سبعة من مشاهير الأحرار والمحافظين طلبا يسألون فيه زوج مارى ابنة جيمس الكبرى ـ وهو وليم الثالث راس الجمهورية الهولندية ـ ان يحضر الى انكلترا ليخلص البلاد من ملكها الذى أنكره الناس انكارا وان كان هو الحاكم الشرعى للبلاد .

ونزل وليم أرض انكلترا عند توربى فى الخامس من شهر نوفمبر عام ١٦٨٨ ، ولكنه لم يشأ ان يضحى بحميه فساعده على الفرار آمنا الى فرنسا . وفى ٢٢ يناير سنة ١٦٨٩ دعا البرلمان الى الاجتماع . وفى ١٣ فبراير من العام نفسه نودى به وبزوجته مارى ملكا وملكة على انكلترا ، وبذلك مهد الطريق للمذهب البروتستانتى .

ورغب البرلمان فى أن يكون شيئا اكثر من مجرد هيئة استشارية للملك ، فاستغل الفرص التى اتيحت له الى اقصى حد ، ونبش السجلات المهجورة حتى

اخرج عريضة الحقوق القديمة التى يرجع تاريخها الى عام ١٦٢٨ ، وقدم وثيقة حقوق اخرى اشد من الأولى تقضى بأن يكون ملك انكلترا من اتباع الكنيسة الانجليكانية . ولم تكتف هذه الوثيقة بذلك ، بل نصت على انه ليس من حق الملك ايقاف العمل بالقوانين ، أو أن يسمح لبعض المواطنين من اصحاب الامتيازات بالخروج عن طاعة قوانين بعينها . ونصت ايضا على انه لا تجبى ضرائب او يقام جيش دون موافقة البرلمان . ومن ثم فقد اتيح لانكلترا فى عام ١٦٨٩ ان تحصل على قدر من الحرية لم يكن لدولة اوربية اخرى به عهد .

ولم يخلد حكم وليم لانكلترا بهذه الخطوة العظيمة فى سبيل الحرية فحسب ، بل خلد ايضا بما تم فى عهده من قيام اول حكومة مسئولة . والحق انه مامن ملك يستطيع أن يحكم وحده ، فهو فى حاجة الى عدد قليل من اصحاب المشورة المخلصين . وقد كان لملوك التيودور مجلسهم الكبير الذى كان يتألف من النبلاء ورجال الدين . وقد تضخم هذا المجلس ، فضيق نطاقه حتى أصبح يعرف باسم « المجلس الخاص » القليل العدد . وبمضى الزمن نشأت سنة اجتماع الملك بهؤلاء المشيرين فى احدى حجرات القصر ، ومن ثم عرفت هذه الهيئة باسم مجلس الغرفة (Cabinet Council) ثم عرفت بعد ذلك باسم الغرفة (Cabinet) اى مجلس الوزراء .

ونهج وليم نهج معظم اسلافه من ملوك الانكليز ، فاختار مستشاريه من جميع الاحزاب . فلما نما سلطان البرلمان نموا مطردا ، راى وليم انه يستحيل عليه ان يدير دفة السياسة فى البلاد بمساعدة المحافظين ، فى حين ان الأحرار كانوا اصحاب الأغلبية فى مجلس العموم ، لذلك اخرج المحافظين من مجلس الوزراء ، فاصبح يتألف من الأحرار وحدهم . وبعد سنوات قلائل فقد الأحرار سلطانهم فى مجلس العموم ، فراى الملك ان سير الامور يقتضيه ان يتخذ مستشاريه من بين زعماء المحافظين . وكان وليم الى حين وفاته عام ١٧٠٢ مستغرقا فى قتال لويس ملك فرنسا ، فصرفه ذلك عن التفرغ لحكومة انكلترا ، لذلك ترك بالفعل تصريف جميع الشئون الهامة لمجلس الوزراء . وظلت الحال على ذلك المنوال بعد أن خلفته على العرش زوجة أخيه آن . وتوفيت آن عام ١٧١٤ ، وكان اولادها السبعة عشر قد ماتوا جميعا قبلها لسوء الحظ ، فانتقل العرش الى جورج الأول سليل بيت هانوفر ، وهو ابن صوفى حفيدة جيمس الأول . وكان فى هذا الملك شيء من أخلاق أهل الريف ، فلم يكن يعرف قط كلمة انكليزية واحدة ، فتاه فى بيداء النظم السياسية الانكليزية المعقدة ، ومن ثم ترك مقاليد الأمور فى يد مجلس الوزراء ، ولم يحضر اجتماعاته التى كانت تضايقه بسبب عدم فهمه جملة واحدة مما يقول اعضاء هذا المجلس . وبهذا جرت العادة بأن يحكم مجلس الوزراء انكلترا واسكتلندا ، (التى انضم برلمانها الى برلمان انكلترا عام ١٧٠٧) دون ان يشغل الملك نفسه بتلك الامور . وكان جورج يؤثر ان يصرف جزءا كبيرا من وقته فى القارة الأوربية .

وتعاقب على رياسة مجلس الوزراء خلال حكم جورج الاول وجورج الثانى طائفة من زعماء الأحرار ، وظل واحد منهم ، وهو السير **روبرت والپول** ، فى دست الوزارة واحدا وعشرين عاما . واعترف بزعيم الاحرار آخر الأمر زعيما رسميا لحزب الاغلبية فى البرلمان الى جانب رياسته للوزارة . وقد حاول جورج الثالث ان يستعيد زمام الامور ، ولا يترك مباشرة شئون الحكم لمجلس الوزراء ، فكانت عاقبة محاولته وخيمة ... فلم يحاولها أحد من بعده .

ونخرج من هذا بان انكلترا كانت منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر تستمتع بحكومة نيابية ووزارة مسئولة تدير شئون البلاد . على أن تحرى الحق كاملا غير منقوص يقتضينا ان نقول ان هذه الحكومة لم تكن تمثل جميع طبقات المجتمع الانكليزى ، فلم يكن حق التصويت فى الانتخاب ممنوحا الا لاقل من واحد من اثنى عشر من الرجال البالغين . على ان تلك الحكومة كانت الاساس الذى قامت عليه الحكومة النيابية الحديثة ، فقد انتقل السلطان فى هدوء ونظام من يد الملك الى ايدى جماعة من ممثلى الامة يزداد عددهم باطراد .

ولم تفىء هذه الحكومة النيابية السعادة الكبرى على انكلترا ، ولكنها حفظتها من معظم الثورات التى كانت وبالا على القارة الأوربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

توازن القوى

اما فى فرنسا فقد استمر حق الملوك المقدس فى الحكم قائما ، وزاد فخامة وبهاء عما كان عليه .

ولم يحد من اطماع الملك الا السنة التى استخدمت فى تلك الأيام الا وهى توازن القوى

وليسمح لى القارىء أن اقص عليه ـ على سبيل المقابلة كما ذكرت فى الفصل السابق ـ الحوادث التى وقعت فى فرنسا خلال السنوات التى كان فيها الشعب الانكليزى يقاتل فى سبيل حريته . فالشاهد أن التاريخ قلما يجود برجل صالح فى أمة صالحة فى زمن موات . على أن **لويس** قد بلغ هذه الغاية بالنسبة لفرنسا ، ولو أن سائر بلاد أوروباكانت خليقة بأن تكون اسعد حالا بدونه . فقد كانت الدولة التى استدعت هذا الملك الشاب ليتسنم عرشها اعمر بلاد الارض وازهرها فى تلك الأيام . تولى لويس عرش فرنسا ، وكان الكاردينالان العظيمان **ريشيليو** و **مازران** قد فرغا وشيكا من صهر مملكة فرنسا القديمة،وجعلاها احكم الدول مركزية فى القرن السابع عشر .

ولقد كان لويس نفسه رجلا أوتى مقدرة خارقة ، ولا زلنا نحن أهل القرن العشرين تحيط بنا ذكريات عهده المجيد ، عهد « الملك الشمس » . ذلك أن حياتنا الاجتماعية تقوم على تلك الشمائل التى اكتملت فى بلاط **لويس الرابع عشر** ، وذلك الاسلوب الرشيق فى التعبير الذى رقى اليه ذلك البلاط . وما زالت اللغة الفرنسية فى ميدان الصلات الدبلوماسية والدولية ، هى اللغة الرسمية المستعملة فى المؤتمرات السياسية والاجتماعات الدولية ، ذلك انها بلغت منذ قرنين من جودة اللفظ ورشاقة التعبير وسلامته مبلغا لم تستطع لغة أخرى أن ترقى اليه . ولا يزال مسرح الملك لويس يلقننا دروسا لا نتفهمها الا فى بطء شديد . وقد احتلت « الاكاديمية » الفرنسية التى استحدثها ريشيليو مكانة فى عالم الأدب حملت الامم الاخرى على تملقها بانشاء « أكاديميات » على غرارها . ويقتضينا تعداد آثار لويس فى هذا الباب عدة صفحات أخرى . وليست الصدفة وحدها هى التى جعلت قائمة الطعام فى أيامنا هذه تكتب بالفرنسية ، فقد مورس فن الطهو المستساغ ، ذلك الفن العويص الذى يعد من أعظم آيات الحضارة ، ارضاء لهذا الملك الخطير . وكان عصر لويس الرابع عشر عصر ابهة وجلال . ولا نزال نتعلم من بدائعه الشىء الكثير .

ومما يؤسف له ان هذه الصورة الزاهية لها جانب آخر معتم ، فقد جرت سنة الاحوال بأن مجد الدولة الذى تحرزه فى الخارج يقترن فى كثير من الاحوال ببؤس يرين عليها فى الداخل ، ولم تشذ فرنسا عن هذه السنة . لقد خلف لويس الرابع عشر اباه على عرش فرنسا عام ١٦٤٣ ، وتوفى عام ١٧١٥ ، ومعنى ذلك ان مقاليد الحكم فى فرنسا ظلت فى يد رجل واحد فقط مدة اثنين وسبعين عاما ، اى نحو جيلين تقريبا .

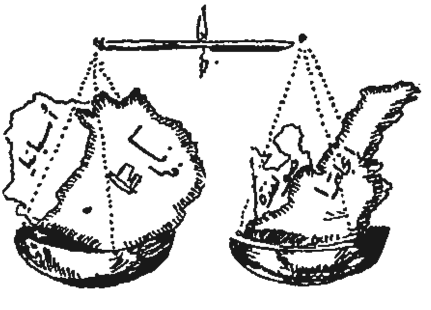
ومن الخير أن نتفهم جيدا هذه العبارة الا وهى « رجل واحد فقط » . كان لويس رأس قائمة طويلة من الملوك الذين انشأوا فى عدة دول تلك الصورة الخاصة من صور حكم الفرد التى تتميز بالكفاية والمقدرة العظيمين ، والتى نسميها « حكومةاستبدادية متنورة » . ذلك ان لويس لم يكن من طراز أولئك الملوك الذين كانوا يلهون بالحكم ، ويجعلون شئون الدولة اشبه شىء برحلة بهيجة . فقد كان ملوك هذا العصر المتنور يعملون اكثر مما يعمل اى فرد من رعاياهم ، يستيقظون قبل أن يستيقظ غيرهم ، وينامون بعد أن ينام سائر افراد الشعب . ذلك أنهم كانوا يشعرون بعظم مسئوليتهم المقدسة ، شعورهم بالحق الالهى فى الحكم الذى خول لهم البت فى الامور دون أن يستشيروا رعاياهم .

وكان الملك بطبيعة الحال لا يستطيع ان يباشر بنفسه كل شأن من الشئون ، فلم يكن يجد بدا من ان يحيط نفسه بعدد قليل من المعاونين واصحاب المشورة ، وحسبه قائد او قائدان وبعض الخبراء فى السياسة الخارجية ونفر من البارعين فى شئون المال والاقتصاد . ولكن هؤلاء الاعيان جميعا لم يكونوا يستطيعون ابرام اى شىء الا باسمه ، ذلك انهم لم يكونوا يقومون بذواتهم . وكان الملك فى نظر جمهور الشعبالرجل الذى تتمثل فى شخصه المقدس حكومة الدولة . وأصبح مجد الدولة هو مجد اسرة حاكمة واحدة ، ومن ثم فهى النقيض الصريح للمثل الديمقراطى فى الحكم . لقد كان الحكم فى فرنسا للبوربون يباشرونه بأنفسهم ولمصلحتهم .

ومساوىء هذا النظام واضحة بينة ، فالملك قد اصبح هو كل شيء ، وغدا كل من عداه لا يساوون شيئا . وقد اجبر الملك طبقة النبلاء القديمة النافعة على التخلي عن نصيبها السابق في حكم الاقاليم تدريجا . فاخذ يقوم بالعمل الذي كان موكولا الى الشريف الاقطاعي قبل ذلك بمائة عام موظف ملكي صغير تلطخت أصابعه بالمداد ، وجلس وراء النوافذ المخضرة لبناية حكومية في ارباض باريس البعيدة . ولما وجد هذا الشريف نفسه خاليا من كل عمل رحل الى باريس لينعم ما وسعه بالحياة في البلاد . وسرعان مابدت ضيامهم تقاسي من تلك الآفة الاقتصادية الخطيرة المعروفة بغياب صاحب الملك . وما انقضى على ذلك قرن واحد حتى كان الحكام الاقطاعيون النافعون المجدون قد اصبحوا تلك الطائفة من طفيليي فرساى اصحاب الشمائل المهذبة ، وان كان لايرجى من ورائها نفع ولا خير .

كان لويس في العاشرة من عمره عندما عقد صلح وستفاليا ، وفقد آل هبسبورج سيادتهم على اوربا نتيجة لحرب الثلاثين سنة . ولم يكن ثمة بد من ان يستغل رجل له اطماع لويس الرابع عشر هذه الفرصة المواتية ليكسب لأسرته الامجاد التي كانت من قبل لآل هبسبورج . وفي عام ١٦٦٠ تزوج لويس من ماريا تريزا ابنة ملك اسبانيا . وبعد ذلك بقليل توفي حموه فيليب الرابع ، وكان من معتوهي الاسبان من بيت هبسبورج ، فطالب لويس من فوره بالجزء الاسباني من الأراضي المنخفضة (بلجيكا) باعتباره جزءا من صداق زوجته .

وكان استيلاء لويس على هذه البلاد قمينا بان يهدد امن اوربا بالخطر ، ويهدد كذلك أمن الدول البروتستانتية . وكان من نتيجة ذلك ان تكون الحلف الثلاثي بين السويد وانكلترا وهولندا عام ١٦٦٤ تحت زعامة **جان ده ويت** وزير خارجية ولايات الأراضي المنخفضة السبع المتحدة . وكان هذا الحلف اول حلف دولي كبير . ولم يدم هذا الحلف طويلا ، فقد استطاع لويس بماله ووعوده المعسولة ان يستميل الملك شارل والولايات السويدية . وتخلى عن هولندة حلفاؤها وتركوها تلاقي مصيرها . وفي عام ١٦٧٢ اغار الفرنسيون على الأراضي المنخفضة وأوغلوا فيها ، وفتحت السدود للمرة الثانية ، وغربت شمس الملكية الفرنسية وسط وحول المستنقعات الهولندية ، ولم يحسم صلح نمويجن الذي عقد عام ١٦٧٨ اي سبب من اسباب النزاع ، ولكنه لم تعد



ميزان القوى

ان يكون تمهيدا لحرب اخرى .

وشبت حرب عدوانية اخرى مابين عامي ١٦٨٩ – ١٦٩٧ انتهت بصلح رسويك ، ولكن هذا الصلح ايضا لم يكسب لويس المكانة التي كان يتطلع اليها في اوربا . لقد قتل الغوغاء الهولنديون خصمه القديم **جان ده ويت** ، على ان خليفته **وليم الثالث** – الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق – قضى على جميع مجهودات لويس التي كانت ترمي الى جعل فرنسا سيدة اوربا .

ونشبت الحرب الكبرى الخاصة بالوراثة الاسبانية عام ١٧٠١ بعد وفاة شارل الثاني آخر ملوك اسبانيا من بيت هبسبورج ، وانتهت عام ١٧١٣ بصلح اوترخت... الا ان هذه الحرب لم تحسم ايضا اسباب النزاع ، وان كانت قد استنفدت خزائن لويس . صحيح ان الملك الفرنسي قد انتصر في البر ، ولكن اساطيل انكلترة وهولندة قضت على كل امل في ان يحرز الفرنسيون نصرا حاسما . ثم ان هذا النزاع الطويل قد بعث مبدأ جوهريا في ميدان السياسة الدولية ، وهو المبدأ الذي جعل من المستحيل ان تقوم دولة واحدة في المستقبل بحكم اوربا باسرها ، او العالم باسره ، اية فترة من الزمن .

وكان هذا المبدأ هو المبدأ الذي عرف باسم « توازن القوى » ، وهو لم يكن قانونا مكتوبا ، ولكنه ظل ثلاثة قرون مرعيا تماما ... شانه في ذلك شان القوانين الطبيعية . فقد قرر اولئك الذين ابدعوا هذه الفكرة أن اوربا في مرحلة تطورها القومي لا يمكن ان تعيش الا اذا كان هناك توازن مطلق بين المصالح الكثيرة المتضاربة لدول القارة الاوربية باسرها . ويجب الا يسمح لدولة بمفردها ، او اسرة حاكمة دون سواها ان تسيطر على غيرها . وكانت اسرة هبسبورج

خلال حرب الثلاثين سنة ضحية الأخذ بهذا المبدأ . على انهم لم يحسوا بانهم كانوا ضحية ، ذلك أن العواقب التى كانت معلقة فى الميزان خلال هذه الحرب كان يغشاها دخان النضال الدينى الى حد اننا لانستطيع ان نتبين الاتجاهات الكبرى لهذا النضال الكبير . على اننا بدانا منذ ذلك الوقت نرى كيف تسود الاعتبارات والتقديرات الاقتصادية السليمة كل المسائل الدولية ذات الشان ، ونتبين ظهور ذلك الطراز الجديدمن السياسيين الذين فطروا على النظر الى الامور نظرة المحاسب الدقيق والصيرفى الخبير . وكان **جان ده ويت** أول معبر ناجح عن هذه المدرسة الجديدة بين السياسيين . وكان وليم الثالث أول تلميذ نابه من تلاميذ هذه المدرسة . أما لويس الرابع عشر فكان مع كل ما نال من شهرة ومجد اول ضحيةلهذه السياسة عن علم ومعرفة .. وما اكثر ضحايا هذا المذهب من بعده !

قيام روسيا

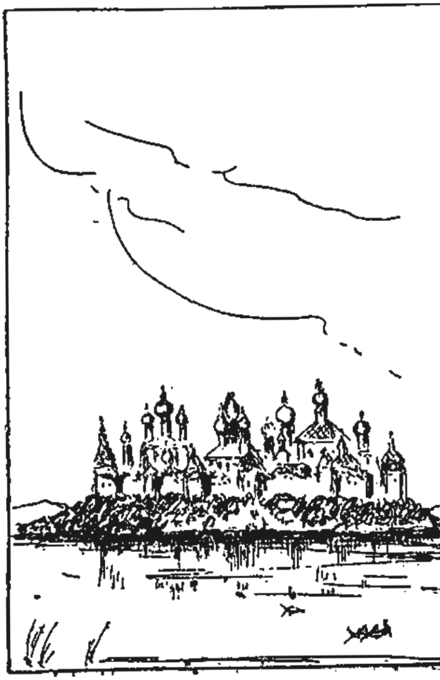
قصة الامبراطورية المسكوفية المحاطة بالأسرار التى انبعثت فجاة على مسرح السياسة الاوربية الكبير

اكتشف كولومبس ـ كما تعلمون ـ قارةامريكاعام ١٤٩٢ . وفى مستهل هذا العام خرج رجل من اهل التيرول يدعى **شنبس** على راس بعثة علمية اعدها رئيس اساقفة التيرول ، مزودا باطيب خطابات التوصية وبالأموال الوفيرة ، وحاول ان يبلغ مدينة موسكو التى تردد ذكرها فى الاساطير . والحق شنبس فى بلوغ غرضه ، ذلك انه عندما وصل الى تخوم دولة المسكوف المترامية الاطراف التى كان الناس يفترضون انها تقوم فى الطرف الأقصى لاوربا الشرقية ، رد على اعقابه فى حزم ، لأنه لم يكن يسمح لأحد من الاجانب بالدخول الى هذه البلاد . فشخص شنبس الى الآستانة لزيارة الترك فيها عساه يتزود بشىء ينبىء به مولاه كبير الأساقفة متىعاد من رحلته الكشفية .

وبعد ذلك باحدى وستين سنة حاول **رتشارد تشانسلور** الكشف عن الطريق الشمالى الشرقى الى جزائر الهند الشرقية ، ولكن رياحا شديدة أطاحت به الى البحر الأبيض (White Sea) فبلغ مصب نهر دوينا ، وشاهد قرية خلمجورى المسكوفية ، وهىعلى مسيرة ساعات قلائل من البقعة التى انشئت فيهامدينة اركانجل عام ١٥٨٤ . وفى هذه المرة طلب المسكوف من هؤلاء الزوار الأجانب الذهاب الى موسكو ليحظوا بالمثول بين أيدى الدوق الأكبر ، فذهبواالىموسكو،ثم عادوا الى انكلترا ومعهم أول معاهدة تجارية عقدت بين الروسيا والعالم الغربى . وبادرت دول أخرى بانتهاج هذا السبيل ، وبذلك تيسرت معرفة بعض الاخبار عن هذه البلاد العجيبة .

والروسيا من الناحية الجغرافية سهل واسع الاطراف ، كما أن جبال الاورال المنخفضة لا تقوم حاجزا يرد عادية المغيرين ، أما انهارها فعريضة ولكنها ضحلة فى كثير من الاحيان ، ومن ثم كانت خير البلاد صلاحية للبدو .

ففى الوقت الذى قامت فيه الامبراطورية الرومانية وعظم سلطانها ثم اختفت من عالم الوجود،



موسكو

كانت القبائل الصقلبية التى تركت موطنها الاصلى فى اواسط آسيا منذ عهد بعيد ، قد اخذت تهيم على وجهها فى الغابات والسهول بين نهرى الدنيستر والدنيبر . وقد التقى اليونانيون فى بعض الأحيان بهذه القبائل الصقلبية ، كما جاء ذكرهم على لسان رحالة القرنين الثالث والرابع الميلاديين . على اننا لانعرف فيما عدا ذلك الا اخبارا قليلة لاتتجاوز ماعرفناه عن هنود النيفادا عام ١٨٠٠ .

وقد تزعزع أمن هذه الشعوب البدائية ، اذ كان يخترق بلادها طريق تجارى ميسر كل التيسير ، وهو الطريق الرئيسى الذى كان يصل ما بين شمالى اوربا والقسطنطينية . وكان هذا الطريق يساير شاطىء البحر البلطى حتى نيفا ثم يعبر بحيرة لادوجا ويتجه جنوبا على طول نهر فلخوف ، ثم يعبر بحيرة المن ونهر لوفات الصغير ، ثم يسير مرحلة قصيرة حتى نهر الدنيبر ، ثم يهبط مع الدنيبر حتى البحر الاسود . ولقد عرف اهل الشمال هذا الطريق منذ عهد سحيق ، واخذوا منذ القرن التاسع يستوطنون روسيا الشمالية ، كما اخذ غيرهم من أهل الشمال يضعون اسس دويلات جديدة مستقلة فى المانيا وفرنسا . وفى عام ٨٦٢ عبر ثلاثة اخوة من اهل الشمال البحر البلطى وكونوا ثلاث اسر حاكمة صغيرة . ولم يعمر من هؤلاء الاخوة طويلا الا روريك ، فاستولى على ممتلكات اخويه . وبعد مرور عشرين سنة من وصول روريك اول اهل الشمال ، كانت قد قامت دولة صقلبية عاصمتها كييف .

والمسافة من كييف الى البحر الاسود قصيرة ، ومن ثم سرعان ما علم اهل القسطنطينية بوجود هذه الدولة الصقلبية المنظمة ، وكان ذلك معناه ظهور مجال جديد امام المبشرين المسيحيين المتحمسين . ولهذا نجد الرهبان البوزنطيين يسيرون شمالا من الدنيبر ، وسرعان ما بلغوا قلب روسيا . وهناك وجدوا الناس يعبدون آلهة غريبة ذهبوا الى انها تسكن الغابات والانهار وكهوف الجبال . فأخذ المبشرون يقصون عليهم قصة عيسى . ولم يكن ينافسهم فى هذا الميدان المبشرون الرومانيون ، فقد كان هؤلاء الرجال الطيبون منهمكين فى تعليم التيوتون الوثنيين ، فلم يهتموابهؤلاء الصقالبة البعيدى الدار ، وبذلك تلقت روسيا دينها وابجديتها وآراءها الاولى فى الفن والعمارة من الرهبان البوزنطيين . وقد كانت الامبراطورية البوزنطية ، وهى أثر من آثار الامبراطورية الرومانية الشرقية ، قد غلبت عليها الصفة الشرقية، وفقدت كثيرا من سماتها الاوربية ، ومن ثم كانت البلية التى اصابت الروس .

ولم تكن عاقبة هذه الدول الجديدة التى قامت فى سهول روسيا الواسعة حسنة من الناحية السياسية ، ذلك ان اهل الشمال جروا على تقسيم كل ارث بين الابناء بالتساوى . فما ان تقوم دولة صغيرة حتى تقسم بين ثمانية أو تسعة من الوارثين ، وهؤلاء يورثون اراضيهم لعدد مطرد الزيادة من الأحفاد ، ومن ثم لم يكن مناص من نشوب النضال بين هذه الدويلات المتنافسة . وكانت الفوضى هى سنة تلك الأيام ، فما ان كانت تلوح النذر فى الأفق الشرقى ، منبئة اهل الشمال بقرب هبوب ريح غزوة ، حتى كانت تلك الدول الصغيرة تجد نفسها ضعيفة مقسمة لاحيلة لها فى دفع هذا العدو المخيف . وقد حدثت أول غزوة تترية كبرى عام ١٢٢٤ ، اذ ظهرت فى الغرب لأول مرة جحافل جنكيزخان فاتح الصين وبخارى وطشقند والتركستان . وحلت الهزيمة بجيوش الصقالبة بالقرب من نهر كلكه ، واصبحت روسيا تحت رحمة المغول . واختفى التتر فجاة ، على انهم عادوا ادراجهم بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ، اى عام ١٢٣٧ . وقد تمكنوا فى اقل من خمس سنوات من غزو كل ناحية من نواحى سهول روسيا المترامية الأطراف . وظل الحال على هذا المنوال الى ان حل عام ١٣٨٠ ، فأنزل بهم ديمترى دنسكوى دوق موسكو الأعظم ، الهزيمة فى سهول كوليكوفو .

ومهما يكن من شىء فان الروس لم يستطيعوا رفع نير التتر عن كاهلهم الا بعد سعى دام قرنين من الزمان ، ذلك ان هذا النير كان فادحا شديدا الوطاة تأباه النفوس ، وكان من شأنه أن نزل بالفلاحين الصقالبة الى مرتبة العبيد البائسين ، فلم يكن ثمة امل لأى روسى فى البقاء الا اذا رضى بأن يجثو خاضعا امام رجل مغولى قمىء قذر قد اقام فى خيمة ضربها فى مكان من قلب فيافى روسيا ، وقبل أن يبصق هذا الرجل فى وجهه . وقد جرد ذلك الشعب الروسى من كل شعور بالكرامة والاستقلال . واصبح يغلب على الناس الجوع والبؤس وسوء المعاملة وتحمل الاساءة ، وانتهى الأمر بان اصبح الروسى ، سواء اكان فلاحا ام نبيلا ، يباشر عمله كالكلب الضال الذى توالى عليه الضرب حتى انكسر قلبه وعاد لايجسر على ان يبصبص بذنبه الا اذا اذن له بذلك .

ولم يكن هناك مفر من هذه الحال لان فرسان خان التتر كانوا خفافا سراعا لايعرفون الرحمة . ولم تكن



هنا يعيش الفنلنديون
المتبربرون
هنا يعيش أهل الشمال
البلطيق
بحيرة
لادوجا
نيفا
نوفجورود
نهر الفولجا
بحيرة
إلمن
موسكو
نهر دوينا
طريق التجارة
كييف
نهر الدون
بحر
آزوف
وارسو
هنا يعيش
البولنديون
بوزنطة
أو
القسطنطينية
البحر الأسود
الروسيا
آسيا

اصل روسيا

البرارى المترامية الأطراف تتيح لاحد من الروس اجتيازها حيث يأمن على نفسه فى بلاد اخرى تجاور بلاده ، فكان لامناص له من التزام السكينة ، واحتمال مايرميه به سيده الأصفر، ويعرض نفسه لخطر الموت .

وكان من الممكن ان تتدخل أوربا فى هذا الشأن ، ولكنها كانت مشغولة بأمر نفسها تخوض غمار الحروب التى نشبت بين البابا والامبراطور ، او باخماد مايبدو من نزعات المارقين ، ولذلك تركت اوربا الصقالبة يلاقون مصيرهم ، وحملتهم على أن يلتمسوا بانفسهم سبيل الخلاص .

وقيض لروسيا الخلاص آخر الأمر على يد امارة صغيرة من الامارات التى اسسها حكام أهل الشمال المتقدمون ، وكانت هذه الامارة فى قلب السهل الروسى وعاصمتها موسكو ، وهى على تل منحدر على ضفاف نهر موسكوفا . وكانت هذه الامارة الصغيرة تسترضى التتر اذا رات ان الظروف تقتضى ارضاءهم ، وتخاشنهم اذا لم تر فى ذلك مايهدد سلامتها .

واصبحت بذلك زعيمة الحياة الروسية الوطنية الجديدة خلال منتصف القرن الرابع عشر . ويجب الا يغيب عن بالنا أن التتر كانوا مفتقرين كل الافتقار الى القدرة السياسية المنشئة ، ذلك انهم لم يكونوا يستطيعون التدمير فحسب ، بل كان همهم الاول غزو اراض جديدة تدر عليهم المال . وكان حصولهم على المال عن طريق ضرائب يفرضونها يقتضيهم الابقاء على بعض آثار النظم السياسية القديمة . ومن ثم ابقى الخان الاعظم على كثير من المدن الصغيرة ليقوم اهلها بمهمة جمع الضرائب وسرقة جيرانهم لملء خزائن التتر .

ولقد ارتوت امارة موسكو وشبعت على حساب البقاع المحيطة بها ، وبلغت آخر الامر من البأس ماامكنها من أن ترفع راية العصيان فى وجه اسيادها التتر . ونجحت فى ذلك ، واصبحت بفضل شهرتها بوصفها زعيمة الحركة الاستقلالية الروسية المركز الطبيعى لجميع اولئك الذين كانوا لايزالون يؤمنون بمستقبل سعيد ينتظر الجنس الصقلبى .

واستولى الترك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وبعد ذلك بعشر سنوات عمدت موسكو فى عهد ايفان الثالث الى ابلاغ العالم الغربى أن الدولة الصقلبية تطالب بميراثها الدنيوى والروحى الذى خلفته الامبراطورية الرومانية الزائلة ، وبما بقى من تقاليد الامبراطورية الرومانية فى القسطنطينية . وبعد ذلك بجيل من الزمان ، بلغ دوقات موسكو العظام فى عهد ايفان الهائل من القوة والبأس ما جعلهم يتخذون لانفسهم لقب القياصرة ، ويطالبون دول أوربا الغربية بالاعتراف بهم .

وتوفى فيودور الأول عام ١٥٩٨ ، فانتهى بذلك البيت المسكوفى القديم الذى كان افراده من سلالة روريك الذى كان من اهل الشمال الاصليين . وتولى العرش خلال السنوات السبع التالية تترى مولد يدعى **بوريس جودونوف** ، وتلقب بقيصر . وفى هذه الفترة تقرر مصير جماهير الشعب الروسى الفقيرة .

كانت هذه الامبراطورية غنية باراضيها ، فقيرة كل الفقر بأموالها ، فلم تكن لها تجارة ، ولم يكن فيها مصانع . وكانت مدنها القليلة قرى قذرة . وكان قوام هذه الامبراطورية حكومة مركزية قوية وعدد كبير من الفلاحين الأميين . وكان يهيمن على هذه الحكومة خليط من الصقالبة واهل الشمال والبوزنطيين والتتر ، ومن ثم لم تكن تعرف الا مصلحة الدولة فحسب . ورات أن الدفاع عن هذه الدولة يتطلب جيشا ، كما أن جمع الضرائب التى كانت لازمة لدفع اعطيات الجند ، كان يقتضى وجود عدد من الموظفين المدنيين ، ولا يستطاع دفع أجور هذا العدد الكبير من الموظفين الا اذا توافرت الأرض ، وكان فى البرارى المترامية الاطراف التى فى الشرق والغرب مورد كاف يسد هذه الحاجة ، ولكن الأرض لاغناء فيها الا اذا تيسر لها عدد قليل من العمال يفلحون حقولها ويرعون ماشيتها ، ومن ثم جرد الفلاحون الرحل القدماء من امتيازاتهم الواحد بعد الآخر ، ثم انتهى الامر بأن جعلتهم الدولة خلال السنة الاولى من القرن السادس عشر جزءا من الارض التى يعيشون عليها ، فاصبحوا رقيق ارض ، وظل هذا حالهم حتى عام ١٨٦١ ، وفيه اظلم مصيرهم وعظم خطبهم حتى اشرفوا على الموت .

وفى القرن السابع عشر غدت هذه الدولة الجديدة بفضل اتساع اراضيها المطرد ، وسرعة امتدادها وايغالها فى سيبيريا ، قوة حملت سائر أوربا على ان يحسب حسابها . وفى عام ١٦١٣ ، اى بعد وفاة بوريس جودونوف ، انتخب النبلاء الروس واحدا منهم قيصرا ، وكان هذا القيصر هو ميشيل ابن فيودور من اسرة رومانوف بموسكو ، وكان يعيش فى بيت صغير فيما وراء الكرملين مباشرة .

وفى عام ١٦٧٢ ولد حفيده بطرس ، وهو ابن شخص آخر يدعى فيودور . ولما بلغ هذا الصبى العاشرة من عمره استولت صوفيا اخته غير الشقيقة

على العرش . وسمح لهذا الصبى أن يقضى وقته فى ضواحى موسكو حيث يعيش الاجانب . وكانت تحيط به حاشية من الخمارين الاسكتلنديين والتجار الهولنديين والصيدليين السويسريين والحلاقين الايطاليين ومعلمى رقص من الفرنسيين ومعلمين من الالمان ، ومن ثم تلقى هذا الامير الشاب فكرة أولى ، وان تكن عجيبة ، عن أوربا القاصية المحجبة بالاسرار التى كانت الامور فيها تسير سيرا يختلف عما ألفه هذا الامير .

ولما بلغ بطرس السابعة عشرة من عمره أزاح أخته صوفيا عن العرش فجأة ، واصبح هو حاكم روسيا .

ولم يقنع بان يكون قيصرا على شعب نصفه همجى ونصفه الآخر أسيوى ، وصح عزمه على ان يكون قيصرا على أمة متحضرة . ولم يكن تحويل روسيا من دولة بوزنطية تترية الى امبراطورية أوربية ، بالامر اليسير الذى يتم مابين يوم وليلة . بل كان ذلك يتطلب يدا قوية ورأسا مفكرا . وكانت هاتان الميزتان تتوفران فى بطرس . ففى عام ١٦٩٨ اخذ يطعم روسيا القديمة بدم أوربا الحديثة ، ولم يقض ذلك على المريض ، ولكنه لم ينج قط من هذه الصدمة . وهذا يتجلى باجلى بيان فى الحوادث التى وقعت فى السنوات الخمس الاخيرة .

النزاع بين روسيا والسويد

خاضت روسيا والسويد حروبا كثيرة فى سبيل تقرير ايتهما تكون لها السيادة على شمال شرقى اوربا

خرج القيصر بطرس عام ١٦٩٨ فى اول رحلة له الى أوربا الغربية ، فسافر عن طريق برلين ، وذهب الى هولندا ثم الى انكلترا . وقد اشرف بطرس على الغرق وهو بعد طفل يسير قاربا مصنوعا فى منزله فى بركة للبط ببيت ابيه الريفى . وظل ولعه بحوض الماء ملازما له حتى آخر حياته . وقد تجلى هذا الولع بطريقة عملية عندما اراد ان يجعل لاملاكه التى كانت



بطرس الاكبر فى حوض السفن الهولندية

تكتنفها اليابسة من كل ناحية منفذا الى البحر الفسيح .

وعمد انصار النظام الروسى القديم بموسكو الى التخلص من جميع الاصلاحات التى قام بها ، وذلك اثناء غيبة هذا الحاكم الشاب الفظ عن وطنه . وقد شبت الفتنة بغتة بين حرسه المعروفين بكتيبة سترلتسى ، فاضطر بطرس الى العودة الى وطنه باقصى سرعة ، واقام نفسه على رأس جلاديهم ، فشنق رجال هذه الكتيبة ، وقطع أوصالهم ، وقتلهم عن آخرهم . اما الاخت صوفيا التى كانت على رأس هذه الفتنة ، فقد حبسها فى دير من الأديرة ، وبدا حكم بطرس فى عنفوانه . وتكرر هذا المشهد عام ١٧١٦ عندما خرج بطرس فى رحلته الثانية الى الغرب ، وانصاع المنتقضون فى هذه المرة لزعامة ابن بطرس المعتوه الكسيس . وهنا بادر القيصر الى العودة سريعا ، وضرب الكسيس فى غيابة سجنه حتى مات . وسار انصار النظم البوزنطية القديمة آلافا من الاميال فى اراض موحشة فى طريقهم الى مقرهم الاخير بمناجم الرصاص فى سيبيريا . ولم يسخط الناس بعد ذلك سخطا يؤدى الى قيام فتنة ثالثة ، وبذلك استطاع بطرس ان يقوم باصلاحاته فى سلام حتى وافته منيته .

وليس من اليسير ان نذكر للقارىء بيانا باصلاحات بطرس حسب ترتيبها الزمنى ، فقد اخذ بطرس

يعمل بسرعة هوجاء ، ولم يكن يسير فى ذلك على نظام ، فكان يصدر مراسيمه فى عجلة يعسر تتبعها . والظاهر أن بطرس كان يشعر ان كل ماحدث قبله كان بالغ الخطأ ، فرأى انه ينبغى أن يغير احوال روسيا فى اقصر وقت ممكن . ولما توفى بطرس خلف وراءه جيشا حسن التدريب عدته ٢٠٠ الف مقاتل واسطولا من خمسين سفينة . وقد قضى على النظام الحكومى القديم بين عشية وضحاها ، ففض مجمع النبلاء المعروف بالدوما ، واستعاض عنه بهيئة تشد ازره تتألف من مجلس من موظفى الحكومة عرف بمجلس الشيوخ . وقسمت روسيا الى ثمانى حكومات أو ولايات ، وشقت الطرق ، وشيدت المدن. وانشأ القيصر الصناعات كلما راق له ذلك ، دون نظر الى توافر المواد الاولية اللازمة لهذه الصناعات ، وشقت القنوات،وحفرت المناجم فى الجبال الشرقية . واقام بطرس فى هذه البلاد التى كانت تسيطر عليها الامية المدارس ومعاهد التعليم العالى والجامعات والمستشفيات والمدارس الفنية ، وشجع المهندسين الهولنديين ورجال الصناعة وارباب الحرف منجميع الدول على الشخوص الى روسيا ، وانشأ المطابع ، واشترط أن يقرأ رقباء الامبراطورية جميع الكتب قبل طبعها . وسن قانونا جديدا يحدد تحديدادقيقا واجبات كل طبقة من طبقات المجتمع ، واصدر مرسوما بابطال ازياء اللباس الروسية القديمة . وجمعت القوانين المدنية والجنائية كافة فى سلسلة من المجلدات المطبوعة . وكان رجال الشرطةالمزودون بالمقصات يراقبون جميع الطرق فى الريف ، فيباغتون الفلاحين الروس ، ويشذبون شعورهم حتى يصبح منظرهم مقبولا ، جريا على سنة الاوربيين الحليقين .

أما فى المسائل الدينية فلم يسمح القيصر بانتكون السلطة فيها موزعة مقسمة ، ورأى انه ينبغى الا تتاح الفرصة لقيام منافسة بين البابا والامبراطور كما حدث فى أوربا . وفى عام ١٧٢١ جعل بطرس نفسه على راس الكنيسة الروسية ، والغى بطريركية موسكو . وتجلى المجمع المقدس فكان هو المصدر الاعلى للسلطة الدينية فى جميع مسائل العقيدة المقررة .

على ان بطرس رأى ان هذه الاصلاحات الكثيرة لايمكن أن تثمر مادامت العناصر الروسية الرجعية تجد لنفسها مأوى فى مدينة موسكو تتألب فيه عليه ، فصحت عزيمته على نقل مقر حكومته الى عاصمة جديدة . وقد شيد القيصر هذه العاصمة فى بطائح البحر البلطى الوبيئة . واخذ يمهد الارض لانشائها عام ١٧٠٣ ، واشتغل مايقرب من أربعين الف فلاح عدة سنوات فى وضع أسس هذه العاصمة القيصرية .



بطرس الاكبر يشيد حاضرته الجديدة

وهاجم اهل السويد بطرس ، وحاولوا تدمير مدينته ، واتى المرض والبؤس على عشرات الآلاف من المزارعين ، ولكن العمل استمر صيفا وشتاء ، وسرعان ما اخذت هذه المدينة الجديدة فى النمو . وفى عام ١٧١٢ اعلن رسميا انها هى مقر القيصر ، وبلغ عدد سكانها بعد ذلك بنيف وعشر سنوات ٧٥ الف نسمة . وكان نهر نيفا يفيض على هذه المدينة مرتين فى العام ، ولكن القيصر كان جبارا لاتفل له عزيمة ، فانشأ السدود والقنوات ، فلم تعد الفيضانات تلحق بها الضرر . ولما توفى بطرس عام ١٧٢٥ كان صاحب اكبر مدينة فى شمالى أوربا .

وكان من الطبيعى ان يثير هذا التوسع الفجائى ، الذى تم على يد هذا المنافس البالغ الخطر ، جيرانه جميعا . اما بطرس فكان يرقب باهتمام المغامرات الكبيرة التى اقدمت عليها مملكة السويد منافسته على البحر البلطى .

وفى عام ١٦٥٤ تركت كرستينا الابنة الوحيدة لجوستاف ادولف ، بطل حروب الثلاثين سنة ، العرش وذهبت الى روما لتعيش الى آخر حياتها كاثوليكية مخلصة . وخلف هذه الملكة التى كانت آخر ملكة من بيت ڤاسا ، ابن اخى جوستاف ادولف ، وكان على المذهب البروتستانتى . وفىعهد شارل العاشر وشارل الحادى عشر ، رقى هذا البيت الجديد بالسويد الى أوج عزها ، على أن شارل الحادى عشر توفى فجأة عام ١٦٩٧ ، فخلفه على العرش شارل الثانى عشر ، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره .

وكانت تلك اللحظة هى الفترة التى يترقبها كثير

من دول الشمال . فقد نمت السويد على حساب جيرانها خلال الحروب الدينية العظيمة التى شبت فى القرن السابع عشر . وها هوذا الوقت قد حان فى نظر أولئك الجيران لمحاسبة السويد . وشبت الحرب على الفور بين الروسيا وبولندا والدانيمارك وسكسونيا ، وبين السويد ، وانزل شارل هزيمة منكرة بجيوش بطرس التى كانت طرية العود لم تتمرس بالقتال بعد ، فى وقعة نارفا الشهيرة فى نوفمبر عام ١٧٠٠ .

وبعد ذلك تفرغ شارل ، وهو من المع رجال الحرب عبقرية فى ذلك القرن — لمحاربة اعدائه الآخرين ؛ فظل تسع سنوات يهدم ويحرق كل مايقع فى يده من قرى ومدن بولندا وسكسونيا والدانيمارك واقاليم البحر البلطى . وكان بطرس فى هذه الاثناء يدرب جنوده فى روسيا البعيدة ، ومن ثم هزم المسكوف فى عام ١٧٠٩ جيوش السويد التى انهكها التعب فى وقعة بلتاوه .

وظل شارل شخصية قوية التأثير ، فكان أشبه شيء ببطل عجيب من أبطال القصص والاساطير ، ولكنه حاول عبثا أن يثأر لنفسه وجلب الدمار على بلاده . وفى ١٧١٨ اتفق ان قتل شارل او اغتيل ، ولا نعرف ايهما الصحيح ، وفقدت السويد فى صلح نيشتاد عام ١٧٢١ كل ماكان لها من أملاك على البحر البلطى ، ماعدا فنلندا . واصبحت الدولة الروسية الجديدة التى انشاها بطرس زعيمة شمالى أوربا .

ولكن كان ثمة منافس جديد لها فى طريقه الى الظهور ، ذلك ان معالم الدولة البروسية كانت قد اخذت تبدو للعيان .

قيام بروسيا

انبعاث عجيب لدولة صغيرة تعرف ببروسيا فى جزء موحش من شمالى المانيا

ان تاريخ بروسيا هو تاريخ اقليم من الأقاليم الواقعة على الحدود . ففى القرن التاسع نقل شارلمان المركز القديم للحضارة من البحر المتوسط الى الأقاليم الموحشة فى شمال غربى أوربا ، واخذ جنوده من الفرنجة يبسطون حدود أوربا شيئا فشيئا ناحية الشرق ، فانتزعوا بلادا كثيرة من الصقالبة الوثنيين واللتوانيين الذين كانوا يعيشون فى السهول مابين البحر البلطى وجبال الكربات . وكان الفرنجة يحكمون هذه الأقاليم المتطرفة على النحو الذى جرت عليه الولايات المتحدة فى حكم ولاياتها قبل ان تصل الى مرتبة الدولة .

ان ولاية برندنبرج الواقعة على الحدود ، قداسسها شارلمان بادىء ذى بدىء ، ليحمى بها ممتلكاته الشرقية من غزوات القبائل السكسونية المتبربرة . واخضعت قبيلة الـ « وند »الصقلبية التى كانت تسكن ذلك الاقليم فى القرن العاشر ، فاصبح سوق هذه القبيلة المعروف باسم برنابور قصبة ولاية برندنبرج الجديدة ، ومنه اشتقت هذه الولاية اسمها .

وفى خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر ، تعاقب على حكم هذه الولاية الواقعة على الحدود عدد من أسر نبيلة ، فكان أفراد هذه الاسر بمثابة ولاة عليها من قبل الامبراطور . واخيرا ظهر فى القرن الخامس عشر بيت هوهنزلرن ، وبداوا — بصفتهم ناخبين لاقليم برندنبرج — فى احالة هذا الاقليم الرملى الموحش الواقع على الحدود ، الى امبراطورية من أقوى الامبراطوريات فى العالم الحديث .

وقد جاءت أسرة هوهنزلرن هذه بادىء الأمر — وهى الأسرة التى ابعدتها أوربا وأمريكا عن مسرح التاريخ — من جنوبى المانيا ، وهى من أصل وضيع جدا .

وفى القرن الثانى عشر تزوج فريدريك ، احد افراد هذه الاسرة ، زيجة موفقة ، واختير حارسا لحصن نورمبرج . واستغل احفاده كل فرصة مواتية لتقوية سلطانهم . وبعد قرون عدة قضوها فى الترقب والتربص رفعوا الى منصب الناخب ، وهو اللقب الذى كان يطلق على الأمراء من الحكام الذين كان من المتوقع أن يقوموا بانتخاب اباطرة الامبراطورية الألمانية القديمة . وانضمت هذه الأسرة أثناء الاصلاح الدينى الى جانب البروتستانت ، واصبحوا فى مستهل القرن السابع عشر من أقوى الأمراء فى شمالى المانيا .

وفى خلال حروب الثلاثين سنة اقبل كل من البروتستانت والكاثوليك على نهب اقليم برندنبرج وبروسيا ، وكان كلا الطرفين متحمسا فى ذلك على حد سواء .

ولكن سرعان ما اصلح هذا التلف الذى اصابهما فى عهد الناخب الاكبر فردريك وليم . وجند فردريك كل الموارد الاقتصادية والكفايات العقلية فى البلاد ، فاستطاع أن ينشىء دولة لم يترك فيها مرفقا الا

استغله استغلالا لا مجال فيه لضياع أو تبديد .

وبروسيا الحديثة دولة تلاشى الفرد فيها هو ورغباته وأطماحه فى مصالح المجتمع عامة . ويرجع الفضل فى قيام هذه الدولة الى والد فردريك الأكبر .

وكان **فردريك وليم الأول** جنديا بروسيا دءوبا شحيحا ذا ولع بسماع القصص تلقى فى الحانات ، وتدخين التبغ الهولندى القوى ، يكره أشد الكره جميع ألوان الزينة ، وخاصة ما كان منها يرجع الى أصل فرنسى . وقد تملكته فكرة واحدة : الا وهى الواجب . كان يأخذ نفسه بالشدة ، ولا يسمح بأن يتطرق أى ضعف الى رعاياه ، سواء أكانوا قوادا أم جنودا . وأقل مايقال فى العلاقة التى كانت بينه وبين ولده فردريك انها لم تكن قط صافية ، فقد كانت طباع الوالد الخشنة تؤذى شعور ابنه الرقيق ، ذلك انه كان يستنكر ميل ولده لسجايا الفرنسيين وأدبهم وفلسفتهم وموسيقاهم ، ويرى أن فى هذا الميل ضعفا خليقا بالنساء . ومن ثم احتدمت الثورة احتداما بين هاتين الطبيعتين العجيبتين . وحاول فردريك أن يفر الى انكلترا فقبض عليه وحوكم عسكريا ، وحمل على مشاهدة مقتل صديقه الصدوق الذى سعى الى مساعدته .

وكان من العقوبات التى انزلها به ما عمد اليه من ارسال هذا الأمير الشاب الى قلعة صغيرة فى الريف ، ليتعلم تفاصيل المهمة التى ستوكل اليه فى المستقبل: الا وهى صناعة الملك ، فكان ذلك شرا ينطوى على الخير ، لأن فردريك كان عندما ولى العرش عام ١٧٤٠ قد عرف سياسة ملكه ، حقيرها وجليلها ، من شهادة ميلاد ابن الفقير المعدم الى أدق تفصيلات الميزانية السنوية المعقدة . أما فردريك المؤلف ، وخاصة كتابه المعروف باسم « الرد على مكيافللى » فقد عبر عن احتقاره للمذهب السياسى الذى قال به هذا المؤرخ الفلورنسى القديم الذى نصح تلاميذه من الامراء أن يعمدوا الى الكذب والخديعة اذا رأوا أن مصلحة بلادهم تقتضى ذلك . وخير الحكام فى مؤلف فردريك هو أول خادم لشعبه ، هو ذلكم المستبد المستنير الذى يسير على نهج لويس الرابع عشر . أما فردريك من حيث العمل فقد كان يخصص لشعبه كل ساعات يومه ، ومع ذلك فقد كان لايطيق أن يكون الى جانبه مشير يهتدى برأيه . أما وزراؤه فكانوا بمثابة كتاب كبار . وكان يعد بروسيا ملكا خاصا له يسوسه على هواه ، فلم يسمح لأحد أن يتدخل فى شئون الدولة .

وتوفى شارل السادس امبراطور النمسا عام ١٧٤٠ ، وكان قد سعى الى التمكين لابنته الوحيدة **ماريا تيريزا** بأخذ أغلظ المواثيق والعهود ، وتسجيلها على قطعة كبيرة من الرق . على أنه ما أن غيب هذا الامبراطور المسن فى قبور أسرة هابسبورج ، حتى سارت جيوش فردريك الى الحدود النمساوية لتحتل ذلك الجزء من سيليسيا ، هو وكل مايقع فى أواسط أوربا تقريبا ، استنادا الى حق قديم مشكوك فيه كثيرا . وخاض فردريك عدة حروب غزا فيها جميع سيليسيا ، واستطاع أن يصمد لكرات النمساويين جميعا ، ويحتفظ بجميع البلاد التى فتحها حديثا على الرغم من أنه كان فى كثير من الأحيان مشرفا على الهزيمة .

وانتبهت أوربا فى حينه الى ظهور تلك الدولة الجديدة المظيمة البأس .

وكانت ألمانيا فى القرن الثامن عشر قد انهكتها الحروب الدينية الكبرى ، فلم يعد يعمل أحد لها حسابا كبيرا . ولكن فردريك بذل بغتة مجهودا جبارا يماثل مابذله بطرس الأكبر فى روسيا ، فبدل احتقار الناس لألمانيا خوفا وخشية . لقد نظم شئون بروسيا الداخلية تنظيما بارعا ، فقلت أسباب الشكوى بين رعاياه عنها فى أية بلاد أخرى . وزاد دخل الدولة السنوى على خرجها ، وأبطل أعمال التعذيب ، وأصلح النظام القضائى ، وشق طرقا جديدة ، وفتح المدارس والجامعات الجليلة ، وكفل للبلاد ادارة نزيهة أمينة ، فأحس الناس بأنهم سيلاقون جزاء أية خدمة يطلب منهم أداؤها .

لقد ظلت ألمانيا عدة قرون مسرحا لحروب الفرنسيين والنمساويين والسويديين والدانيماركيين والهولنديين . وهاهى ذى قد استردت جأشها بفضل المثل الذى ضربته لها بروسيا ، وبدأت تستعيد ثقتها بنفسها ، وكان هذا من فعل ذلك الرجل العجوز الضئيل ذى الأنف المعقوف والملابس العتيقة المعفرة بالسعوط ، ذلك الرجل الذى كان يتحدث عن جيرانه حديثا مضحكا للغاية وان كان مؤلما غاية الايلام ، والذى كان يلعب تلك اللعبة المشينة المأثورة عن الدبلوماسية فى القرن الثامن عشر ، دون أن يراعى الحق والصدق أية مراعاة . . مادام فى مكنته أن يكسب شيئا بأكاذيبه .

وكان يفعل هذا على الرغم من أنه صاحب الكتاب الذى سماه « الرد على مكيافللى » .

وفى عام ١٧٨٦ حان حينه ، فقد ولى أصدقاؤه جميعا . أما نعمة الولد فقد حرم منها فتوفى وحيدا يسهر على خدمته خادم واحد وعدد من كلابه المخلصة التى أحبها أكثر من حبه لبنى الانسان ، لأنها كانت فى قوله لاتعرف الجحود بل تبقى وفية لأصدقائها .

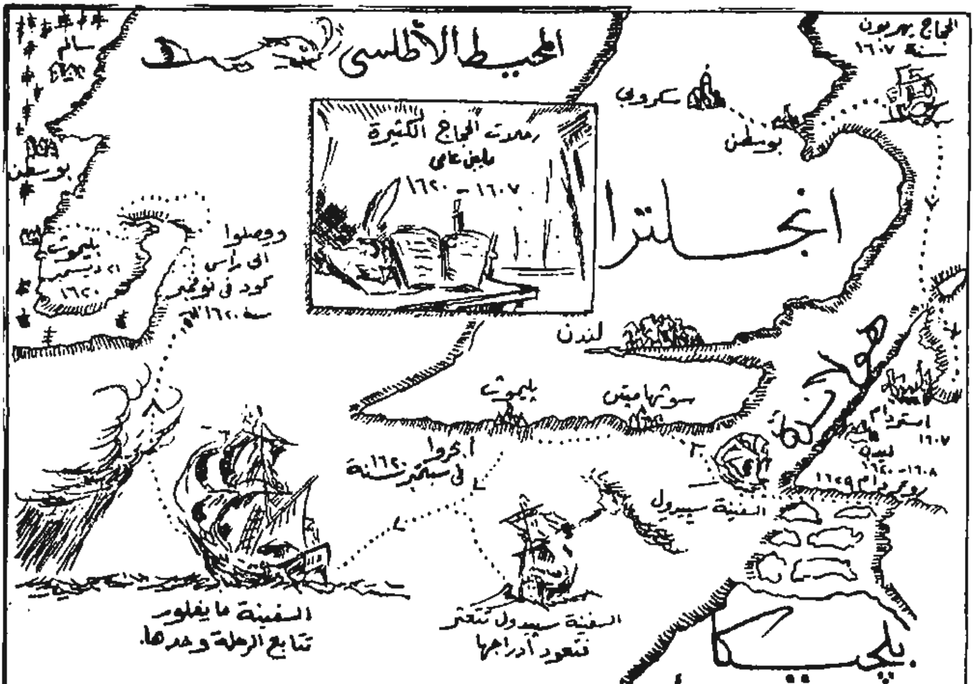
الطريقة التجارية

كيف حاولت الحكومات القومية الناشئة ، أو حكومات الأسر المالكة الاوروبية ، أن تثرى . وماذا كانت تعنى عبارة ((الطريقة التجارية)) .

لقد رأيناكيف نشأت دول العالم الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وبدأت تبرز معالمها . وتكاد كل دولة من هذه الدول تختلف فى منشئها عن الدولة الاخرى . فمنها ما كان ثمـــرة جهد مطرد بذله ملك واحد ، ومنها ماكان وليد الصدفة ، ومنها ماكان وليد حدود جغرافية طبيعية مواتية . عـلى ان هذه الدول ما ان ظهرت حتى اخذت تعمل جميعا على تقوية ادارتها فى الداخل ، وبسـط نفوذها الى اقصى حد ممكن فى الشئون الخارجية . وقد اقتضاها كل ذلك بطبيعة الحال اموالا طائلة .

لم تكن الدولة فى العصور الوسـطى تعتمد عـلى ميزانية كبيرة لافتقارها الى السلطة المركزية ، فكان الملك يحصل على دخله من أملاكه ، أمـا الخدمات المدنية فكانت تدر مايسد مصروفاتها . أمـا الدولة الحديثة ذات السلطة المركزية فاكثر من ذلك تعقيدا . فقد اختفى الفرسان القدماء ، وحل محلهم موظفون ماجورون . ويتطلب الجيش والأسـطول والادارة الداخلية الملايين من الجنيهات ، لذلك أصبحت المسالة تنحصر فى كيفية تدبير هذه الأموال .

لقد كان الذهب والفضة سلعة نادرة فى العصـور الوسطى ، ذلك أن الرجل من أوساط الناس لم ير فى حياته قط ــ كما سبق ان قلت ــ قطعة ذهبية واحدة ، ولم يعرف العملة الفضية الا سكان المدن الكبيرة . غير ان الكشف عن القارة الأمريكية ، واستغلال مناجم



رحلات الحجاج

بيرو قد غير من ذلك كله ، اذ انتقل مركز التجارة من البحر المتوسط الى سواحل الاطلسى ، وفقدت المدن التجارية القديمة فى ايطاليا ماكان لها من شأن فى عالم المال ، وحل محلها دول تجارية جديدة ، وعادالذهب والفضة لايستثيران العجب ، ووجدت المعادن النفيسة طريقها الى أوربا على يد الاسبانيين والبرتغاليين والهولنديين والانكليز . لقد كان للقرن السادس عشركتابه الذين كتبوا فى الاقتصادالسياسى ، وكانت لهم نظرية فى الثروة القومية بدت لهم سليمة كل السلامة،مفيدة اعظم الفائدة لبلادهم . وقد ذهب هؤلاء الاقتصاديون الى ان الذهب والفضة ثروة بحق ، ومن ثم اعتقدوا أن الدولة التى تحتفظ باكبر قدر من النقد فى خزائنها ومصارفها ، هى فى الوقت نفسه أغنى دولة .

ولما كان المال معناه القدرة على تعبئة الجيوش واعدادها ، فان اغنى الدول كانت من ثم أقواها بأسا، وهى التى تستطيع حكم سائر دول العالم .

ونحن نطلق على هذه الطريقة اسم « الطريقة التجارية » . وكان الناس يعتقدون فيها اعتقادا راسخا يماثل اعتقاد النصارى الاقدمين فى المعجزات ،ويماثل اعتقاد الكثيرين من رجالالأعمال الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، بنظام التعاريف الجمركية . وتتلخص هذه الطريقة من الناحية العملية فيما يلى :

لكى يكون للدولة أكبر فائض من المعادن النفيسة ، يجب أن يكون ميزانها التجارى فى صالحها ، لانك اذا استطعت أن تصدر الى جارك اكثر مما يصدر هو لك ، فانه يكون بذلك مدينا لك بقدر من المال ، وسوف يضطر — والحالة هذه — الى ان يرسل لك بعض ذهبه ، ومن ثم يكون الربح فى جانبك والخسارة فى جانبه . لذلك كان البرنامج التجارى لكل دولة فى القرن السابع عشر يتلخص وفقا لهذا المذهب فيما يلى :

١ — اسع الى الحصول على اكثر مايمكنك من المعادن النفيسة .
٢ — شجع التجارة الخارجية ، وفضلها على التجارة الداخلية .
٣ — شجع الصناعات التى تحيل المواد الخام الى مواد مصنوعة معدة للتصدير .
٤ — شجع السكان على الزيادة لانك سوف تحتاج الى ايد عاملة فى مصانعك ، والمجتمع الزراعى لايستطيع أن يزودك بحاجتك من العمال .
٥ — دع الدولة تشرف على هذه المسائل جميعا وتتدخل — اذا اقتضى الامر — فى ذلك .

وقد حاول اهل القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تنظيم تجارتهم بمقتضى القرارات الرسمية والقوانين الملكية والمساعدات المالية من جانب الحكومة بدلا من النظر الى هذه التجارة الدولية على انها اشبه شيء بالقوى الطبيعية : تسير دائما وفق قوانين طبيعية بعينها ، غير حافلة بتدخل الانسان .

وفى القرن السادس عشر اخذ شارل الخامس بهذه الطريقة التجارية التى كانت وقتذاك بدعة من البدع ، وطبقها فى ممتلكاته الكثيرة . وسارت على نهجه فى هذه السياسة اليصابات فى انكلترا تملقا له . وكان البوربون فى فرنسا — وخاصة الملك لويس الرابع عشر — متعصبين لهذه الطريقة ، وغدا **كولبير** وزير مالية لويس العظيم ، نبى هذا المبدأ . واخذت اوربا كلها تهتدى بهديه . وكانت سياسة كرومويل الخارجية كلها تطبيقا عمليا لهذه الطريقة . وكانت هذه السياسة موجهة فى جميع الاحوال الى جمهورية هولندا الغنية المنافسة ، فقد كان أصحاب السفن الهولنديون — بوصفهم حملة تجارة اوربا — يجنحون بعض الجنوح

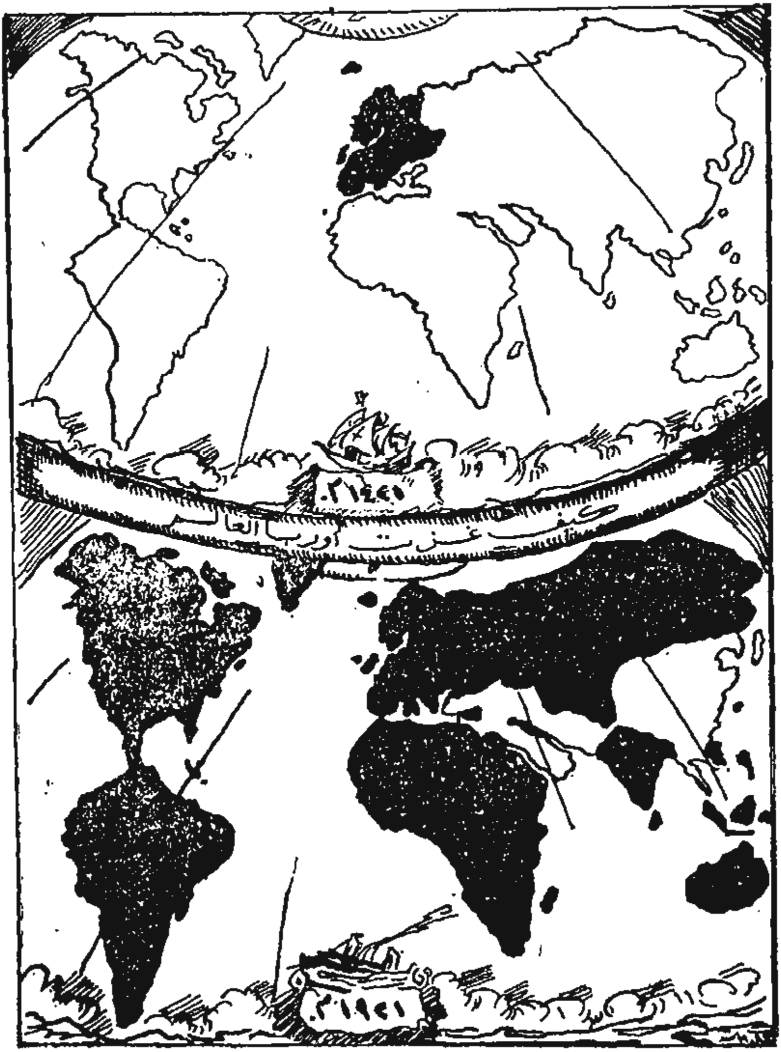


القوة البحرية

الى حرية التجارة ، ومن ثم رأى كروموبل ان القضاء عليها أمر لا مفر منه .

ومن اليسير علينا ان ندرك الأثر الذى كانت هذه الطريقة قمينة بأن تتركه فى المستعمرات ، فقد اصبحت المستعمرة فى ظل هذه الطريقة التجارية مجرد مخزن للذهب والفضة والأفاويه يصرف منه لصالح الدولة المستعمرة . واصبحت موارد آسيا وامريكا وافريقيا من المعادن النفيسة والمواد الخام الخاصة بهذه المناطق الاستوائية ،احتكارا للدولة التى قدر لها ان تملك هذه المستعمرة بذاتها . ولم يكن يسمح لاى اجنبى بالدخول فى هذه المستعمرة ، ولا لمواطن من اهلها بالمتاجرة مع تاجر يرفرف على سفينته علم اجنبى .

وليس من شك فى ان الطريقة التجارية قد شجعت على نمو الصناعات الصغيرة فى بعض الدول التى لم يكن بها صناعات من قبل ، كما انها كانت السبب فى شق الطرق وحفر القنوات وتحسين اسباب المواصلات . وكانت هذه الأعمال تتطلب وجود عمال



كيف غزت اوربا العالم

مهرة ، كما انهــا رفعت مركـز التاجر الاجتماعى ، واضعفت فى الوقت نفسه من سلطان طبقة الأشراف أصحاب الأرض .

على ان هذه الطريقة قد زادت من اسباب البؤس زيادة عظيمة ، ذلك انها جعلت اهالى المستعمرات فريسة لاشد انواع الاستغلال مجلبة للخزى والعار، وعرضت المواطنين فى الدول المستعمرة لمصير اشــد من ذلك هولا . فقد ساعدت هذه الطريقة الى حــد كبير على تحويل كل بلد من البلاد الى معسكر حربى ، كما قسمت العالم الى مناطق صغيرة كل منطقة تعمل

على تحقيق مصلحتها الخاصة ، فى حين تســعى دائما الى القضاء على قوة جيرانها والاستيـلاء عـلى خزائنهـم ، وجعلت همها الأكبر الحصول على الثروة حتى أصبح الثراء يعد الفضيلة الوحيدة التى يتحلى بها المواطن من اوساط الناس .

على ان المذاهب الاقتصـادية تجيء وتذهب ، شأنها شأن البدع التى تظهر فى الجراحة وفى أزياء النساء . وكان ان نبذت الطريقة التجارية فى القرن التاسع عشر، وحلت محلها المنافسة الحرة الصريحة . وهذا هـو على الاقل مبلغ ماوصـل اليه علمى .

الثـورة الأمــريكية

فى أواخر القـرن الثـامن عشر سمعت أوربا اخبارا عجيبة عن حادث وقع فى برارى القارة الشمالية الامريكية ، فقد اضاف سلالة اولئك الرجال الذين عاقبوا الملك شارل لتمسـكه بالحق المقدس للملوك ، فصلا جديدا الى تلك القصة القديمة ، قصة نضال الناس فى سبيل حكم أنفسهم بانفسهم

يقتضينا المقام هنا ان نعود ادراجنا بضعة قرون ، ونكرر ما سبق ان ذكرناه عن التاريخ المتقدم للنضال الكبير الذى نشب فى سبيل الحصول على المستعمرات .

ما أن قام عــدد من الدول الاوربيـة على ذلك الاساس الجديد : اساس القومية او مصـالح الاسر الحاكمة ، خلال حروب الثلاثين سنة او بعيدها، حتى استمر ملوكها فى القتال فى ســبيل امتلاك اراض

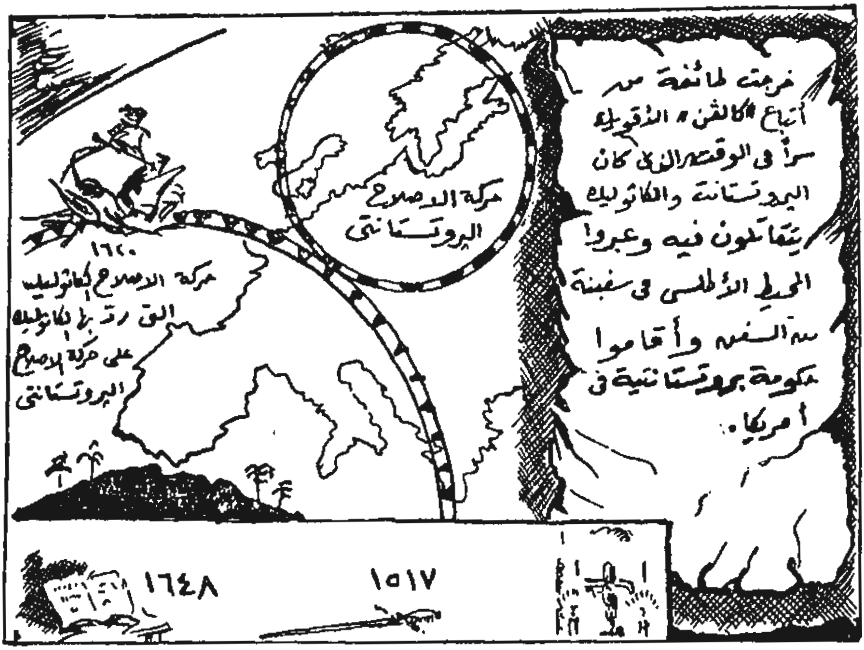


القتال فى سبيل الحرية

جديدة فى آسيا وافريقيا وامريكا ، يشـد ازرهم فى ذلك التجار بأموالهم والشركات التجارية بسفنها .

ظل الاسبان والبرتغاليون يرتادون المحيط الهندى والمحيط الهادى أكثر من قرن قبل أن تظهر هولندا وانكلترا على مسرح الحـــوادث . وكان ذلك فى مصلحـة هاتـين الدولتـين ، فقـد قام الاسـبان والبرتغاليون فعلا باعمال الكشف الشاقة الاولى ، يضاف الى ذلك ان الملاحين الاولين اغضبوا فى كثير مـن الاحيــان الاهـالى الاسيويين والامـريكيين والافريقيـين ، ومـن ثم رحب هـؤلاء بالانـكيز والهولنديين وعدوهم اصدقاءهم ومحرريهم .

ونحن لانستطيع ان نقول ان فضائل هذا الفريق تفوق فضائل ذاك، على ان الفريقين جميعا كانوا تجارا قبل كل شىء، فلم يسمحوا قط بان تتدخل الاعتبارات الدينية فى حكمهم العملى على الامور . فقد سلكت الدول الاوربية جميعا فى علاقاتها الاولى مع الاجناس الضعيفة ، مسلكا وحشيا تقشعر منه الأبدان . اما الانكليز والهولنديون فقد فاقوا غيرهم ، وعرفوا من اين تؤكل الكتف ، ذلك ان عزمهم قد صـح على ترك اهالى المستعمرات يعيشون كيفما يريدون ، ما داموا يحصلون على أفاويههم وذهبهم وفضتهم ويجبون منهم الضرائب ، ومن هنا لم يشق عليهم كثيرا أن يوطدوا أقدامهم فى أغنى بقاع العالم . ولكن ما ان تم لهم ذلك حتى أخذ كل منهم يحارب الآخر فى سبيـل



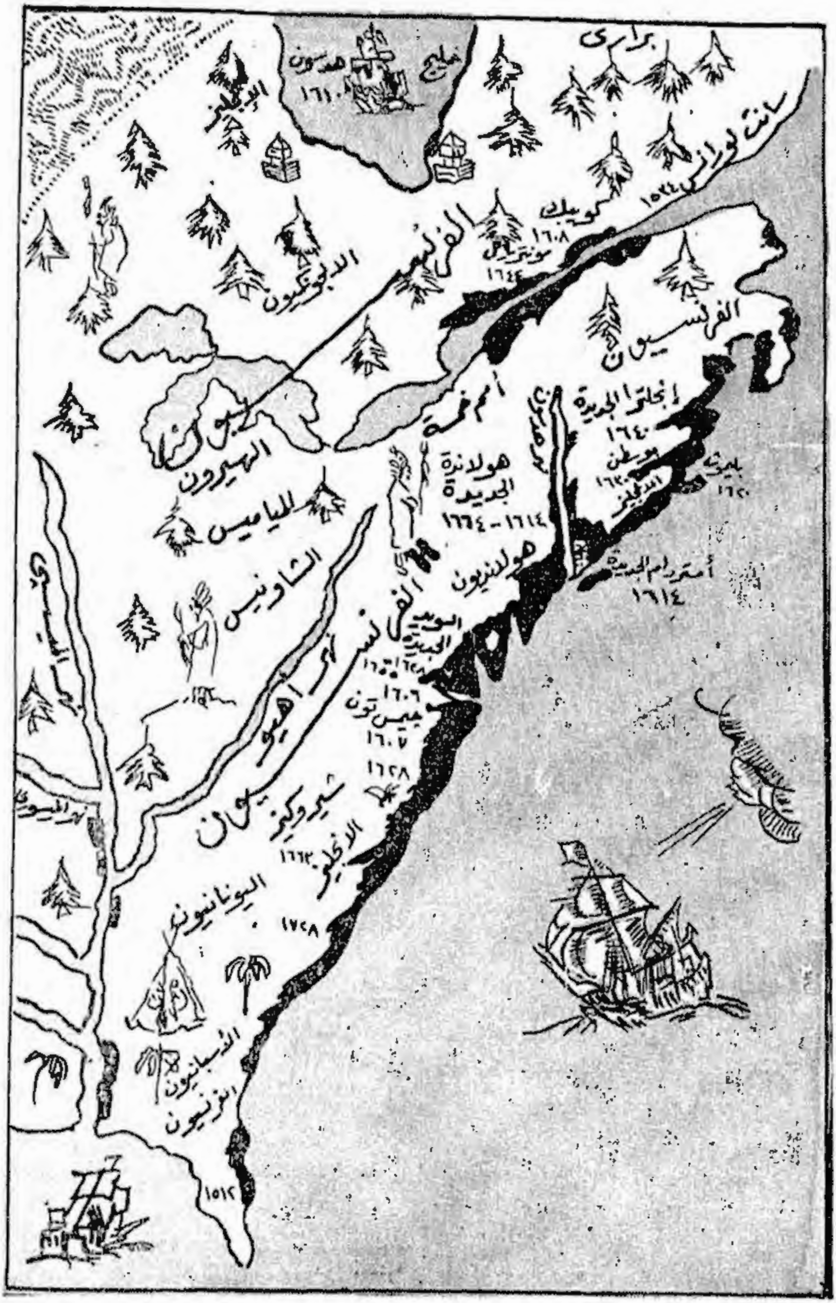
حركة الاصلاح الكاثوليكى تواجه حركة الاصلاح البروتستانتى

توسيع ممتلكاته . ومن الغريب أن حروب الاستعمار لم تحسم قط فى المستعمرات ذاتها ، ولكن أساطيل هذه الدول المتنازعة قد قررت مصير هذه الحرب على مسيرة ثلاثة آلاف ميل من هذه المستعمرات . ومن أهم المبادىء فى الحروب قديمها وحديثها ، بل من قوانين التاريخ القليلة التى يعتد بهـا ، تلك الحقيقة ... وهى ان الدولة التى تسيطر على البحر تسيطر كذلك على البر ، ولم يحدث قط حتى الآن ما يخرق هذا القانون الا ان الطائرة الحديثة قد تغيره . ومع ذلك فلم تكن فى القرن الثامن عشر طائرات . وكان الاسطول البريطانى هو الذى كسب لانكلترا مستعمراتها المترامية الأطراف فى أمريكا والهند وافريقيا .

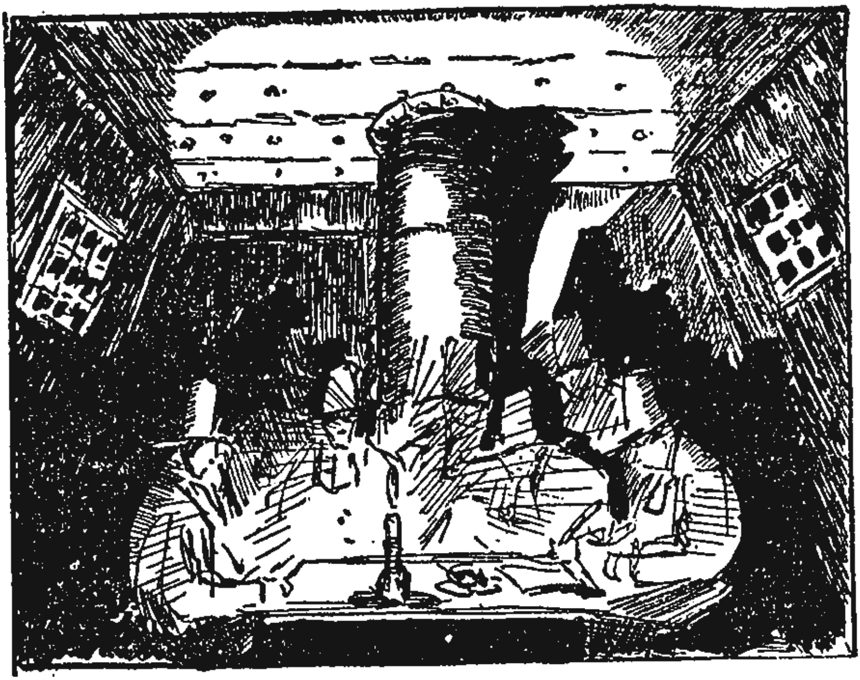
ولا يعنينا فى هذا المقام ذكر سلسلة الحروب البحرية التى نشبت بين انكلترا وهولندا فى القرن السابع عشر . وقد انتهت هذه الحروب كما تنتهى جميع الحروب التى تصطرع فيها دولتان بينهما بون شاسع فى القوة والبأس . على ان الحرب بين انكلترا ومنافستها الاخرى فرنسا اعظم اهمية بكثير . فانه على الرغم من أن أساطيل انكلترا القوية قد أوقعت الهزيمة فى آخر الامر بالبحرية الفرنسية ، الا أن شطرا كبيرا من المناوشات التى سبقت الحرب ، قد وقع فى القارة الامريكية . كانت كل من فرنسا وانكلترا تدعى لنفسها كل ما كان يكشف من أرض تلك القارة الواسعة ، بل تدعى أكثر من ذلك قدرا كبيرا من الارض التى لم يكن قد وقع عليها من بعد نظر الرجل الابيض .

ففى عام ١٤٩٧ نزل **كابوت** فى القسم الشمالى من أمريكا ، وقد جاء اليها على سفن تحمل العلم الانكليزى . وبعد ذلك بسبع وعشرين سنة زار تلك البلاد **جيوفانى فرازانو** ، وقدجاءهاعلى سفن فرنسية ، ومن ثم نجد كلا من انكلترا وفرنسا تدعى انها صاحبة هذه القارة بأسرها .

وفى خلال القرن السابع عشر قامت نحو عشر مستعمرات انكليزية مبعثرة فيما بين **مين** و **كارولينا** ، وكانت هذه المستعمرات فى غالب الاحيان بمثابة مأوى وملاذ لبعض الطوائف الانكليزية المنشقة مثل المتطهرين (Puritans) الذين شخصوا عام ١٦٢٠ الى انكلترا الجديدة ، او طائفة الكويكريين الذين استقروا فى بنسلفانيا عام ١٦٨١ .. ثم



كيف استقر البيض فى شمالى امريكا



فى قمرة السفينة « ماى فلاور »

ان هذه المستعمرات كانت جماعات من النـــــاس صغيرة العدد تأوى فى رحاب الشاطىء حيث اجتمع القوم ليقيموا موطنا جديدا ، ويبدأوا الحياة فى بيئة اسعد ، بعيدين كل البعد عن أشراف الملك وتدخله فى شئونهم .

اما المستعمرات الفرنسية فقد ظلت على الدوام من املاك التاج، فلم يسمح للهيجونوت او البروتستانت بالذهاب الى هذه المستعمرات ، خشية أن ينشروا عقائدهم البروتستانتية الخطرة بين الهنود، او يتدخلوا فى الدعوة التى يبشر بها الآباء اليسوعيون هناك . ومن ثم كانت المستعمرات الانكليزية مظهرا من مظاهر النشاط التجارى الذى بذلته الطبقات الوسطى فى انكلترا ، أما المستعمرات الفرنسية فقد كان يسكنها أناس عبروا المحيط ، وكانوا خداما للملك ، يترقبون العودة الى باريس فى اول فرصة تلوح لهم . على ان المستعمرات الانكليزية كانت من الناحية السياسية فى مركز سيىء . فالفرنسيون قد اكتشفوا مصب نهر سانت لورانس فى القرن السادس عشر ، ثم شقوا طريقهم من اقليم البحيرات الكبرى جنوبا ، وهبطوا مع نهر المسيسيبى ، واقاموا عدة حصون على خليج المكسيك . وبعد قرن من تاريخ هذا الاستكشاف كان هناك خط من الحصون الفرنسية عددها ستون حصنا تفصل بين المحلات الانكليزية التى على شاطىء المحيط الاطلسى وقلب القارة الامريكية .

وكانت انكلترا تمنح شركات الاستعمار المختلفة حق تملك الارض من البحر الى البحر ، وكان هذا الاجراء سليما من حيث النظر ، اما من حيث العمل فقدكانت المستعمرات الانكليزية تنتهى عند خط الحصون الفرنسية . وكان اجتياز هذه العقبة ممكنا ، ولكنه اقتضى الانكليز رجالا وأموالا ، وحملهم على خوض سلسلة من حروب الحدود الفظيعة اخذ فيها كل فريق يعمل القتل فى جيرانه البيض بمساعدة القبائل الهندية .

وكان شبح الحرب بين انكلترا وفرنسا بعيدا فى العهد الذى كانت فيه انكلترا تحت حكم آل ستيوارت ، ذلك أن الاستيوارت كانوا فى حاجة الى مساعدة البوربون فى محاولتهم توطيد الحكم المطلق فى بلادهم والقضاء على سلطان البرلمان . ولكن حدث فى عام ١٦٨٩ أن اختفى آخر ملك من ملوك الاستيوارت من الارض البريطانية ، وخلفه على العرش وليم



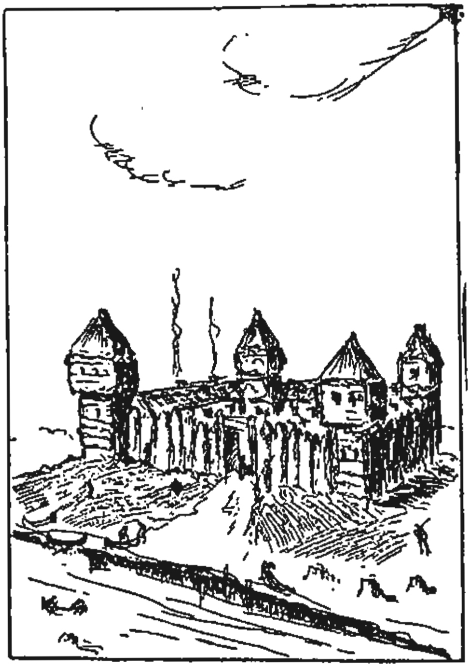
الفرنسيون يرتادون الغرب

الهولندى الد اعداء لويس الرابع عشر ، ومنذ ذلك الحين حتى معاهدة باريس عام ١٧٦٣ وانكلترا فى حرب مع فرنسا فى سبيل امتلاك الهند وامريكا الشمالية . وكانت الاساطيل الانكليزية خلال هذه الحروب تنزل الهزيمة تلو الاخرى بالاساطيل الفرنسية ، كما سبق أن بينا . وانقطعت الصلة بين فرنسا ومستعمراتها ففقدت معظم أملاكها . وما ان اعلن الصلح حتى كانت امريكا الشمالية باكملها قد وقعت فى يد الانكليز . وضاعت على فرنسا تلك الاعمال الكشفية العظيمة التى قام بها كل من **كارتييه** و **شاپلين** و **لاسال** و **ماركيت** وغيرهم هباء منثورا .

ولم يكن عامرا بالسكان من هذه الرقعة المترامية الاطراف الا جزء صغير ، فكانت هناك جماعات متفرقة تسكن شريطا رفيعا من الارض بين ماساشوست فى الشمال ، حيث نزل جماعة الحجاج (وهم فريق من المتطهرين المغالين فى التعصب لم يهنأوا بالعيش فى انكلترا الانجليكانية ولا فى هولندا الكلفنية) عام ١٦٣٠ ، وكارولينا وفرجينيا ، وهما اقليمان يزرع فيهما التبغ انشئا للاستغلال فحسب.

غير ان الناس الذين سكنوا هذه البلاد الجديدة ذات الهواء النقى والسماء الصافية ، كانوا يختلفون كل الاختلاف عن بنى ارومتهم ممن يسكنون انكلترا نفسها . فقد عرفوا فى هذه البرارى الاستقلال والاعتماد على النفس .

لقد انحدروا من اسلاف عرفوا بالباس وعلو الهمة ، لأن الكسالى والجبناء لم يكونوا يقدمون على عبور المحيط فى تلك الايام ، ذلك أن المستعمرين الامريكيين كرهوا القيود التى كانت تغلهم فى بلادهم الاصلية،وضاق بهم هذا الوطن حتى أصبحت حياتهم جحيما لا يطاق ، وارادوا أن يتحرروا فلا يكون عليهم سلطان ولا سيد . غير ان الطبقات الحاكمة فى انكلترا كانت فيما يبدو لا تهضم ذلك ، اذ اخذت فى مضايقة المستعمرين ، واخذ المستعمرون الذين كرهوا التضييق عليهم بهذه الصورة فى ازعاج الحكومة البريطانية .



المعقل الخشبى فى الثغر

وتولد عن هذا الشعور السيىء شعور اشـــد سوءا . ولا يقتضينا المقام ان نذكر بالتفصيل ماحدث بالفعل ، وما كان يمكن تحاشيه لو أن ملك انكلترا كان احصف من **جورج الثالث** ، او اقـل ركونا الى الدعة وقلة المبالاة مـن وزيره اللورد **نورث** . فلمـا ادرك المستعمرون الانـكليز ان المفاوضات السلمية ليست حرية بأن تحل المشاكل... امتشقوا الحسام، ونزعوا ثوب الرعايا المخلصين ، والتجاوا الى العصيان وعرضوا انفسهم لعقوبة الاعـدام اذا ما وقعوا فى قبضة الجنود الالمان ، الذين استاجرهم الملك جورج الثالث لقتالهم ، جريا على الطريقة التى كانت سائدة فى تلك الايام ، اذ كان أمراء التيوتون يبيعون فـرقا عسكرية باكملها لمن يدفع فيها اغلى ثمن .

واستمر القتال بين انكلترا ومستعمراتها الامريكية سبع سنوات ، كان احتمال انتصار الثوار انتصارا حاسما امرا مشكوكا فيه جدا فى معظم هذه الفترة ، ذلك ان عددا كبيرا من الناس ، وخاصة فى المدن ، ظل مواليا للملك ، وكان هذا العدد من الناس تواقا الى التوفيق ، بل كان حريا أن يسعى الى الصلح .



جورج واشنطن

ولكن واشنطن العظيم كان حفيظا على قضيـة المستعمرين لهذه البلاد ، وكان يعاونه فى ذلك نفر من الرجال الشجعان ، وقد استخدم جنوده ، وكانوا من أهل العزم ـ ولو انهم كانوا مجهزين تجهيزا سيئا ـ فى اضعاف قوى الملك . وكانت بوادر الهزيمة الماحقة تبـدو فى الافق مـن حين الى حـين ، الا ان قدرة واشنطن الحربية كانت تميل بكفة الميزان الى جانبه. وقد كان رجاله فى كثير من الاحيان لا ينالون قسطا وافيا من الطعام ، وكان يعوزهم فى فصل الشـتاء الاحذية والمعاطف ، كما كانوا يضطرون الى العيش فى خنادق وبيئة غير صحية . ولكن ثقتهم فى قائدهم



الشتاء الاول فى نيو انجلند

العظيم كانت راسـخة لا تتزعـزع ، وقد ظلوا مستمسكين بها حتى ساعة النصر الاخير .

على أن ثمة حادثة وقعت فى بواكير الثورة اهم من وقائع واشنطن ، أو الانتصارات التى احرزها فى ميدان السياسة بنيامين فرانكلين الذى كان يقوم فى أوربا بجمـع الامـوال من الحكومة الفرنسية ، ومن اصحاب المصارف فى امستردام ... ذلك أن ممثلى المستعمرات المختلفة كانوا قد اجتمعوا فى فيلادلفيا لمناقشة بعض المسائل ذات الصبغة العامة ، وكان ذلك فى اول سـنة من سـنى الثـورة ، وكان معظم المدن الكبيرة التى على ساحل المحيط لا يـزال فى أيـدى البريطانيين ، وكانت الامدادات تصل تباعا من انكلترا على ظهور السفن . ولم يكن يجسر على ابرام ذلك القرار الخطير الذى اتخذ فى شهرى يونية ويولية من عام ١٧٧٦ الا أولـئك النـاس الذين كانوا يؤمنـون بعدالة قضيتهم ايمانا راسخا لا يتزعزع .

ففى شهر يونية اقترح **ريتشارد هنرى لى** ، امام اعضاء مؤتمر القارة الامريكية ، أن هذه المستعمرات المتحدة هى ولايات حرة مستقلة ، ومن حقها أن تكون كذلك ، وانها فى حل من أن تدين بأى ولاء للتـاج البريطانى ، وان كل رابطـة سـياسية بينهـا وبين حكومة بريطانيا العظمى منفصمة تمام الانفصام ، بل يجب ان يكون هذا هو شانها .

وقد عزز هذا الاقتراح اقتراح آخر قدمه **جـون آدمز** من ولاية ماساشوست ، واخذ بهذا الاقتراح فى الثانى من يولية ، وفى الرابع منه اعقبه صـدور اعلان رسمى بالاستقلال قام به **توماس جفرسون** ، وهو باحث عميق قدير فى مسائل السـياسة ونظم الحكم ، قدر له أن يصبح من اشهر رؤساء الجمهورية الامريكية .



الثورة الامريكية الكبرى

ولما بلغت أوربا أنباء هـذا الحادث ، وما تلاه من انتصار المستعمرين انتصارا حاسما ، واتخاذهم عام ١٧٨٧ ذلك الدستور المشهور الذى كان أول الدساتير المكتوبة ... أثار ذلك اهتماما كبيرا بين الاوربيين . وكان نظام الاسر الحاكمة فى الدول المعمنة فى المركزية ــ وهو النظام الذى كان قد نما فى اعقاب الحروب الدينية الكبرى فى القرن السابع عشر ــ قد بلغ عنفوانه . وكانت قصور الملوك فى كل مكان قد اتسعت رقعتها اتساعا عظيما ، فى حين كان يحيط بمدن هذه الممالك مساحات من البيوت الحقيرة تزداد رقعتها على الدوام . وكان سكان هذه البيوت قد اخذت تظهر عليهم امارات القلق ، فقد كانوا لاحول لهم ولا قوة . على ان الطبقات العليا والنبلاء واصحاب المهن كانوا هم ايضا قد اخذت تساورهم الشكوك فى الأحوال الاقتصادية والسياسية التى كانوا يعيشون فى ظلها . فقد كشف لهم انتصار المستعمرين الأمريكيين أن كثيرا من الامور التى كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك بوقت قصير ، قد غدت فى حيز الامكان . وشاهد ذلك قول الشاعر ان اول رصاصة اطلقت فى وقعة **لكسنجتون** قد تردد صداها فى العالم اجمع . على ان هذا القول فيه شىء من المبالغة ، لان الصينيين واليابانيين والروس ، ناهيك بالاستراليين واهل جزر هاواى (الذين كان **الكابتن كوك** قد كشف عنهم وشيكا وجازوه بالقتل على مابذل من جهد) ... لم يسمعوا بها قط . ولكن هذه الرصاصة قد جاوزت المحيط الأطلسى ، وسقطت فى مخزن بارود اوربا الساخطة ، واحدثت فى فرنسا انفجارا هز أركان القارة جميعا من بتروغراد الى مدريد ، ودفن تحت أنقاضه ممثلى المدرسة القديمة فى الحكم والسياسة تحت اطنان واطنان من اللبنات الديمقراطية .

الثورة الفرنسية

الثورة الفرنسية العظيمة تعلن مبادىء الحرية والاخاء والمساواة الى شعوب العالم قاطبة

يقتضينا الواجب ان نقول كلمة الحق فى تفسير مدلول الثورة قبل ان نتحدث عن ثورة من الثورات بحق . والثورة فى قول كاتب روسى كبير ــ وما احرى الروس بان يعرفوا مايقولونه فى هـذا الشأن ! ــ هى « تقويض سريع يحل فى سنوات قليلة بانظمة تطلب تاصيل جذورها فى الارض قرونا حتى بدت متينة البنيان ، راسخة الأركان ، يشق على اكثر المصلحين حماسة ان يهاجموها فى كتاباتهم . فهى انهيار وتداع يصيب فى وقت قصير كل ما كان الى ذلك الحين جوهر الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية لامة من الأمم » .

ولقد شبت ثورة من هذا القبيل فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، عندما اصبحت حضارة هذه الامة عقيما ، لاتنمو ولا تزدهر . وكان الملك فى ايام لويس الرابع عشر قد غدا كل شىء فى الدولة ، بل كان هو الدولة . اما النبلاء الذين كانوا من قبل الخدام المدنيين للدولة المتحدة ، فقد وجدوا أن كواهلهم قد خلت من الواجبات ، واصبحوا زينة المجتمع فى بلاط الملك .

على ان الدولة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت تتطلب اموالا طائلة لم تجد مناصا من تحصيلها بالضرائب تفرضها على الشعب . ومن سوء الطالع ان ملوك فرنسا كانوا اعجز من ان يحملوا النبلاء ورجال الدين على اداء نصيبهم منها . فوقع عبء هـذه الضرائب كله على كاهل المزارعين . ولكن الفلاحين الذين كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ، لم تعد صلاتهم طيبة بملاك اراضيهم السابقين ، بل كانوا فريسة وكلاء قساة عاطلين من الكفاية . فازداد حالهم سوءا على سوء ، واخذوا يسائلون انفسهم : لم يكدون ويكدحون ؟ . وكان ازدياد دخلهم يؤدى الى ازدياد الضرائب المفروضة عليهم ، ولايعود عليهم ذلك بالمنفعة . فاهملوا حقولهم بمقدار ما أوتوا من شجاعة وجراة . ومن ثم نجد ملكا يرتع وسط مظاهر الابهة الفارغة فى أبهاء قصوره الفسيحة يتبعه فى العادة جماعة من الطامعين فى الوظائف ، وكلهم يعيشون على الدخل المستمد من الفلاحين الذين كانت حالهم لاتفضل حال السائمة فى الحقول . وهذه الصورة سيئة قاتمة ، ولكنها خالية من المبالغة . على ان ثمة ناحية اخرى لما يعرف بـ « نظام الحكم القديم » لا ينبغى ان تغيب عن بالنا .

والحق ان وجود طبقة وسطى ميسورة الحال ترتبط بالنبلاء بمقتضى السنة المالوفة ، سنة زواج ابنة رجل من ارباب المال بابن نبيل فقير ، وبلاط يضم اظرف الظرفاء والسمار في فرنسا كافة ـ قد رقى بذلك الفن المهذب ، فن الحياة الرشيقة الانيقة الى الاوج . ذلك ان خيرة أصحاب العقول في فرنسا قد حرم عليهم الاشتغال بمسائل الاقتصاد السياسى ، فانفقوا أعمارهم الفارغة في مناقشة الافكار المجردة .

وكانت انماط التفكير ومذاهب السلوك الشخصى حرية بأن تذهب الى أقصى مدى تبلغه أزياء اللباس . ومن ثم كان من الطبيعى أن يهتم مجتمع تلك الأيام ، الذى أفرط في الصنعة والتكلف غاية الافراط ، اهتماما بالغا بما كانوا يسمونه بـ « الحياة البسيطة » . فاخذ الملك والملكة وملاك فرنسا أصحاب السلطان المطلق ، وجميع مستعمراتها ومحمياتها ، وحاشية هؤلاء جميعا ، ينطلقون فيعيشون في بيوت ريفية صغيرة مضحكة ، ويرتدون جميعا لباس بائعات اللبن وغلمان حظائر الخيل ، ويمرحون في ثيابهم هذه كانهم رعاة واد سعيد من أودية اليونان القديمة ، وحولهم حاشيتهم يراقصونهم وموسيقيو البلاط يضعون لطائف الالحان ، وحلاقوه يفتنون في تجهيز اغطية للراس احبك واحكم وانفس ، حتى دفعت الملالة والخلو من أى عمل جدى هذا العالم المتكلف كله ، الذى كان يقوم في فرساى (وهو القصر المبهرج الذي بناه لويس الرابع عشر بعيدا عن المدينة الصاخبة المضطربة) الى قصر حديثه على أولئك الرعايا الذين أقصوا اقصاء عن حياته ، كما يقصر الرجل الذى برح به الجوع حديثه على الطعام .

فلما بدا **فولتير** ـ وهو ذلكم الفيلسوف العجوز الجرىء ، والكاتب المسرحي والمؤرخ والروائى ، والعدو الاكبر لجميع ضروب الاستبداد الدينى والسياسى ـ يطلق سهام نقده على كل ما يتصل بالنظام الذى كان قائما وقتئذ . . . هلل له الفرنسيون جيما ، واصبحت مسرحياته لا تمثل الا كلما اجتمع الناس لسماعها .

ولما اخذ **جان جاك روسو** يذوب حسرة على الانسان البدائى ، ويرسم لمعاصريه صورا بهيجة للسعادة التى كان ينعم بها سكان الكرة الارضية الاصليون (وكانت معرفته بهم قليلة لا تزيد عن معرفته بالاطفال مع انه كان يعد حجة في تعليمهم وتربيتهم) ـ اقبل الفرنسيون جميعا على قراءة كتابه « العقد الاجتماعى » ، وذرف هذا المجتمع الذى كانت الدولة والملك فيه شيئا واحدا ، الدموع السخينة عندما سمعوا دعوة روسو الى العودة الى تلك الايام المباركة حين كان السلطان الحقيقى في يد الشعب ، وكان الملك لا يعدو أن يكون خادما للشعب .

ولما نشر **مونتسكيو** « رسائله الفارسية » التى قلب فيها اثنان من رحالة الفرس المجتمع الفرنسى الذى كان قائما وقتئذ راسا على عقب ، وسخرا بالجميع : من الملك الى احقر طاه من طهاته الستمائة الذين كانوا يصنعون له الفطائر ـ راجت هذه الرسائل من فورها ، حتى لقد طبعت اربع مرات ، واكسبت المؤلف آلافا من القراء اقبلوا على قراءة بحثه الشهير في « روح القوانين » الذى اظهر فيه بارونا نبيلا يوازن بين النظام الانكليزى الجيد والنظام الفرنسى المتاخر ، وينادى بترك الملكية المستبدة واقامة نظام تكون فيه السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية مستقلة بعضها عن بعض ، يقوم على كل منها رجال لا شان لهم برجال السلطتين الاخريين . ولما اعلن الوراق الباريسى **لبرتون** أن السادة **ديدرو ودالمبير وترجو** ونفرا من الكتاب المبرزين اعتزموا ان ينشروا **دائرة معارف** تضم « جميع الآراء الجديدة والعلوم الجديدة والمعارف الجديدة » ، قابل الجمهور ذلك باعظم آيات الرضا . ولما تم المجلد الثانى والعشرون من هذه الدائرة بعد ثمانية وعشرين عاما ، لم يستطع رجال الشرطة الذين تدخلوا في الامر بعد فوات الوقت أن يخمدوا الحماسة التى قابل بها المجتمع الفرنسى هذا الاثر العظيم الشان البالغ الخطورة الذى كان له فضل على المناقشات التى كانت دائرة آنئذ .

ولتسمح لى ايها القارىء بان اسوق لك في هذا المقام تحذيرا طفيفا . فانت اذا قرات قصة عن الثورة الفرنسية ، أو رايت مسرحية تعالجها ، فانه من اليسير ان تخرج منها بفكرة : وهى أن هذه الثورة كانت من فعل الرعاع الذين خرجوا من أحياء باريس القذرة . الا انها لم تكن من ذلك في شيء . فالرعاع يظهرون في كثير من الاحيان على مسرح الثورة ، ولكن الذين كانوا يحرضونهم ويقودونهم في جميع الافعال : هم أولئك الرجال المحترفون من الطبقة الوسطى الذين كانوا يرون في جماهير العامة الجائعين حليفا قويا لهم في صراعهم مع الملك وبلاطه .

على أن الأفكار الكبرى التى سببت الثورة ، ابدعتها عقول نفر من الرجال النابهين ، وادخلت أول الامر في أبهاء « النظام القديم » البديعة ، لتروح عن سيدات البلاط الملكى وسادته وتبدل من حديثهم الذى ضاقوا به . واخذ هؤلاء الناس أهل البشاشة واللطف ، بل

اهل الغفلة ، يلعبون بنار النقد الاجتماعى الخطرة حتى تسربت شرارتها من خلال ارض الابهاء ، وكانت هى الاخرى قديمة متداعية كسائر البناء . ثم انبعثت صرخة تنذر بالنار . ولكن رب البيت الذى كان معنيا بكل شيء الا بتدبير ملكه ، لم يعرف كيف يخمد هذا اللهب الصغير ، فاندفع سريعا ، واتت النيران التى تسميها الثورة الفرنسية الكبرى على البيت كله .

ويمكننا ان نقسم الثورة الفرنسية الى طورين تيسيرا للحديث عنها : الطور الأول ، وهو يبدأ من سنة ١٧٨٩ ، وينتهى سنة ١٧٩١ . وقد بذلت فى هذا الطور محاولة متفاوتة فى اطرادها لادخال نظام الملكية الدستورية . وباءت هذه المحاولة بالخيبة لقلة ايمان القائمين بها ، ولحماقة الملك نفسه ، ولظروف لم يكن لاحد عليها أى سلطان .

والطور الثانى من عام ١٧٩٢ الى عام ١٧٩٩ ، وقد كانت تقوم فيه جمهورية ، كما بذلت خلاله محاولة أولى لاقامة صورة من صور الحكم الديمقراطى . على أن اندلاع نيران العنف والقسوة بالفعل ، قد سبقته عدة سنوات سادها القلق ، وبذلت فيهما محاولات كثيرة صادقة للاصلاح ، الا انها كانت غير مثمرة .

وفى الوقت الذى بلغ فيه دين فرنسا ٤٠٠٠ مليون من الفرنكات ، وكانت خزانتها فيه خاوية على الدوام ، ولم يكن ثمة شيء واحد يستطاع ان تفرض عليه ضرائب جديدة ـ احس الملك الطيب لويس نفسه ، وكان رجلا حريصا كل الحرص على المال ، يحسن اقتناص الفرص وان كان قليل الحيلة فى السياسة . . بانه ينبغى ان يفعل شيء ، ومن ثم استدعى **روبرت جاك ترجو** واقامه وزيرا لماليته . وكان آن روبرت جاك ترجو بارون ده لولن رجلا فى اواخر العقد الرابع من حياته يمثل خير تمثيل طبقة الاعيان من اصحاب الاراضى التى كانت آخذة فى الزوال السريع . وكان الى ذلك واليا من ولاة الاقاليم الناجحين واقتصاديا سياسيا هاويا عظيم المقدرة . وقد بذل هذا الرجل كل ما فى وسعه ، ولكنه كان لسوء الحظ لا يستطيع ان يأتى بالمعجزات . فقد كان من المستحيل عليه ان يعتصر الفلاحين المساكين فيجبى منهم ضرائب جديدة . ومن ثم لم يجد بدا من ان يحصل على الاموال اللازمة من النبلاء ورجال الدين الذين لم يؤدوا للدولة قط سنتيما واحدا . وجعله ذلك أبغض الناس فى نظر بلاط فرساى . ثم ان ترجو اضطر الى مواجهة عداوة الملكة **مارى انطوانيت** التى كانت تعادى كل من يجسر على ذكر كلمة « اقتصاد » فى حضرتها . وسرعان ما رمى بأنه « رجل احلام غير عملى » وانه « استاذ نظرى » ولهذا تعذر عليه بطبيعة الحال البقاء فى منصبه ، وحمل على الاستعفاء منه عام ١٧٧٦ .

وخلف هذا الاستاذ رجل أوتى النظرة العملية المأثورة عن رجال الأعمال . كان هذا الرجل سويسريا دعويا يدعى **نكر** ، اصبح من الاثرياء بفضل احتكاره للغلال وبفضل كونه شريكا فى بيت من بيوت المال العالمية . وقد دفعت به زوجته الطموح الى خدمة الحكومة آملة أن يحقق ذلك لابنتها مكانة ومركزا ، وقد غدت هذه الابنة ـ التى تزوجت بعد من البارون **ده ستايل** وزير السويد فى باريس ـ علما من اعلام الادب فى صدر القرن التاسع عشر .

وانخرط **نكر** فى العمل ، مظهرا غيرة محمودة ، كما فعل ترجو سواء بسواء .

وفى عام ١٧٨١ نشر بيانا عن المالية الفرنسية عرضها فيه عرضا دقيقا . على ان الملك لم يفهم شيئا من هذا البيان الحسابى . ذلك انه كان قد أنفذ وشيكا جنودا الى امريكا ليعين الامريكيين على الانكليز عدو الطرفين المشترك . على أن هذه الحملة كانت كثيرة النفقة على عكس ماكان منتظرا ، ومن ثم طلب من نكر أن يدبر لها المال اللازم . فلما انصرف عن تدبير هذا المال الى نشر ارقام اخرى ، وعمل احصائيات ، واخذ يلجأ الى ذلك التحذير الكئيب الذى ينادى بضرورة الاقتصاد اصبحت أيامه معدودة . فصرف عن منصبه فى سنة ١٧٨١ بعد أن رمى بعدم الكفاية فى اداء مهمته .

وخلف الاستاذ ورجل الاعمال ، مالى من ذلك الطراز الذى يبهر الناس ، فهو يمنيهم بربح قدره ١٠٠ ٪ تدره اموالهم كل شهر اذا هم وثقوا فى نظامه الذى لايأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه . وقد كان هذا الرجل : الا وهو **شارل اسكندر ده كالون** ، موظفا جريئا بنى مستقبله بكده وبعده كل البعد عن مقتضيات الأمانة ونواهى الضمير . وجد « **كالون** » ان البلاد مثقلة بالدين ، ولكنه كان أريبا يعتزم ان يرضى كل انسان ، فابتدع علاجا سريعا . . . فسدد الديون القديمة بعقد ديون أخرى . ولم تكن هذه الطريقة جديدة مستحدثة ، كما انها كانت منذ أقدم الأزمان وخيمة العاقبة . فلم يمض على ذلك الا سنوات ثلاث أو أقل ، حتى اضيف الى قائمة ديون فرنسا مبلغ يزيد على الثمانمائة مليون فرنك بفضل ذلك الوزير الساحر للألباب الذى كان لايقلق باله شيء قط ، وكان يمهر

بتوقيعه مبتسما كل طلب يأتيه من صاحب الجلالة وزوجته الملكة الفاتنة التى كانت قد الفت الاسراف فى ايام شبابها التى قضتها فى ڤينا .

وانتهى الامر بأن قرر برلمان باريس نفسه — وكان هيئة قضائية وليس هيئة تنفيذية — بانه ينبغى ان يفعل شيء لتدارك الأمر ، مع أن ولاءه للملك لم تكن تشوبه اية شائبة . واراد **كالون** ان يستدين ثمانية ملايين اخرى من الفرنكات . وكانت سنة شحت فيها محاصيل الغلال ، واخذ البؤس والجوع بمخانق الناس فى المناطق الريفية . وكانت فرنسا قمينة بأن تفلس الا اذا اتخذ اجراء سليم لتلافى ذلك .



لويس السادس عشر

وكان الملك ، كشأنه دائما ، لايدرك خطورة الموقف . الم يكن من الخير أن يستشار ممثلو الأمة ؟ لم يكن مجلس الطبقات قد اجتمع منذ سنة ١٦١٤ . وكان ثمة من ينادى بدعوة هذين المجلسين بالنسبة لحالة الذعر التى كانت تهدد البلاد . على أن لويس السادس عشر ، وهو الرجل الذى كان عاجزا دائما عن البت فى الأمور ، رفض أن يبلغ هذا المدى .

واراد لويس أن يهدىء خواطر الناس الهائجة ، فعقد اجتماعا من الأعيان فى سنة ١٧٨٧ . وانما كان هذا الاجتماع مجلسا عقدته أعرق الأسر ، وناقشت فيه مايمكن عمله وما ينبغى اتخاذه من الاجراءات دون ان يمس ذلك الامتياز الذى اعفى أمراء الاقطاع ورجال الدين من اداء الضرائب .

وكان مما يجافى المنطق أن تنتظر من طبقة معينة من طبقات المجتمع ، أن تنتحر سياسيا واقتصاديا تحقيقا لمصلحة طبقة أخرى من اخوانهم فى الوطن .

وقد رفض هؤلاء الاعيان البالغ عددهم ١٢٧ عينا ، فى اباء واصرار أن يتنازلوا عن حق واحد من حقوقهم القديمة . وطالب جمهور الشوارع الذى كان الجوع قد أخذ يلح عليه ، ويأخذ بمخانقه بأن يعاد **نكر** موضع ثقته الى منصبه . . . وأبى الأعيان . فأخذت الجماهير فى الشوارع تحطم النوافذ ، وتأتى من الفعال ماهو مستنكر مستقبح . ففر الأعيان ، وصرف كالون عن منصبه .

وعين خلفا له فى وزارة المالية رجل آخر لالون له هو الكاردينال **لوميني ده بريين** . وهدد رعايا لويس الجائعون بالالتجاء الى العنف والشدة ، فلم يجد لويس بدا من الموافقة على دعوة مجلس الطبقات الى الاجتماع بأسرع ماتسمح به الظروف . على أن هذا الوعد الغامض لم يرض بطبيعة الحال احدا .

واتفق أن حل بالبلاد شتاء قارس لم تر مثله منذ قرن تقريبا . ذلك أن المحاصيل أتى عليها الفيضان او تجمدت من الصقيع فى الحقول . وذوت أشجار الزيتون جميعا فى بروفانس ، وحاولت جمعيات البر أن تفعل شيئا ، ولكن جهدها كان قليلا بالنسبة لسكان فرنسا الجائعين الذين بلغ عددهم اذ ذاك ثمانية عشر مليونا من النفوس . فثار الناس فى كل مكان طالبين الخبز ، وكان الجيش قمينا بأن يخمد مثل هذه الثورة لو انها شبت قبل ذلك بجيل تقريبا . على أن عمل المدرسة الفلسفية الجديدة كان قد أخذ يؤتى ثماره . ذلك أن الناس بداوا يدركون أن البنادق ليست علاجا شافيا للبطون الخاوية ، ثم ان الجنود أنفسهم ، الذين خرجوا من بين صفوف الشعب، أصبحوا لايعول عليهم فى هذا الشأن . وبات من اوجب الأمور ان يفعل الملك شيئا حاسما ليستعيد ثقة الناس ، ولكن التردد عاوده .

واقيمت فى انحاء متفرقة من الولايات الفرنسية جمهوريات صغيرة مستقلة على يد اتباع المدرسة الجديدة . وعلت الصيحة «بأن لاضرائب من غير تمثيل» بين صفوف الطبقة المتوسطة المخلصة ، وهى الصيحة

التى كانت قبل ذلك بربع قرن شعار الثوار الأمريكيين . وحاقت الفوضى العامة بفرنسا . وأرادت الحكومة ان تهدىء خواطر الناس ، وأن تزيد فى استمالتهم الى الملك ، فأوقفت على غير انتظار الرقابة الشديدة الصارمة التى كانت مضروبة على الكتب ، فانهال على فرنسا فى الحال طوفان منها . فكان كل فرد كبر مقامه أو صغر ينتقد وينتقد ، ونشرت أكثر من ۲۰۰۰ رسالة . وأطاحت عاصفة من المثالب والشتائم **بلومينى دبريين** ، واستدعى **نكر** على عجل ليهدىء ما وسعه من القلق الذى عم أفراد الشعب . فارتفع سوق الاوراق المالية فى الحال بنسبة ثلاثين فى المائة . وباتفاق الجميع رضى الناس بأن يؤجلوا حكمهم على الامور فترة قصيرة أخرى . وحدد موعد لاجتماع مجلس الطبقات فى مايو سنة ۱۷۸۹ ، وعندئذ سوف تعجل حكمة الأمة جمعاء بحل تلك المشكلة العويصة ، الا وهى اعادة المملكة الفرنسية الى حال من السلامة والسعادة .

على انه قد ثبت ان هذه الفكرة السائدة ، فكرة ان حكمة الشعب كافة سوف تتغلب على جميع المصاعب ، كانت وخيمة العاقبة . فقد عرقلت جميع الجهود الشخصية التى كان يمكن ان تبذل فى خلال هذه الشهور الكثيرة الهامة .

ولم يعمد نكر الى الاحتفاظ بمقاليد الحكم فى يديه فى هذه الفترة الحرجة ، بل ترك كل شىء يسير الى غير غاية . ومن ثم انطلق الناس من جديد يتناقشون محتدين فى خير الوسائل لاصلاح المملكة القديمة . واخذت قبضة الشرطة تتراخى فى كل مكان . وبدأ الجمهور فى ضواحى باريس ، يقوده محرضون من المحترفين ، يحس بقوته . وشرع يلعب الدور الذى قدر له أن يلعبه خلال سنوات الفتنة الكبرى ، حينما اصبح القوة الغاشمة التى اصطنعها زعماء الثورة الحقيقيون لينالوا بها مالم يستطيعوا ان ينالوه بالطريقة المشروعة .

وأراد نكر أن يلهى فلاحى الطبقة الوسطى بلقمة ، فاستقر رأيه على انه ينبغى أن يتاح لهم التمثيل المزدوج فى مجلس الطبقات . وقد كتب **الاب سييز** آنئذ رسالة مشهورة فى هذا الوضوع تساءل فيها « ما شأن الطبقة الثالثة ؟ » .

وانتهى الى القول بأن الطبقة الثالثة — وهو الاسم الذى اطلق على الطبقة الوسطى — يجب أن يكون لها شأن فى كل شىء ، وان لم يكن لها فى الماضى شأن فى أى شىء ، وهى الآن تطالب بأن يكون لها شأن فى أى شىء .

وقد عبر سييز بذلك عما يشعر به جمهور الشعب الذى كان يغار على مصلحة البلاد من قلبه .

ثم حدث آخر الأمر ان أجريت الانتخابات فى أسوأ ما يتصور من ظروف ، فلما انتهت حمل ۳۰۸ من رجال الدين و۲۸٥ نبيلا و٦۲۱ ممثلا للطبقة الثالثة عدتهم ليشخصوا الى فرساى . اما الطبقة الثالثة فقد اضطرت الى الاستزادة من عدتها . وكانت هذه العدة تقارير ضخمة عرفت بالكراسات ، سجل فيها كثير من شكاوى ناخبيهم ومظالمهم . واعد المسرح للفصل العظيم الأخير الذى قصد به الى انقاذ فرنسا .

واجتمع مجلس الطبقات فى ٥ مايو سنة ۱۷۸۹ ، وكان الملك مهموما . أما رجال الدين والنبلاء فقد كان من المعروف انهم قد عقدوا العزم على الا يتخلوا عن امتياز واحد من امتيازاتهم . وامر الملك بأن تجتمع كل طبقة من طبقات المجلس الثلاث على حدة فى غرف مستقلة ، وان تتناقش كل منها فى مظالمها بعيدة عن الأخرى .

وأبت الطبقة الثالثة أن تطيع ما أمر به الملك ، واقسم ممثلوها ايمانا مغلظة على ذلك فى باحة من باحات التنس أعدت على عجل لهذا الاجتماع غير المشروع ، وكان هذا القسم فى العشرين من يونية سنة ۱۷۸۹ . واصر هؤلاء على انه ينبغى أن تجتمع الطبقات الثلاث جميعا ، وهى النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة وابلغوا جلالته ذلك . . . فسلم .

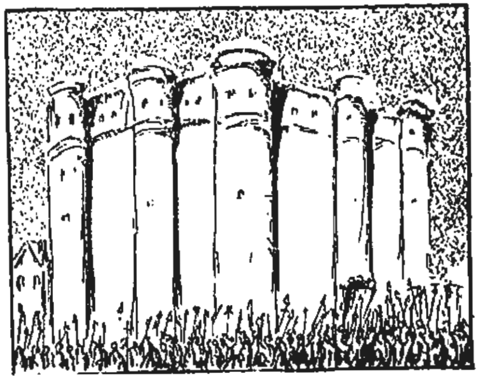
وبدأ مجلس الطبقات يناقش حالة المملكة الفرنسية بوصفه « جمعية وطنية » وغضب الملك . ثم عاوده تردده ، وقال انه لن يسلم فى سلطته المطلقة . ثم خرج الى الصيد ونسى كل مهام الدولة ، ولما عاد من صيده استسلم . ذلك انه جرى على أن يتصرف التصرف السليم فى غير وقته وعلى نحو مخطىء : فاذا طالب الشعب بكذا ، عنفه الملك ولم يعطه شيئا . على انه سلم عندما احاطت بالقصر جماهير صاخبة من الشعب الجائع ، وأعطى رعاياه ماطلبوه . ولكنما ان حان هذا الوقت حتى كان الشعب يطالب بكذا وكيت . . فتكررت المهزلة . ولما وقع الملك مرسوما ملكيا يمنح شعبه المحبوب كذا وكيت ، كان الشعب يهدد بقتل الأسرة المالكة جميعا ان لم يحصل على كذا وكيت . وهكذا كان شأنه حيال طلبات الشعب المتوالية حتى انتهى به الأمر الى المقصلة .

ومن سوء الحظ ان الملك كان دائما لايتصرف الا بعد ان يفوته الشوط بخطوة . ولكنه لم يدرك ذلك

قط ، بل هو قد احس ــ وعنقه تحت المقصلة ــ بانه رجل مبتلى تكاثرت أرزاؤه ، وجل لقى بغير ما مبرر اسوا المعاملة على يد شعبه الذى اضمر له كل ما فى طاقته المحدودة من حب .

على ان كلمة « لو » لن يكون لها فى التاريخ قط اية جدوى كما سبق ان حذرتكم مرارا . وما ايسر ان نقول ان الملكية كانت خليقة بان تنقذ لو ان لويس كان ابعد همة واقل رحمة ! ولكن الملك لم يكن وحده فى الميدان . بل « لو » ان الملك قد أوتى ما اوتى نابليون من قوة لاتعرف الرحمة او الشفقة ، لكانت سيرته فى تلك الأيام الحرجة خليقة بأن تفسد على اهون سبيل بفعل زوجته ابنة **ماريا تيريزا** ملكة النمسا ، تلك الزوجة التى كانت تتصف بجميع الفضائل والرذائل المعهودة فى فتاة شابة نشأت فى أحضان بلاط عرف بانه كان اشد بلاط فى هذا العهد اخذا بالاساليب الاستبدادية واساليب القرون الوسطى .

واستقر راى الملكة على انه يجب ان يفعل شىء ، ودبرت ثورة على الثورة . وصرف نكر عن منصبه فجاة ، واستدعى الجنود الموالون للملك الى باريس ،



الباستيل

فلما سمع الشعب بذلك اقتحم قلعة سجن **الباستيل** ، وحطموا ذلك الرمز المعهود المقوت للسلطة الاستبدادية ، وعاد هذا السجن لايستعمل منذ هذا التاريخ البعيد للأغراض السياسية دون سواها ، بل اصبح يستعمل الآن معتقلا من معتقلات المدن ، شأنه فى ذلك شأن سائر السجون فى باريس . على أن الملك لم يحرك ساكنا كما هو شأنه ، ذلك أنه كان فى رحلة من رحلات الصيد فى اليوم الذى سقط فيه الباستيل ، ظفر فيها بعدد من الايايل ، وكان راضيا مغتبطا اشد الاغتباط .

وشرعت الجمعية آنئذ فى العمل ، وفى الرابع من اغسطس قرر اعضاؤها ــ وصيحات الجماهير الباريسية ترن فى آذانهم ــ الغاء جميع الامتيازات . وتلا ذلك « اعلان حقوق الانسان » فى السابع والعشرين من هذا الشهر ، وكان اعلان هذه الحقوق هو الديباجة المشهورة التى استهل بها الدستور الفرنسى الأول .

وكانت الأمور الى ذلك الحد تسير سيرا حسنا ، على أن البلاط لم يتعظ فيما يظهر بالدرس الذى تلقاه . فقد ساور النفوس شك فى ان الملك كان يحاول التدخل مرة أخرى فى هذه الاصلاحات ، ومن ثم انطلق الشعب ثانية فى باريس فى الخامس من اكتوبر ، وامتد الى فرساى ، ولم تهدأ خواطر الناس الا عندما اعادوا الملك الى قصره فى باريس . ذلك انهم لم يكونوا يامنون جانبه وهو مقيم فى فرساى . ورغبوا أن يكون مقامه حيث يستطيعون السهر عليه ومراقبة مكاتباته مع اقربائه فى بلاط فينا ومدريد وغيرهما من حواضر اوربا .

وفى الوقت نفسه كان **ميرابو** النبيل الذى اصبح زعيما للطبقة الثالثة ، قد اخذ يعبث بالنظام فى الجمعية الوطنية ويحيله الى فوضى . على انه توفى فى الثانى من ابريل سنة ١٧٩١ قبل ان يتمكن من انقاذ موقف الملك . وبدأ الملك يخشى على حياته فحاول الهرب فى ٢١ يونية . ولكن أمره كشف بفضل صورته المضروبة على احدى قطع العملة ، واوقفه رجال من الحرس الوطنى بالقرب من قرية فارن ، واعيد الى باريس .

وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ تمت الموافقة على الدستور الفرنسى الأول ، وعاد اعضاء الجمعية الوطنية الى بيوتهم . واجتمعت الجمعية التشريعية فى اول اكتوبر سنة ١٧٩١ لاتمام العمل الذى قامت به الجمعية الوطنية . وقد ضم هذا الاجتماع الجديد لممثلى الشعب كثيرا من الاشخاص المتطرفين فى الثورة . وكان اجرأ هؤلاء هم المعروفين باليعاقبة نسبة الى الدير اليعقوبى القديم الذى كانوا يعقدون فيه اجتماعاتهم السياسية .

وقد القى هؤلاء الشبان الذين كان ينتسب معظمهم الى طوائف ارباب الحرف خطبا بالغة العنف ، فلما نقلت الصحف هذه الخطب الى برلين وفينا استقر راى ملك بروسيا والامبراطور على انه ينبغى لهما ان يفعلا شيئا لينقذا اخاهما الصالح واختهما الطيبة . وكانا فى هذا الوقت ذاته منهمكين فى تقسيم مملكة بولندا ، حيث كانت الاحزاب السياسية المتنافسة قد احالتها الى درجة من الفوضى جعلتها تحت رحمة اى

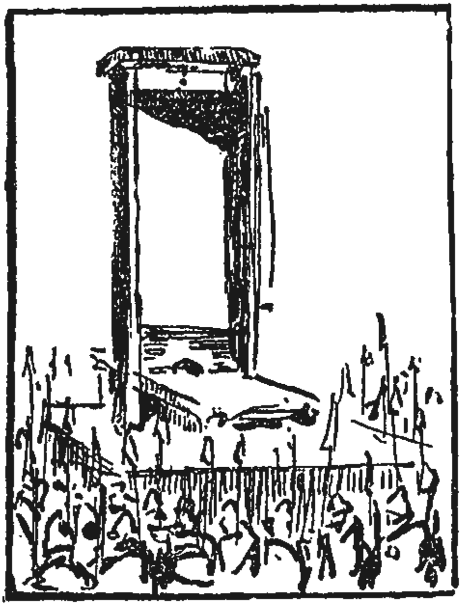
شخص يريد أن يسلخ منها ولاية او ولايتين . على انهما دبرا انفاذ جيش لغزو فرنسا وانقاذ الملك .

وعندئذ اجتاحت فرنسا موجة عارمة من الذعر . وبلغ مرجل الحقد الدفين الذى ولدته تلك السنوات التى قضاها الشعب فى الجوع والآلام حد الانفجار المريع . فاقتحم رعاع باريس قصر التويلرى . وحاول رجال الحرس السويسرى المخلصون الدفاع عن مولاهم ، الا أن لويس عجز عن أن يحزم رأيه ، وأمر الحرس بأن يكف عن اطلاق النار فى الوقت نفسه الذى كانت فيه جموع الدهماء آخذة فى الارتداد . فما كان من هؤلاء السكارى بنشوة الدماء والجلبة والخمر الرخيصة ، الا ان قتلوا الحرس السويسرى حتى آخر رجل ، ثم اقتحموا القصر واقتفوا أثر لويس الذى كان قد احتمى فى قاعة اجتماع الجمعية الوطنية ، ثم أوقفوه عن الحكم على الفور ، ونقلوه من هناك اسيرا الى **قلعة المعبد** القديمة .

على ان جيوش النمسا وبروسيا استمرت فى تقدمها ، واستحال الذعر فى فرنسا الى هوس جعل الرجال والنساء أشبه بالحيوانات المفترسة .

وفى الأسبوع الاول من سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، اقتحمت الغوغاء السجون وقتلت المسجونين جميعا ، ولم تتدخل الحكومة فى ذلك . وادرك اليعاقبة بقودهم **دانتون** أن هذه الأزمة اما ان تؤدى الى نجاح الثوره واما الى اخفاقها ، وانه لانجاة لهم الا اذا ركنوا الى اشد ضروب الجراة الوحشية . وانفضت الجمعية التشريعية فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، واجتمع مؤتمر وطنى جديد ، وكان هذا المؤتمر هيئة جل اعضائها من غلاة الثوريين . واتهم الملك رسميا بالخيانة العظمى ، وسيق الى حضرة المؤتمر ، وقرر المؤتمر ادانته باغلبية قدرها ٣٦٠ صوتا من ٣٦١ وحكم باعدامه . وكان الصوت الوحيد الذى جاء فى صفه هو صوت ابن عمه الدوق **أورليانز** . وفى يوم ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ سيق الى المقصلة ، وتقبل ذلك بسكينة ووقار عظيمين . ولم يدرك قط فيم اطلقت كل هذه الرصاصات ؟ وعلام كل هذه الضجة ؟! لقد كان لويس ارفع من ان يسأل عن سبب ذلك .

ثم انقلب اليعاقبة على المعتدلين من رجال المؤتمر ، الا وهم الجيرونديون ، الذين نسبوا الى ذلك الاقليم الجنوبى الذى خرجوا منه . . . وهو اقليم جيروند . وانشئت محكمة ثورية خاصة قضت باعدام واحد وعشرين اماما من ائمة الجيرونديين ، وانتحر الباقون . وكان هؤلاء رجالا مقتدرين مخلصين كانوا اكثر فلسفة

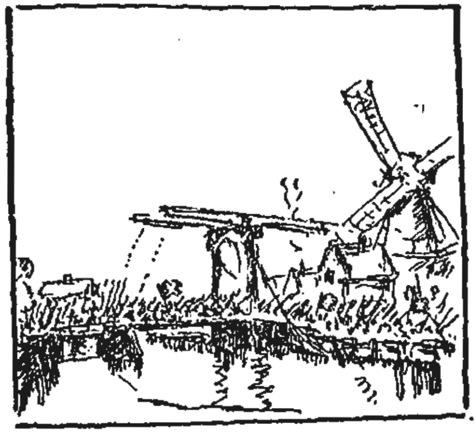


المقصلة

واشد اعتدالا ، من ان يحتفظوا بحياتهم فى هذه السنين الحافلة بالفظائع والشناعات .

وفى اكتوبر سنة ١٧٩٣ اوقف اليعاقبة الدستور « حتى يحل الوقت المناسب لاعلان السلام » . ووضعت مقاليد السلطة جميعا فى يد شرذمة عرفت بلجنة الأمن العام على راسها **دانتون وروبسبيير** . وابطل الدين المسيحى ، والغى التقويم القديم . وحل « عصر العقل » الذى كتب عنه **توماس بين** كتابة غاية فى البلاغة خلال الثورة الأمريكية ، واقترن هذا العصر بالارهاب الذى قتل فى مدى عام او اكثر اناسا من الصالحين والأشرار ، وممن لا ناقة لهم فى الامر ولا جمل بمعدل سبعين أو ثمانين شخصا فى اليوم .

قضى على حكم الملك الاستبدادى ، وحل محله طغيان طائفة قليلة من الناس ، هاموا بفضيلة الديمقراطية هياما حملهم على قتل كل اولئك الذين اختلفوا معهم فى الراى . واستحالت فرنسا الى مجزر تحز فيه الرقاب . وكان كل فرد يشك فى غيره ، فلم يأمن احد على نفسه . وتملك الخوف وحده نفرا من اعضاء المؤتمر القديم ، واحسوا بأنهم سوف يكونون الضحية التالية للمقصلة ، فانتهوا الى الانقلاب على **روبسبيير** ، الذى كان قد اطاح بالفصل برءوس



الثورة الفرنسية تغزو هولنده

معظم زملائه السابقين. وحاول روبسبير «الديمقراطى الحق الاوحد الذى لا تشوب ديمقراطيته شائبة» أن يقتل نفسه ، ولكن سعيه خاب . وضمد فكه المحطم على عجل ، وسيق الى المقصلة . وفى اليوم السابع والعشرين من يوليه سنة ١٧٩٤ – الموافق ٩ ترميدور من السنة الثانية لتقويم الثورة العجيب – انتهى عهد الارهاب ورقصت باريس فرحا .

على ان موقف فرنسا الخطر قد استوجب بقاء مقاليد الحكومة فى يد نفر من الرجال الاقوياء حتى يتيسر اخراج اعداء الثورة الكثيرين من ارض الوطن ... فرنسا ..

وعين خمسة مديرين فى الوقت الذى كانت فيه جيوش الثورة المهلهلة اللباس ، الخاوية البطون ، تخوض مستيئسة معارك الرين وايطاليا وبلجيكا ومصر ، وتهزم كل اعداء الثورة الكبرى واحدا واحدا ، وقد حكموا فرنسا اربع سنوات . ثم وضعت السلطة فى يد قائد ظافر يدعى **نابليون** ، وهو الذى اصبح قنصل فرنسا الاول عام ١٧٩٩ . واصبحت قارة اوربا القديمة فى السنوات الخمس عشرة التالية حقلا لعدة تجارب سياسية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل .

نابليون

ولد **نابليون** عام ١٧٦٩ ، وهو الابن الثالث **لكارلو ماريا بونابرت** من زوجته الصالحة ليتتزيا رامولينو . وكان كارلو كاتب عقود حميد السيرة فى مدينة اجاكسيو بجزيرة قورشقة ، ومن ثم فان بونابرت لم يكن فرنسيا ، بل كان ايطاليا. وكانت قورشقة مسقط رأسه ، مستعمرة يونانية قديمة فى البحر المتوسط ، ثم انتقلت الى ايدى القرطاجنيين ثم الى الرومان ، وظلت سنوات تكافح فى سبيل استعادة استقلالها من الجنويين اول الامر ، ثم من الفرنسيين بعد منتصف القرن الثامن عشر . وكان الفرنسيون قد بذلوا مساعدتهم عن طيب خاطر لاهل قورشقة فى نضالهم من اجل حريتهم ، ثم احتلوا الجزيرة كى يستغلوها لمنفعتهم الخاصة .

وكان **نابليون** الشاب ، خلال السنوات العشرين الاولى من حياته ، وطنيا قورشقيا احترف الوطنية ، وكان اشبه برجال الشين فين ، يريد ان يخلص وطنه المحبوب من نير العدو الفرنسى الذى كان اهل وطنه يمقتونه مقتا شديدا . ولكن الثورة الفرنسية اعترفت على غير انتظار بحقوق القورشقيين . وانساق نابليون رويدا رويدا فى خدمة وطنه الثانى فرنسا ، وكان قد تلقى تعليما عسكريا حسنا فى مدرسة بريين الحربية ، واصبح فرنسيا على الرغم من أنه لم يعرف قط ان يكتب اللغة الفرنسية كتابة صحيحة اوينطقها نطقا فصيحا لا تشوبه تلك اللكنة الايطالية المطوطة ، بل هو قد غدا فى الوقت المناسب خير من يمثل الفضائل الفرنسية جميعا ، وهو يعد اليوم رمز العبقرية « الغالية » .

• وكان نابليون من اولئك الذين يقال لهم ارباب العمل الخاطف ، ذلك ان سيرته المثلى لم تستغرق اكثر من عشرين عاما . ففى هذه الفترة الوجيزة استطاع نابليون ان ياتى من الفعال ما لم يستطعه اضرابه جميعا ، ولا نستثنى من ذلك الاسكندر الاكبر

أو جنكيز خان ... فقد خاض من الحروب أكثر مما خاضوا ، واحرز من الانتصارات اكثر مما احرزوا ، وسار من الاميال أكثر مما ساروا ، وفتح من الاراضي أكثر مما فتحوا ، وقتل من الناس اكثر مما قتلوا ، وهو ـ بصفة عامة ـ قد قلب الاحوال في أوربا قلبا لم يعرف له مثيل .

كان نابليون رجلا قلة ، ولم يكن في السنوات الاولى من حياته في كامل صحته ، وما من مرة قط اثرت طلعته في الناس ، وظل منظره الى آخر ايامه لاتستسيغه العيون اينما اقتضته الظروف الى الظهور في مناسبة من المناسبات الاجتماعية . فلم تكن له ميزة واحدة من ميزات الحسب والثروة ، وكان في الشطر الاكبر من شبابه مملقا ، وما اكثر ماكان يبيت على الطوى ، أو يضطر الى سلوك طرق ملتوية للحصول على بضعة دريهمات . وكان نابليون لايبشر بمستقبل ادبي باهر ، ذلك انه قد تقدم للحصول على جائزة اكاديمية ليون ، فكان ترتيب الموضوع الذي تقدم به قبل الاخير ، اي ان ترتيبه كان الخامس عشر من بين المتبارين الذين بلغ عددهم ستة عشر شخصا .

على أن نابليون تغلب على هذه الصعوبات جميعا بفضل ايمانه المطلق الذي لا يتزعزع بمصيره ومستقبله المجيد . وكان الطموح هو الحافز الاكبر في حياته ، فان تفكيره في ذاته ، وتقديسه لحرف النون الذي كان يمهر به جميع رسائله ، والذي كان يتردد دائما في زينة قصوره التي كان ينشئها على عجل ، وعزمه الاكيد على أن يجعل اسم نابليون أهم شيء في العالم بعد اسم الله ... كل هذه الرغبات حملت نابليون الى غاية من الشهرة لم يبلغها رجل من قبل .

وكان نابليون ـ وهو بعد ملازم في الجيش يتقاضى نصف أجر ـ مولعا بكتاب سير مشاهير الرجال للمؤرخ اليوناني **بلوتارخ** . ولكنه لم يحاول قط أن يرقى بحياته الى ذلك المستوى الخلقي الرفيع الذي رسمه ابطال تلك الايام الغابرة . والظاهر أن نابليون كان مجردا من جميع المشاعر المعقولة المتزنة التي تميز الانسان عن الحيوان . ومن اشق الامور أن نقرر على وجه اليقين : هل اتفق لنابليون أن احب احدا الا نفسه ؟ . . صحيح انه التزم حدود الادب في حديثه مع امه ، ولكن ليتتزيا كانت تتوفر فيها شمائل السيدة العظيمة وخصالها ، وكانت على غرار الامهات الايطاليات تعرف كيف تسوس أطفالها وتفرض عليهم احترامها . وظل نابليون بضع سنوات مغرما بجوزفين زوجته المولدة الجميلة ، وكانت ابنة ضابط فرنسي من المارتنيك ، وأرملة الفيكونت بوهارنيه الذي قتله روبسبير ، لأنه هزم في الوقعة التي نشبت بين الفرنسيين والبروسيين . على ان الامبراطور طلقها لانها لم تعقب له ولدا يرث عرشه ، وتزوج من ابنة امبراطور النمسا ، لانه راى ان ذلك من حسن السياسة .

وقد درس نابليون كتاب مكيافيللي بعناية فائقة في اثناء حصاره لمدينة طولون ، وهو الحصار الذي اكتسب فيه نابليون شهرة كبيرة بوصفه قائد احدى فرق المدفعية . ولقد سار نابليون على هدى هذا السياسي الفلورنسي ، فكان لايفي بعهده قط اذا راى ان المصلحة تقتضيه التحلل منه ، ولم يكن لكلمة عرفان الجميل مكان في قاموسه . ومن الانصاف ان نقول انه لم يكن يتوقعها من غيره . فلم يكن يبالي قط بشقاء الانسان ، فقد قتل أسراه في الحرب « بمصر عام ١٧٩٨ » بعد أن أمنهم على حياتهم ، وكذلك لم يبال بان يترك جنوده الجرحى في سورية نهبا للموت عند ما راى استحالة نقلهم على ظهور السفن .

وامر بالحكم على الدوق **انجين** بالموت على يد محكمة عسكرية متحيزة ، وان يقتل رميا بالرصاص مخالفا في ذلك جميع القوانين ، ومتذرعا بسبب واحد وهو « ان البوربون كانوا في حاجة الى انذار وتحذير » . واصدر حكمه بان يرمى بالرصاص اولئك الضباط الالمان الذين اسروا وهم يقاتلون في سبيل استقلال بلادهم عند اقرب حائط . ولما وقع في يده البطل التيرولي **اندرياس هوفر** ، بعد ان ابلى في القتال اعظم البلاء ، قتله كما يقتل اى خائن من طغام الخونة .

وصفوة القول اننا اذا ما درسنا اخلاق هذا الامبراطور وطباعه ، بدانا نفهم مسلك اولئك الامهات البريطانيات المتلهفات اللائي جرين على سوق أولادهن الى سررهم متوعدات بأن « بونابرت الذي كان يفطر على الصبيان والبنات الصغار سوف ياتي ويخطفهم اذا لم يكن مسلكهم حميدا طيبا » .

اما وقد ذكرت هذه المساوىء الكثيرة عن ذلك الطاغية العجيب الذي كان يعنى اشد العناية بكل ناحية من نواحي جيشه ، اللهم الا الخدمة الطبية فكان يهملها ، والذي كان يتلف ثيابه الرسمية بالعطور ، لانه كان لايطيق رائحة العرق تفوح من جنوده المساكين . . اقول انني مع ذكرى لكل هذه المساوىء ،

واستعدادى الكامل لذكر مساوىء أخرى كثيرة ، فانه لا مناص لى من التسليم بأن شعورا من الشك يتحير فى نفسى ...

وهاندا اجلس الآن الى مائدة مريحة منقلة بالكتب : انظر بعين الى الآلة الكاتبة وبالعين الاخرى الى القطة ليكوريس المولعة باللعب بأوراق الكربون ، واقص عليك ان الامبراطور نابليون كان اهلا لاشد الاحتقار . على انه لو اتفق لى ان أرسلت ببصرى من خلال النافذة ، وهبطت به الى الشارع السابع فرايت ذلك الموكب الذى لاينتهى من سيارات النقل والعربات ، قد توقف فجاة عن المسير ، وطرق سمعى صوت الطبول الضخمة ؛ ورايت ذلك الرجل القلة ممتطيا صهوة جواده الاشهب مرتديا لباسه الرسمى القديم الاخضر الذى كان يؤثره على غيره ... فلست ادرى ماانا فاعل ؟ ! ولكنى اخشى ان اترك كتبى وقطتى ومنزلى وكل شيء آخر لاتبع هذا الرجل حيثما سار .

لقد فعل ذلك جدى ، والله يعلم أنه لم يخلق ليكون بطلا . ولقد فعل ذلك اجداد ملايين غيرى من الناس لم يلقوا جزاء ، ولكنهم كانوا لا ينتظرون الجزاء . كانوا يجودون عن طيب خاطر بأرجلهم واذرعهم وارواحهم فى خدمة هذا الاجنبى الذى انتقل بهم آلاف الاميال بعيدا عن موطنهم ، وسيرهم فى وجه ستار من المدافع الروسية أو الانكليزية أو الاسبانية أو الايطالية أو النمسوية ، واخذ يحملق فى الفضاء فى هدوء وسكون فى حين كانوا يترنحون بين براثن الموت .

ولو انك سالتنى تفسيرا لذلك ، فلا مناص من الاجابة بان ليس فى جعبتى اى تفسير ، وكل ما استطيعه هو أن اخمن سببا من الاسباب . لقد كان نابليون اعظم ممثل ، وكانت قارة اوربا باسرها مسرحا له . كان يعرف فى جميع الاوقات وفى كل الملابسات الوضع الصحيح الذى يؤثر فى النظارة اعظم التاثير ، كما كان يعرف الكلمات التى تؤثر فى النفوس أشد الاثر ، فكان يستوى عنده ان يتحدث فى صحراء مصر فى ظل الجلال المنبعث من الاهرام وابى الهول العظيم ، او يخاطب جنوده المقرورين فى سهول ايطاليا المبللة بالندى . ذلك انه كان يملك ناصية الموقف فى كل الظروف ، بل كان قطب المسرح حتى فى آخر ايامه عند ما كان منفيا فى تلك الصخرة الصغيرة بجزيرة سانت هيلانه وسط المحيط الأطلسى ، عليلا يعيش تحت رحمة حاكم بريطانى بليد الحس لا تاخذه هوادة ولا سماحة .

لم ير احد قط الامبراطور العظيم بعد وقعة واترلو الا نفر من اصدقائه المخلصين . كان اهل اوربا قد عرفوا ان نابليون يعيش فى جزيرة سانت هيلانه ، وان الحامية الانكليزية تقوم على حراسته ليل نهار . وكانوا يعلمون ايضا ان الاسطول الانكليزى يحمى هذه الحامية التى تحرس الامبراطور فى مزرعة بلنجوود . على انه لم يغب قط عن أذهان أعدائه واصدقائه على السواء ، فلما هده المرض واليأس آخر الامر كانت عيناه الساكنتان دائبتين على التحويم فى العالم ، بل لايزال له الآن شأن فى حياة فرنسا كما كان منذ مائة سنة مضت حينما كان الناس يرتعدون هلعا بمجرد أن تقع أعينهم على وجه هذا الرجل الشاحب الذى جعل اقدس معابد الكرملين فى الروسيا حظيرة لجياده ، والذى كان يعامل البابا والملوك الصيد معاملة السيد لخدامه .

ويقتضى مجرد الالمام بحياته مجلدين . ولو أردت ان أذكر لك قصة اصلاحه السياسى العظيم للحكومة الفرنسية والقوانين الجديدة التى استنها والتى سارت عليها معظم الدول الاوربية ، وعن نشاطه فى مختلف ميادين الخدمة العامة ... لتطلب ذلك عدة آلاف من الصفحات . ولكنى استطيع ان افسر لك فى كلمات قليلة لم كان نابليون ناجحا كل هذا النجاح خلال القسم الاول من سيرته ، ولماذا منى بالفشل فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ؟ .

كان نابليون فى السنوات مابين ١٧٨٩ و ١٨٠٤ ، قائد الثورة الفرنسية العظيم ، فلم يكن فى حروبه يسعى الى مجده الخاص فحسب ، فقد هزم النمسا وايطاليا وانكلترا والروسيا لانه كان وجنوده رسل المقيدة الجديدة ، وهى الحرية والاخاء والمساواة ، وكانوا فى الوقت ذاته أعداء الملوك الآخرين وأصدقاء الشعب .

على ان نابليون أقام نفسه عام ١٨٠٤ امبراطورا على فرنسا ، وجعل العرش وراثيا فى بيته ، وطلب من البابا بيوس السابع الحضور لتتويجه ، كما حدث ان توج البابا ليو الثالث فى عام ٨٠٠ ملكا عظيما هو شارلمان آخر ملوك الفرنجة الذى كان المثل الذى يحتذيه نابليون دائما فى كل فعاله . وما ان اعتلى نابليون العرش حتى اصبح هذا الزعيم القديم من زعماء الثورة يقلد ملوك آل هابسبورج تقليدا لم يصب فيه نجاحا ، ونسى نادى اليعاقبة السياسى الذى كان مصدر وحيه والهامه . فلم يعد حامى المظلومين ، بل أصبح زعيم الظالمين كافة ، واحتفظ بفرقة من الرماة متاهبة لقتل كل من يجسر على معارضة ارادته الامبراطورية .

لم يذرف احد دمعة واحدة عام ١٨٠٦ عندما غابت

بقية اطلال الامبراطوية الرومانية المقدسة التي جللها الأسى في ثنايا التاريخ ، وعندما قضى حفيد فلاح ايطالي على ما بقي من المجد الروماني القديم . ولكن عندما اغارت جيوش نابليون على اسبانيا ، واجبرت اهلها على الاعتراف بملك يمقتونه، وذبحت اهل مدريد المساكين الذين ظلوا على ولائهم لحكامهم السابقين — عندئذ انقلب الراي العام على بطل موقعتي **مارنجو وأوسترلتز** ومئات غيرها من وقائع الثورة . وفي هذا الوقت بعينه لم يصبح نابليون بطل الثورة الفرنسية ، بل اصبحت تتمثل فيه مساوىء العهد القديم .

اقول في هذا الوقت بعينه استطاعت انكلترا ان توجه شعور الكراهية لنابليون الذي كان يتفشى بين الناس بسرعة آنئذ ، والذي جعل جميع المخلصين ينقلبون اعداء لامبراطور فرنسا .

وكان اهل انكلترا يشعرون من اول الامر باشمئزاز شديد عندما يقراون في صحفهم تفاصيل عهد الارهاب في فرنسا البشعة . صحيح انهم قاموا بثورتهم الكبرى قبل ذلك بقرن (في عهد الملك شارل الاول) ، ولكن هذه الثورة لا تقاس بحال بفورة اهل باريس . لقد كان اليعقوبي في نظر الانكليزي العادي وحشا على المرء ان يرميه بالرصاص بمجرد رؤيته . اما نابليون فكان في نظره امام الشياطين . لقد حاصر الاسطول البريطاني فرنسا منذ عام ١٧٩٨ ، فافسد على نابليون خطته لغزو الهند عن طريق مصر، واضطره الى ذلك الارتداد المخزي بعد تلك الانتصارات التي احرزها على ضفاف النيل . واخيرا واتت انكلترا عام ١٨٠٥ الفرصة الملائمة التي كانت تنتظرها منذ امد بعيد .

لقد قضى **نلسون** بالقرب من راس **ترافلجار** عند الشاطىء الجنوبي الغربي لاسبانيا على اسطول نابليون قضاء مبرما . ومن ذلك الوقت اصبح نابليون في حصار بحري . وكان من المتيسر له مع ذلك ان يظل السيد المعترف به للقارة الاوربية لو انه اتعظ ببوادر تلك الايام وقبل الصلح المشرف الذي عرضته عليه الدول الاخرى . ولكن نابليون اعماه بريق مجده ، فقد كان يحسب ان ليس له ضريب ، ولم يكن ليطيق وجود منافس له .. فتحول بغضه الى الروسيا ، تلك البلاد المحجبة بالاسرار ، ذات السهول المترامية الأطراف والمعين الذي لا ينضب من المقاتلة .

وكان نابليون هو المسيطر على الموقف طيلة العهد الذي كانت فيه روسيا تحت حكم بولس الاول ابن كترين المعتوه . ولكن لوثة بولس ازدادت مع الايام شدة ، حتى اضطر رعاياه الساخطون الى قتله خشية ان يبعث بهم جميعا الى مناجم الرصاص في سيبيريا .

وكان الاسكندر بن بولس يخالف اباه، فلم يكن هواه مع ذلك الغاصب ، بل كان يعده عدوا للانسانية والمعكر الدائم لصفو السلام .

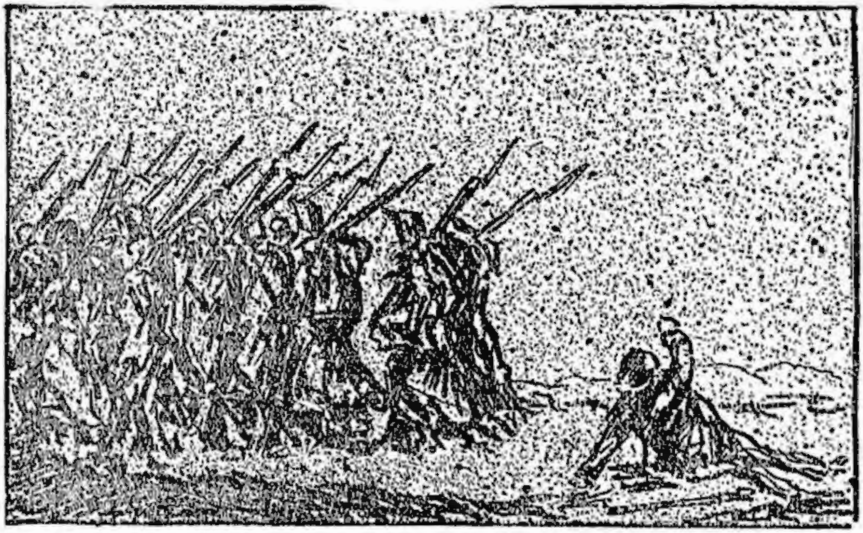
لقد كان الاسكندر رجلا تقيا اعتقد ان العناية الالهية قد اختارته لتخليص العالم من تلك اللعنة الكورسيقية التي حلت به ، فانضم الى بروسيا والنمسا وانكلترا ، في حربها مع نابليون، ولكنه هزم، وحاول خمس مرات الانتصار عليه ، ولكنه باء بالخيبة .

وتحدى الاسكندر نابليون مرة اخرى عام ١٨١٢ ، فما كان من الامبراطور الفرنسي الا ان اقسم في ثورة من ثورات غضبه بان يملي عليه شروط الصلح في موسكو . فدفع كتائبه العازفة عن القتال ، والآتية من قاصي اوربا ودانيها : من اسبانيا والمانيا وهولندا وايطاليا والبرتغال ، الى الشمال ارضاء لكبريائه التي جرحت . اما ما حدث بعد ذلك فمعروف مشهور ، ذلك ان نابليون بلغ العاصمة الروسية بعد مسيرة شهرين ، وجعل من الكرملين المقدس مقرا لقيادته .

وفي ليل ١٥ سبتمبر سنة ١٨١٢ اشتعلت النار في موسكو ، وظلت المدينة تحترق اربعة ايام . وفي مساء اليوم الخامس اصدر نابليون امره بالانسحاب . وبدأ الثلج يتساقط بعد ذلك باسبوعين ، واخذ جنده يغوصون في الاوحال والثلوج الى ان بلغوا نهر برزينا في السادس والعشرين من نوفمبر . ثم بدأت هجمات الروس تبلغ عنفوانها ، اذ اخذ القوزاق يضيقون الخناق على هذا الجيش العظيم الذي اصبح قطيعا من الرعاع لا جيشا جديرا بهذا الاسم . وفي منتصف شهر ديسمبر اخذت طلائع من بقي حيا من رجال هذا الجيش تظهر في مدن المانيا الشرقية .

وترامت عند ذلك عدة شائعات بأن الثورة باتت قريبة ، فقد قال اهل اوربا : « ان الوقت قد حان لتحرير انفسنا من هذا النير الذي انقض ظهرنا » . فاخذوا يجمعون البنادق القديمة التي غفلت عنها عيون الجواسيس الفرنسيين الذين كانوا مندسين في كل مكان .

على ان نابليون عاد الى فرنسا بجيش جديد قبل أن يعرفوا ما وقع ، فقد ترك جنده المهزومين ، وهرع الى باريس مباشرة في زحافته ، ووجه الى الفرنسيين دعوته الاخيرة يستفزهم فيها الى امداده بعدد اكبر من الجنود حتى يستطيع ان يحمي ارض فرنسا المقدسة من الغزو الأجنبي . فتبعه شبان احداث في سن السادسة عشرة



الارتداد من موسكو

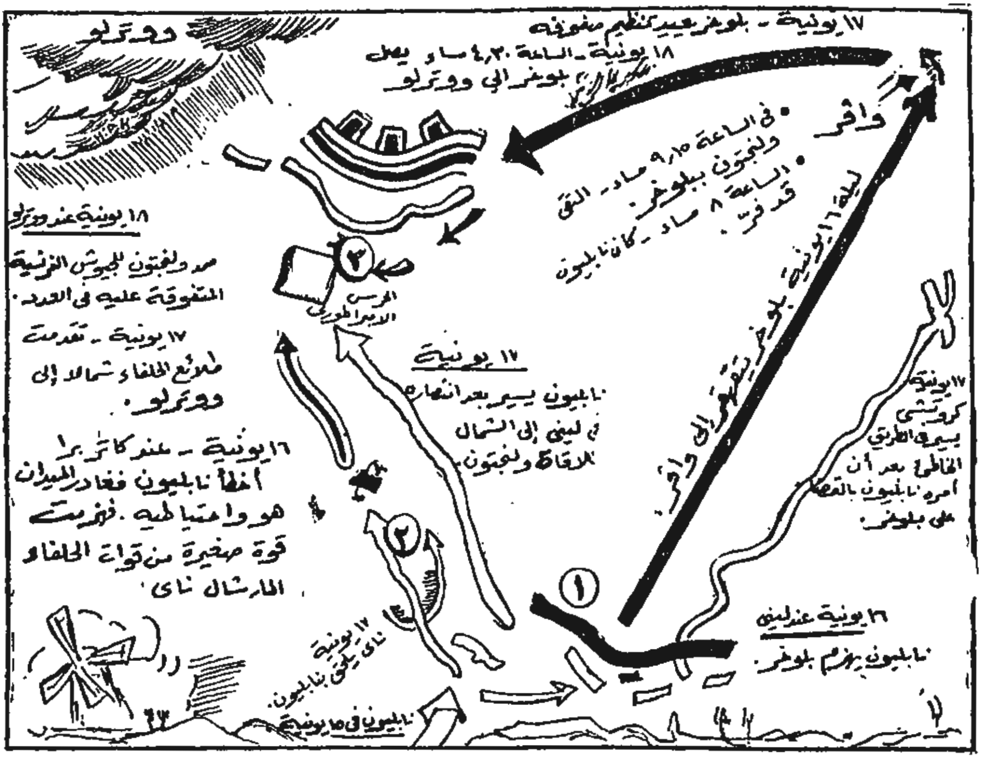
والسابعة عشرة ، وذلك عندما تحرك شرقا لملاقاة الجيوش المتحالفة . وقد حدثت موقعة ليبسك الهائلة فى أيام ١٦ و ١٨ و ١٩ من اكتوبر سنة ١٨١٣، وظل الفريقان ، فريق الزرق وفريق الخضر ، يقتتلان ثلاثة أيام حتى تخضبت مياه نهر الستر بالدماء . وفى عصر يوم ١٧ أكتوبر اخترقت الجموع الحاشدة من مشاة الروس صفوف الفرنسيين . . ففرنابليون .

وعاد نابليون أدراجه الى باريس ، وتنازل عن العرش لولده الصغير ، ولكن القوات المتحالفة اصرت على أن يعتلى العرش الفرنسى لويس الثامن عشر ، اخو لويس السادس عشر . وقد دخل هذا الأمير البربونى البليد النظرات مدينة باريس ، دخول الظافر المنتصر يحيط به القوزاق والاوهلان .

اما نابليون فقد جعله الحلفاء الحاكم المطلق لجزيرة **البا** الصغيرة فى البحر المتوسط ، حيث نظم سياسه فجعلهم جيشا صغيرا ، واخذ يقاتل على رقعة الشطرنج . وما ان غادر نابليون فرنسا حتى بدا الناس يدركون اى رجل اضاعوا ، فان السنوات العشرين الأخيرة ، وان كانت قد كلفتهم غاليا ، الا انها كانت سنوات مجد عظيم، اذ غدت فيها باريس عاصمة العالم . اما الملك البوربونى المترهل الذى لم يتعلم شيئا ، ولم ينس شيئا طوال أيام منفاه ، فقد اغضب الجميع بكسله وخموله .

وفى أول مارس من عام ١٨١٥ ، عندما كان ممثلو الحلفاء يتأهبون لتعديل خريطة اوربا ، نزل نابليون فجاة بالقرب من مدينة **كان** . وفى اقل من أسبوع تخلى رجال الجيش الفرنسى عن آل بوربون ، واندفعوا نحو الجنوب ليضعوا سيوفهم وحرابهم تحت امرة ذلك الجاويش القمىء ، وسار نابليون راسا الى باريس فبلغها فى العشرين من مارس . وكان فى هذه المرة اكثر حذرا ، فلقد عرض الصلح على الحلفاء ، ولكنهم اصروا على القتال ، فقد كانت اوربا باسرها فى وجه هذا القورشيقى الغدار . وسرعان ما سار الامبراطور شمالا ليستطيع سحق اعدائه ، قبل ان يتمكنوا من توحيد جيوشهم . ولكن نابليون لم يكن كسابق عهده، فقد كان يشعر بالمرض يدب فى أوصاله، وكان يحل به التعب سريعا، وكان ينام فى الوقت الذى كان ينبغى عليه فيه أن يكون مستيقظا يوجه هجوم طلائعه . زد على ذلك أنه كان قد فقد كثيرا من قواده القدماء المخلصين ، وقد عدا عليهم الموت .

ودخلت جيوشه بلاد البلجيك فى بواكير شهر يونيه . وفى السادس عشر من هذا الشهر أوقع الهزيمة بالجيش البروسى تحت قيادة **بلوخر** . ولكن احد قواده لم ينجح فى القضاء على جيوش بروسيا المرتدة ، كما أمره بذلك نابليون . وبعد ذلك بيومين تلاقى نابليون مع القائد الانكليزى **ولنجتن** بالقرب من **واترلو** ، وكان ذلك فى يوم الاحد الموافق ١٨ يونيه . وفى الساعة الثانية مساء كان يلوح أن الفرنسيين قد



وقعة واترلو

كسبوا المعركة ، وفى الساعة الثالثة لاح لنابليون غبار فى الأفق الشرقى ، وفى الرابعة زادت معرفته بحقيقة هذا الغبار ، ذلك أن بلوخر كان يدفع جنوده المنهوكين الى قلب المعمعة وهو ينذر ويتوعد . وقد بددت هذه الصدمة شمل صفوف الحراس ، ولم يكن عند نابليون احتياطى آخر ، وامر جنوده بان يستنقذوا انفسهم ما وسعهم ... وركن هو الى الفرار .

وتنازل نابليون مرة أخرى عن العرش لولده ، وكان يمم شطر الساحل ، ولما ينقض على فراره من جزيرة البا مائة يوم ، وعول على الذهاب الى امريكا . وكان نابليون قد باع عام ١٨٠٣ مستعمرة **لويزيانا** الفرنسية التى كانت مهددة بخطر عظيم من جانب الانكليز ، الى الجمهورية الامريكية الفتية بأتفه الأثمان ، متعللا بأن « الامريكيين سيعرفون لى هذه اليد ويمنحوننى قطعة من الارض وبيتا أقضى فيه آخر ايام حياتى فى أمن وسلام » . ولكن الاسطول الانكليزى كان يرقب جميع الثغور الفرنسية ، فوقع نابليون بين جيوش الدول المتحالفة وبين الاسطول الانكليزى . وكان البروسيون قد صح عزمهم على رميه بالرصاص ، اما الانكليز فلعلهم كانوا أكثر سماحة . وظل نابليون ينتظر عند **روشفور** ، معللا النفس بوقوع شىء يغير مجرى الحوادث . وما ان مر شهر على وقعة واترلو حتى تلقى نابليون من الحكومة الفرنسية الجديدة امرا بمغادرة فرنسا فى مدى أربع وعشرين ساعة . وكان نابليون يؤثر دائما الحركات المسرحية ، فكتب الى الوصى على عرش انكلترا (لان الملك جورج الثالث كان فى احد مستشفيات الامراض العقلية) خطابا ينبىء فيه سموه بانه قد عزم على أن يضع نفسه تحت رحمة أعدائه ، وانه يطمح مثل **تموستكليس** فى أن يجد فى رحاب أعدائه مقاما كريما .

وفى ١٥ يوليه انتقل نابليون الى انكلترا على ظهر السفينة **بلرفون** والقى سلاحه للأميرال **هوثام** . وكان من أمره بعد ذلك أن نقل على ظهر السفينة

نورلمبرلاند ، من ميناء بليموث ، الى جزيرة سانت هيلانه ، وهناك امضى السنوات الست الأخيرة من حياته .



نابليون يذهب الى المنفى

وحاول نابليون أن يكتب مذكراته ، وتشاجر هناك مع حراسه ، وكان يحلم بايام مجده الغابر . ومن عجب انه عاد فى الخيال على الاقل الى مطلع سعده ، فقد تذكر الايام التى كان يقود فيها معارك الثورة . وحاول ان يقنع نفسه أنه كان على الدوام نصيرا مخلصا للمبادىء العظمى : الحرية والاخاء والمساواة ، وهى المبادىء التى حملها جنود المؤتمر الوطنى المشعثون الى اطراف الارض . وكان يميل دائما أبدا الى التحدث عن سيرته ايام ان كان قائدا اعلى وقنصلا ، وقلما كان يتحدث عن الامبراطورية . وكان يفكر احيانا فى ولده دوق **ريخشتات** النسر الصغير الذى كان يعيش فى فينا حيث كان ابناء عمومته من آل هابسبورج يعاملونه معاملة الغريب المسكين ، وهم الذين كان آباؤهم يرتعدون فرقا بمجرد ذكر اسم نابليون ، وكان يقود جنوده الى النصر عندما وافته منيته ، حتى لقد امر القائد **ناى** ان يهجم على راس جنود الحرس ، ثم رقد رقدته الاخيرة .

على انك اذا شئت تفسيرا لهذه السيرة العجيبة ، او اردت حقا ان تعرف كيف تيسر لرجل واحد ان يحكم مثل هذا العدد الكبير من الشعوب تلك السنين الطوال بفضل قوة ارادته وحدها ، فخل عنك الكتب التى تحدثت عنه ، لان المؤلفين الذين كتبوا عنه كانوا فريقين : فريق يكره هذا الامبراطور وفريق يحبه . صحيح انك سوف تعرف من هذه الكتب كثيرا من الحقائق ، ولكن ثمة شيئا اجل من ذلك هو ان تحس التاريخ اكثر من ان تعرفه . فانصرف عن القراءة ، وانتظر الى ان تواتيك الفرصة لسماع فنان بارع يغنى اغنية « الجنديان » من حملة البنادق . وقد نظم هذه الاغنية الشاعر الالمانى العظيم **هاينى** الذى عاش فى وقت نابليون ، اما موسيقاها فمن لحن **شومان** ، وهو الموسيقى الالمانى الذى شاهد نابليون عدو بلاده عند ما كان يحضر لزيارة حميه امبراطور النمسا . فالاغنية اذن اثر من آثار رجلين توفرت لهما كل الاسباب لكراهية هذا الطاغية . هلم واسمع هذه الاغنية ، وعند ذلك ترى انها افصح بيانا من آلاف من المجلدات .

الحلف المقدس

ما ان ارسل نابليون الى جزيرة سانت هيلانه حتى عمد الحكام الذين انزل بهم هذا القورشقى المقوت الهزائم مرارا وتكرارا الى الاجتماع فى فينا ، وحاولوا ان يقضوا على التغييرات الكبيرة التى احدثتها الثورة الفرنسية

استأنف اصحاب الجلالة الاباطرة والملوك واصحاب الفخامة الدوقات والوزراء المفوضون هم واصحاب السعادة كتاب سرهم وخدامهم ومن يلوذون بهم — استأنف كل هؤلاء ما انقطع من اعمالهم التى كانت قد توقفت توقفا عجيبا بعودة ذلك القورشقى المخيف الذى يموت الآن كمدا فى جزيرة سانت هيلانه . واحتفل بالنصر بما هو اهله من ولائم واسمار فى الحدائق ، ومراقص دارت فيها تلك الرقصة الجديدة المثيرة المعروفة **بالفالس** التى استفضح فيها اولئك السيدات والرجال الذين عادوا بذاكرتهم الى تلك الرقصة المحتشمة « المينويت » التى كانت شائعة فى العهد القديم .

لقد عاش هؤلاء فى عزلة قرابة جيل ، ثم زال الخطر اخيرا ، فاخذوا يطنبون اطنابا بالتحدث عن ذلك الذى كان السبب فيما ابتلوا به من شدائد واهوال ، وكانوا ينتظرون مايعوضهم عن كل ماضاعوه من مال على يد اولئك اليعاقبة العتاة ، الذين اصروا على قتل مليكهم المبارك ، والغاء الشعور المستعارة ، والاستعاضة عن السراويل القصيرة التى ترتديها الحاشية بفرساى بتلك السراويل المهلهلة التى يرتديها الرعاع فى باريس .

وقد تظن ان من السخافة ان اذكر لك مثل

هذه التفاصيل ، ولكنى استميحك العذر فأقول ان مؤتمر فينا كان سلسلة طويلة من مثل هذه السخافات ، فقد قضى أعضاؤه عدة أشهر يعنون بالموازنة بين السراويل القصيرة والسراويل الطويلة أكثر من عنايتهم بتقرير مستقبل سكسونيا أو ايجاد حل للمسائل الاسبانية .

ولقد بلغ من أمر ملك بروسيا ، ان طلب سروالا قصيرا حتى يكون شاهدا امام الناس على ازدرائه بكل أثر من آثار الثورة . واراد عاهل آخر الا يدانيه احد فى مقته المظيم للثورة ، فأصدر مرسوما يقضى بأن جميع الضرائب التى أداها رعاياه للغاصب الفرنسى ، يجب ان تؤدى ثانية للحاكم الشرعى الذى احب رعاياه وهو بعيد عنهم أيام كانوا تحت رحمة هذا الغول القورشقى ! .. وهكذا تخبط هؤلاء القوم من خطأ الى خطأ حتى ان المرء ليفغر فاه دهشة متسائلا « ولكن بحق السماء لم لم يحتج الشعب على ذلك ؟ » ونحن نتساءل ايضا : لماذا لم يعترضوا حقا ؟ ذلك ان الناس كانوا قد هدهم التعب ، وتملكهم اليأس ، فكانوا لا يأبهون بما يقع ، ولا يعنون بكيفية وقوعه أو مكان حدوثه ،ولا يحفلون بمن يحكمهم مادام السلام يظلهم بجناحيه . كانوا قد ضاقوا بالحرب والثورة والاصلاح .

لقد رقص الجميع فى العقد الثامن من القرن الماضى حول شجرة الحرية ، وعانق الامراء طهاتهم ، ورقص الدوقات رقصة « الكرمنيول » مع خدامهم ، لانهم اعتقدوا مخلصين بأن العصر الزاهر للمساواة والاخاء قد بزغت شمسه على هذا العالم الشرير . ولكنهم لم يجدوا شيئا من ذلك ، بل وجدوا ان مبعوث الثورة كان يزورهم ويسكن شرذمة منجنده القذرين فى حجر جلوسهم ، ويسرق اطباق الاسرة عند عودته الى باريس ، ليرفع تقريره الى الحكومة عن الحماسة التى قابلت بها البلاد المتحررة الدستور ، ذلك الدستور الذى قدمته فرنسا الى جيرانها الطيبين .

ولما بلغهم كيف أن ضابطا صغيرا يدعى بونابرت قضى على آخر اضطرابات الثورة فى باريس ، وانه صوب مدافعه نحو الدهماء ... تنفسوا الصعداء . وكان القوم فيما يظهر فى مسيس الحاجة الى قدر من الحرية والاخاء والمساواة اقل مما منحوا ، على ان الضابط الشاب بونابرت أصبح بعد قليل احد القناصل الثلاثة للجمهورية الفرنسية ، ثم تفرد بالقنصلية ، ثم أصبح امبراطورا . وكان نابليون أقدر من جميع الحكام الذين سبقوه ، ومن ثم كان شديد الوطأة على رعاياه الضعفاء ، فلم تأخذه بهم اية رحمة . وقد دفع بأبنائهم الى زمرة جيوشه ، وزوج بناتهم من قواده ، واستولى على صورهم وتماثيلهم ليزين بها متاحفه الخاصة ، واحال اوربا باجمعها الى معسكر ، وقتل مايقرب من جيل بأكمله من الرجال .

والآن ، وقد ولى نابليون ، فلم يكن للناس — مع استثناء طبقة قليلة من أهل الحرب المحترفين — الا رغبة واحدة . فقد كانوا يحبون أن يتركوا وشأنهم . لقد سمح لهم مدة من الزمن بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وان ينتخبوا عمدهم وولاتهم وقضاتهم ، ولكن هذا النظام اخفق اخفاقا فظيعا ، ذلك ان الحكام الجدد كانوا قليلى الخبرة مشتطين ، فدفعهم اليأس دون سواه الى الارتداد بأبصارهم الى ممثلى النظام القديم قائلين « فلتحكمونا كما كنتم من قبل ، وانبئونا بما يجب أن نؤديه لكم من ضرائب ، واتركونا وشأننا فنحن مشغولون باصلاح ماخربه عهد الحرية » .

ولا شك فى ان أولئك الرجال الذين اعدوا المسرح لمؤتمر فينا المشهور قد بذلوا ما فى وسعهم لاشباع رغبة هؤلاء فى الراحة والطمأنينة . ولقد جعل الحلف



الشبح الذى روع الحلف المقدس

المقدس ، الذى كان ابرز آثار هذا المؤتمر ، الشرطةاهم اعيان الدولة ، ورتبوا اشد العقوبات هولا لاولئك الذين يجسرون على انتقاد اى عمل تقوم به الدولة . لقد ساد اوربا السلام ، ولكنه كان سلام القبور !

كان ابرز رجال مؤتمر ڤينا ثلاثة ، هم : **اسكندر** امبراطور روسيا ، **ومترنيخ** الذى كان يدافع عن مصالح الفرع النمسوى من آل هبسبورج ، ثم **تاليران** ، وقد كان استقفا لاوتون فترة من من الزمن ، وهو الرجل الذى حاول ان يعيش وسط التغيرات المختلفة التى طرات على الحكومة الفرنسية غير معتمد على شىء ، الا على قوة دهائه وذكائه ، وكان فى ذلك الوقت قد رحل الى العاصمة النمسوية لكى يستخلص لبلاده مايمكن استخلاصه من الانقاض التى خلفها نابليون . وكان شانه شان الشاب المرح فى قصة من قصص المجون والهذر ، لايعرف قط متى ينتهى دوره ، ذلك أن هذا الضيف الطفيلى اقبل على هذه الجماعة ، واخذ ياكل بشهية كانه واحد من المدعوين حقا .

والحق انه لم يمض عليه فى ذلك وقت طويل حتى جلس على راس المائدة ، واخذ يروح عن المدعوين جميعا بحكاياته المسلية ، واستولى على قلوبهم بساحر اسلوبه . وقد علم تاليران قبل رحيله الى ڤينا باربع وعشرين ساعة ، ان الحلفاء منقسمون الى معسكرين متعادين : الاول مكون من الروسيا التى كانت تريد الاستيلاء على بولندا ، وبروسيا التى كانت ترغب فى ضم سكسونيا . والثانى مكون من النمسا وانكلترا اللتين كانتا تسعيان الى الحيلولة دون ذلك ، لانه لم يكن يتفق مع مصالحهما ان تسود القارة الاوربية الروسيا او بروسيا . وقد عمد تاليران الى تاليب كل فريق على الآخر بمهارة فائقة ، وكان من نتيجة مجهوداته أن انقذ الشعب الفرنسى خلال السنوات العشر التالية من الجور والاستبداد الذى خيم على اوربا على يد عمال اباطرتها . فقد دفع تاليران امام المؤتمر بأن الشعب الفرنسى لم يكن له الخيار فيما حدث ، فقد ارغمه نابليون على العمل بمقتضى ارادته ، ثم واصل حجته قائلا انه مادام نابليون قد ذهب ، وجلس على عرش فرنسا لويس الثامن عشر « فلتمنحوا الشعب الفرنسى فرصة » . وقد ابتهج الحلفاء لرؤيتهم الملك الشرعى يجلس على عرش دولة ثائرة ، فأجابوا سؤال تاليران عن طيب خاطر ، واعطوا للبوربون الفرصة ، فاستغلوها استغلالا اودى بهم بعد خمسة عشر عاما .

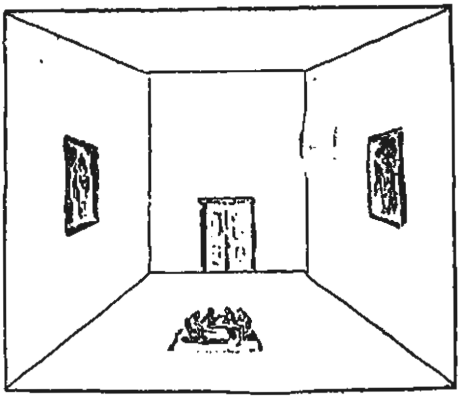
وكان ثانى الثلاثة الذين ائتمروا فى ڤينا ، هو مترنيخ رئيس وزراء النمسا ، ومدير سياسة آل هابسبورج الخارجية . كان **فنتزل لوثر امير مترنيخ ڤينبرغ** رجلا تطابق صفاته مايوحى به اسمه تمام المطابقة . وكان من اهل الفضل واسع الثراء ، انيقا غاية الاناقة ، حلو الشمائل عظيم الاختبار ، ولكنه كان ربيب مجتمع يعيش بعيدا كل البعد عن جماعات الشعب التى تتكسب بعرق الجبين ، وتكد وتكدح وتستعبد فى المدن والمزارع . كان مترنيخ شابا يدرس بجامعة ستراسبورج عندما شبت الثورة الفرنسية ، وكانت ستراسبورج — وهى المدينة التى انبعث منها نشيد المارسلييز — مركز نشاط اليعاقبة . ولقد تذكر مترنيخ ان حياته الاجتماعية البهيجة قد انقطعت بصورة محزنة ، وأن طائفة من المواطنين غير الاكفاء قد اسندت اليهم فجاة مهام لا يصلحون لها ، وان الرعاع قد احتفلوا بمولد الحرية الجديدة بقتل اناس لاشك فى براءتهم . ولم يستطع أن يلمس حماسة الجماهير المنبعثة من قلوبهم ، وشعاع الامل يلمع فى عيون النساء والاطفال الذين حملوا الخبز والماء الى جند المؤتمر الشعث الغبر ، وهم يسيرون فى شوارع المدينة فى طريقهم الى جبهة القتال ليستشهدوا فى سبيل امهم فرنسا .

لقد ملات كل هذه الاشياء قلب الشاب النمسوى بالاشمئزاز والازدراء ، فقد كانت فى نظره لاتمت الى الحضارة بسبب . واذا كان لا مناص من الحرب فان ذلك يتم على يد شباب يندفعون الى المروج الخضر فى حلل انيقة ، ويصولون فيها ويجولون على صهوة جياد مطهمة . اما ان تنقلب البلاد باسرها الى معسكر حربى كريه الرائحة ، حيث يرقى الافاقون الى مناصب القواد بين يوم وليلة ... فشر وحماقة . ولعل مترنيخ كان يقول لساسة الفرنسيين عندما يجتمع بهم فى مادبة عشاء من المآدب الهادئة البسيطة التى كان يقيمها غراندوق من الغراندوقات الذين يخطئهم الحصر « انظروا ما الذى آلت اليه افكاركم الجميلة ، لقد اردتم الحرية والاخاء والمساواة فرميتم بنابليون ، لقد كان اجدى عليكم كثيرا ان تقنعوا بالنظام القائم للأمور » ، ثم يفسر لهم نظامه فى الاستقرار ، فيدعو الى ما الف الاوربيون فى تلك الايام الخالية الطيبة التى سبقت الحرب ، حين كان كل فرد يشعر بانه سعيد ، ولم يكن ثمة احد يعرف بتلك « المساواة فى الخير بين جميع الافراد » .

ولا شك ان مترنيخ كان مخلصا تمام الاخلاص

فى رايه هذا . وكان بفضل كفايته وارادته الفولاذية وقدرته الخارقة على الاقناع ، من اخطر اعداء الآراء الثورية . ولم تخترمه المنية الا عام ١٨٥٩ ، فقد امتد اجله حتى رأى بعينيه انهيار خططه السياسية جميعا عندما قضت عليها ثورة عام ١٨٤٨ القضاء المبرم ، والفى نفسه ابغض رجل فى اوربا ، وكثيرا ماتعرض لخطر الموت على يد الجماهير الغاضبة من المواطنين الثائرين

على أن مترنيخ ظل الى نهاية امره مؤمنا ايمانا راسخا بانه قد سلك السبيل القويم . لقد كان دائما ابدا مقتنعا بأن الناس يؤثرون السلام على الحرية ، ومن ثم حاول ان يمنحهم ماهو خير لهم . ويقتضينا واجب الانصاف أن نقول ان جهوده التى بذلها فى سبيل توطيد السلام العالمى نجحت نجاحا لابأس به ، ذلك ان الدول الكبرى ظلت قرابة اربعين عاما لا يأخذ بعضها بخناق بعض ، واستمر هذا شأنها الى ان قامت حرب القريم عام ١٨٥٤ بين الروسيا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وتركيا ، وهو امر قل فى تاريخ قارة اوربا .



مؤتمر فينا على حقيقته

اما ثالث الثلاثة فى هذا المؤتمر المسرحى ، فكان **الامبراطور اسكندر** . فقد شب الاسكندر فى بلاط جدته العظيمة الطائرة الصيت كاترين ، وتشبع بدروس تلك المرأة المسنة الاريبة التى لقنته ان ينظر الى مجد روسيا نظرته الى اهم شىء فى الحياة ، كما تشرب بما لقنه اياه مؤدبه السويسرى الخاص الذى كان من المعجبين بآراء فولتير وروسو ، والذى ملأ قلبه بحب الانسانية جمعاء . فشب الاسكندر وقد اجتمعت فيه خلتان عجيبتان : خلة الطاغية الانانى ، والثائر الجياش العاطفة . وقد حلت به اهانات بالغة فى حياة ابيه المعتوه بطرس الاول ، واجبره على ان يشهد المذابح الكبرى التى كانت تدور فى ساحات المعارك التى خاضها نابليون . ثم انقلبت آلامه ، واحرزت جيوشه النصر للحلفاء ، واصبحت روسيا منقذة اوربا ، وهلل الناس لقيصر هذا الشعب القوى حتى لكأنه اله سوف يبرأ العالم على يديه من آفاته الكثيرة .

على أن الاسكندر لم يؤت حظا كبيرا من المهارة والفطنة ، فهو لم يكن بصيرا بالرجال والنساء بصر كل من تاليران ومترنيخ بهم ، ولم يكن يفهم فنون الدبلوماسية العجيبة . كان رجلا مغرورا لايتمشى مع الظروف ، يستهويه مديح الجماهير ، ومن ثم سرعان ما اصبح الشخصية الجذابة فى المؤتمر ... على حين جلس مترنيخ وتاليران وكاسلراى (ممثل بريطانيا العظيم الاقتدار) حول مائدة المؤتمر يحتسون الخمر ، ويقررون مايجب عمله بالفعل .

كان الحلفاء يودون ان تقف الروسيا الى جانبهم ، لذلك كانوا يعاملون الاسكندر معاملة تنطوى على مزيد من الاحترام ، ولكنه لم يكن له شخصيا ضلع كبير فى اعمال المؤتمر الا بالقدر الذى يروق فى اعين الحلفاء ، بل انهم شجعوا خططه الخاصة باقامة حلف مقدس حتى يشغل نفسه بهذا الأمر ، فى حين انكبوا هم على مابين أيديهم من اعمال .

لقد كان الاسكندر رجلا لطيف المعشر يحب المجتمعات ولقاء الناس ، وكانت تغمره السعادة والهناءة فى مثل تلك المناسبات ، على انه كانت تشوب خلقه نزعة أخرى تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، ذلك أنه حاول نسيان شىء لم يستطع نسيانه .

ففى مساء اليوم الثالث والعشرين من عام ١٨٠١ كان الاسكندر يجلس فى احدى حجرات قصر سان ميشيل فى بطرسبرج ، مترقبا اخبار نزول أبيه عن العرش ، ولكن بطرس رفض التوقيع على وثيقة التنازل التى قدمها اليه ضباطه السكارى ، فاستشاطوا غضبا ، ووضعوا حول عنقه لفاعا وشنقوه . ثم هبطوا درجات السلم سراعا كى يخبروا الاسكندر بانه أصبح امبراطورا على جميع بلاد الروسيا .

لقد ظلت ذكرى هذه الليلة الرهيبة عالقة بذهن القيصر ، لانه كان رجلا جياش العاطفة ، اذ تربى فى مدرسة الفلاسفة الفرنسيين الكبار ، الذين كانوا ينكرون الله ويؤمنون بالعقل الانسانى ، ولكن العقل وحده لم يكن ليرضى الامبراطور فى مأزقه ، فأخذت

تنتابه الهواجس ، وحاول ان يجد سبيلا للتوفيق بين نفسه وبين ضميره ، فركن الى الورع ، واخذ يعنى بالتصوف ، ذلك الحب العجيب لكل ما هو غريب مجهول . والتصوف قديم قدم معابد طيبة وبابل .

لقد اثر ذلك الجيشان الهائل الذى اصاب نفوس الناس فى عهد الثورة الكبرى فى طباعهم ، على نحو عجيب . ذلك ان الرجال والنساء الذين عاشوا عشرين عاما فى خوف وقلق قد خرجوا عن حالتهم الطبيعية . كانوا يقفزون فرقا اذا قرع بابهم خشية ان يكون النذير قد جاءهم بما يفيد استشهاد ابنهم الوحيد فى ميدان الشرف . لقد كانت عبارة الحب الاخوى والحرية التى شاعت وقت الثورة كلمات فارغة فى اسماع الفلاحين الذين نالهم الشيء الكثير من الاذى . لقد كانوا يتعلقون بأى شيء قد يتيح لهم السيطرة مرة اخرى على مشاكل الحياة المخيفة . كان من السهل ان يتسلط عليهم — وهم على هذه الحال من الحزن والبؤس — عدد كبير من الادعياء الذين يظهرون بمظهر الانبياء ، ويدعون الى مذاهب جديدة غريبة استخرجوها من الآيات المشرقة فى سفر الرؤيا .

وكان الاسكندر قد استنبأ كثيراً من العرافين ، ثم سمع عام ١٨١٤ بعرافة جديدة كانت تتنبأ بقرب نهاية العالم ، واخذت تهيب بالناس ان يتوبوا ويندموا قبل فوات الاوان . كانت هذه المراة تدعى البارونة فون كرودنر ، وهى امراة روسية مشكوك فى سنها ومسلكها ، وكانت زوجة احد رجال السلك الدبلوماسى فى عهد القيصر بطرس . وقد بددت هذه المراة اموال زوجها ، ودنست شرفه بعلاقاتها الغرامية العجيبة . كانت تعيش عيشة فجور وخلاعة ، اضرت باعصابها حتى انهارت ، واختل عقلها مدة من الزمن ، ثم ثابت الى رشدها عند ما رات الموت يدرك فجاة صديقا من اصدقائها ، فاحتقرت مسرات الحياة وملاذها جميعا ، واعترفت بخطاياها لصانع احذيتها ، وكان من الاخوان المورافيين الاتقياء ، وتابعا من اتباع المصلح القديم جون هس الذى احرق عام ١٤١٥ لمروقه بامر من مجمع كنستانس ، وامضت هذه البارونة السنوات العشر التالية من حياتها فى المانيا متخصصة فى دعوة الملوك والامراء الى التوبة والهداية .

وكان مطمحها الاسمى فى الحياة ان تقنع الاسكندر ، منقذ اوربا ، بخطا مسلكه . وكان الاسكندر فى بؤسه متهيئا لسماع أى شخص يبعث فى نفسه شعاعا من الامل . ومن ثم رأى أن يدبر امر اللقاء بينها وبينه . وفى مساء اليوم الرابع من شهر يونية سنة ١٨١٥ سمح لها بمقابلة القيصر فى فسطاطه ، فوجدته يقرا فى الكتاب المقدس . ونحن لا نعرف ما الذى قالته للاسكندر ، ولكنا نعلم ان الدموع كانت تنهمر من عينيه بعد ان غادرته ، وقد صرح بأن روحه قد وجدت السلام والطمأنينة اخيرا . واصبحت البارونة منذ ذلك الحين صديقته المخلصة وهاديته الى خلاص روحه . وقد تبعته الى باريس ، ثم الى ڤينا ، وكان الاسكندر يحضر الصلوات التى تقيمها فى الاوقات التى لا يذهب فيها الى حلقات الرقص .

ولعلك تتساءل : لم قصصت عليك هذه القصة مفصلة كل هذا التفصيل ؟ اليست التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى القرن التاسع عشر اعظم شانا من سيرة امراة مختلة الشعور يجدر بنا نسيانها ؟ لاشك انها كذلك ، ولكن ثمة عددا من الكتب تستطيع ان تقص عليك هذه التغيرات فى دقة عظيمة وتفصيل واف . وانى لأحب ان تخرج من هذا التاريخ بشيء اكثر من تسلسل الحوادث . احب ان تتناول حوادث التاريخ جميعا ، بعقل لاياخذ الامور على علاتها ، فلا تقنع بالرواية التى تقتصر على ان هذا الحادث قد وقع هنا او هناك ، بل حاول ان تستكشف الدوافع الخفية الكامنة وراء كل حادثة ، ولسوف تفهم عندئذ العالم المحيط بك فهما حسنا ، وتتاح لك فرصة اكبر لمساعدة الآخرين . وهذه فى النهاية هى السبيل الوحيد حقا للحياة الراضية .

ولست احب لك ان تظن أن الحلف المقدس ماهو الا قصاصة من الورق وقعت عام ١٨١٥ ، ثم دفنت واهملت فى زاوية من سجلات الدولة . قد تكون هذه الوثيقة قد جر عليها النسيان اذياله ، ولكنها ليست ميتة بحال . لقد كان الحلف المقدس هو العامل المباشر فى اعلان مبدا منرو ، وهو المبدا القائل بأن امريكا للامريكيين . وكان هذا المبدا عاملا هاما فى السياسة العالمية . وذلك هو السبب الذى حملنى على ان اطلب منك ان تعرف على وجه الدقة كيف اتيح لهذه الوثيقة ان تبرز الى عالم الوجود ، وماهى الدوافع الحقيقية التى تنطوى تحت مظاهر الورع واخلاص المسيحيين للواجب .

لقد كان الحلف المقدس عملا ساهم فيه رجل بائس ، صادف فيحياته صدمة عقلية مريعة ،فحاول ان يبعث السكينة فى نفسه القلقة المضطربة ، وامراة طموح فقدت جمالها وسحرها بعد ان بددت حياتها فى اللهو ، وارادت أن ترضى غرورها ورغبتها فى الشهرة ، فجعلت من نفسها نبية تبشر بعقيدة جديدة عجيبة . ولست اذيع سرا عند ما اقص عليك هذه التفاصيل ، ذلك ان رجالا من ذوى الحصافة والعقل السليم مثل كاسلراى ومترنيخ وتاليران ، كانوايدركون تمام الادراك ان هذه البارونة الجياشة العاطفة كانت محدودة المواهب ، وكان من السهل على مترنيخ ان يعيدها الى املاكها فى المانيا ، وكان حسبه ان يرسل بضع كلمات الى رئيس الشرطة الامبراطورى ، ذى السلطان الواسع .

على ان فرنسا وانكلترا والنمسا كانت تعتمد على حسن نية روسيا ، فلم تكن ترغب فى الاساءة الى الاسكندر . ومن ثم احتملت هذه الدول حماقة تلك البارونة العجوز ، وعدوا الحلف المقدس شيئا تافها لايساوى الورق الذى كتب عليه ، الا انهم استمعوا فى صبر الى القيصر عندما اخذ يقرا عليهم مسودة هذا المشروع الذى يرمى الى قيام عهد من الأخاء بين الناس على اساس الكتب المقدسة .

كان ذلك هو الغرض من الحلف المقدس ،وقد نذر الموقعون على هذا الحلف بانهم « سيجعلون رائدهم الوحيد فى حكم دولهم ، وفى علاقاتهم السياسية مع الحكومات الاخرى . . . مبادىء هذه العقيدة المقدسة : مبادىءالحق والمحبة والسلام التى اوصت بها المسيحية . وهذه المبادىء التى تنطبق على الشئون الخاصة فحسب ، يجب ان يكون لها سلطان مباشر على مجالس الأمراء ، وان تهديهم فى كل مايفعلون بوصفها الوسيلة الوحيدة لدعم النظم الانسانية وعلاج مابها من نقص » . واخذوا يتعاهدون على ان يظلوا متحدين تربط بينهم أواصر اخاء حق لاتنفصم ، وان تنظر كل دولة الى رعايا الدول الاخرى نظرتها الى رعاياها ، وأن يتبادلوا كافة، وفى جميع الأحوال والظروف، وحيثما كانوا . . . المساعدة والعون ، وكلمات اخرى من هذا القبيل . واخيرا وقع امبراطور النمسا الحلف المقدس ، ولم يكن يفهم منه كلمة واحدة ، ووقعه البوربون وكانوا يرغبون فى صداقة اعداء نابليون القدماء ، ووقعه ملك بروسيا وكان يرغب فى استمالة الاسكندر الى جانبه للنهوض بمشروعاته الخاصة بانشاء دولة بروسيا الكبرى ، كما وقعته سائر الدول الاوربية الصغيرة التى كانت تحت رحمة الروسيا . ولم توقع انكلترا هذا الحلف قط ، لأن كاسلراى راى ان المسألة كلها لاتعدو أن تكون مظاهرة كلامية ، وكذلك لم يوقعه البابا ، لانه امتعض من تدخل أرثوذكسى يونانى وبروتستانتى فى شئونه الخاصة . ولم يوقع سلطان تركيا ، لأنه لم يسمع شيئا قط عن هذا الحلف .

على أن جماهير شعوب أوربا سرعان ما اضطرت الى ان تدخل هذا الحلف فى اعتبارها . فقد كان وراء نصوص الحلف المقدس الجوفاء جيوش التحالف الخماسى الذى كونه مترنيخ من الدول الكبرى . وكان معنى وجود هذه الجيوش ان المسألة جد لا هزل. فقد نبهت هذه الجيوش الاذهان الى ان سلام اوربا ينبغى الا يعكره أولئك الاحرار الذين ليسوا فى واقع الأمر سوى يعاقبة مستترين يتطلعون الى العودة الى ايام الثورة . فأخذتحمس الناس لحروب التحرير الكبرى التى شبت فى الاعوام ١٨١٢ و١٨١٣ و١٨١٤و١٨١٥ . . . يخبو ويخمد . وأعقب ذلكنشوء اعتقاد وثيق بحلول أيام اسعد من هاتيك الايام ، وكان الجنود الذين اكتووا بنار المعارك يريدون السلام ويجاهرون بذلك .

ولكنهم لم يكونوا يريدون ذلك السلام الذىأفاءه عليهم آنئذ الحلف المقدس ومجلس الدول الاوربية ، وعلت صيحتهم بأنهم خدعوا ، ولكنهم اصطنعوا فى ذلك الحذر خشية أن يسمعهم عين من عيون الشرطة السرية ، وانتصرت الردة ، وكانت من صنع أولئك الذين آمنوا ايمانا راسخا بان اساليبهم لا معدى عنها لخير البشرية . غير ان اصطناع هذه الاساليب كان ايضا امرا عسيرا حتى لكانهم كانوا يهدفون الى شيء اقل شفقة ورحمة ، وقد اقتضاهم ذلك كثيرا من العذاب بلا موجب ، واضر الى حد كبير بالتقدم السياسى المطرد .

الـردة الـكبرى

ارادوا أن يحققوا للعالم حقبة من السلام ، لا يعكر صفوه شيء ، وذلك بخنق كل فكرة جديدة . واقاموا الشرطة عينا على اكبر عمال الدولة فما لبثت سجون الدول أن امتلات باولئك الذين نادوا بان الناس من حقهم أن يحكموا انفسهم على الوجه الذى يرون فيه صلاحهم .

كان اصلاح الدمار الذى احدثه الطوفان النابليونى مستحيلا أو اشبه بالمستحيل . فقد اتى هذا الطوفان على الجسور القديمة قدم الزمان ، وتخريبت قصور طائفة من الاسر الحاكمة الى حد أن الناس وصموها بأنها عادت لا تصلح للسكنى . واتسعت قصور ملكية أخرى اتساعا عظيما على حساب جيران اقل ثروة وجاها . وخلف انحسار الطوفان عجائب وآثارا من مبادىء الثورة ، لم يكن من اليسير القضاء عليها دون أن يتعرض المجتمع كله للخطر . على ان مهندسى مؤتمر ڤينا من الساسة بذلوا كل ماق وسعهم ، وهاك ماتم على ايديهم :

لقد عكرت فرنسا صفو السلام العالمى سنين عدة ، حتى بات الناس يخشونها خشية جرت مجرى الفطرة أو كادت . ووعد آل بربون على لسان تاليران بأن يسيروا على جادة الصواب ، ولكن الايام المائة قد بصرت أوربا بما تتوقعه من أحداث لو أنه تيسر لنابليون الهرب مرة ثانية ، ومن ثم حولت جمهورية هولندا الى مملكة . أما بلجيكا ــ التى لم تكن قد اشتركت مع هولندا فى نضالها من اجل الاستقلال فى القرن السادس عشر، وظلت منذ ذلك الوقت جزءا من أملاك آل هابسبورج تحت السيادة الاسبانية اول الامر ثم تحت السيادة النمسوية بعد ذلك ــ فقد جعلت جزءا من هذه المملكة الجديدة ، وهى مملكة الاراضى المنخفضة . ولم يكن احد يرغب فى ذلك الاتحاد سواء البروتستانت فى الشمال أو الكاثوليك فى الجنوب ، ولكن لم يثر احد أية مسألة حول هذا الموضوع . لقد بدا ان فى ذلك خيرا لسلام اوربا ، فكان هو الاعتبار الغالب .

وكانت بولندا تطمح فى أن ينالها خير كثير لان الامير البولندى آدم زارتوريسكى كان من اصدق اصدقاء القيصر الاسكندر ، وكان مشيره دائما ابان الحرب وفى مؤتمر ڤينا . غير أن بولندا جعلت دولة شبه مستقلة ، والحقت بالروسيا ، على أن يكون الاسكندر ملكا عليها ، ولم يرض احد عن هذا الحل ، واثار فى النفوس مرارة شديدة ، ونجمت عنه ثورات ثلاث .

وكان جزاء الدانيمارك العقاب الشديد لانها ظلت حتى النهاية الحليف المخلص لنابليون . وقد حدث قبل ذلك بسبع سنين ان ابحر اسطول انكليزى الى كاتيجات واطلق نيرانه على كوپنهاجن دون اعلان حرب أو تحذير ، وانتزع الاسطول الدانيماركى حتى لاينتفع به نابليون . وخطا مؤتمر ڤينا خطوة اخرى ، فقد انتزع النرويج من الدانيمارك ، وكانت منذ قيام اتحاد كالمر عام ١٣٩٧ متحدة مع الدانيمارك ، وأعطاها الى شارل الرابع عشر ملك السويد ، مكافأة له على خيانته لنابليون الذى كان قد ولاه هذا المنصب . ومن العجيب ان هذا الملك السويدى ــ ويدعى **برنادوت** ــ كان قبل ذلك احد قواد فرنسا ، ذهب الى السويد قائدا من قواد نابليون ، ثم عرض عليه عرش هذه البلاد الجميلة عندما توفى آخر حكامها من بيت هولشتين ــ جوتورب دون أن يعقب ولدا . فظل هذا الملك يحكم السويد ، وطنه الثانى الذى لم يعرف لغته قط ، من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٤٤ بقدرة فائقة . فلقد كان برنادوت رجلا أريبا يبجله رعاياه السويديون والنرويجيون ، ولكنه لم ينجح فى ادماج دولتين قد عملت الطبيعة والتاريخ على انفصالهما . ولم يفلح قط الاتحاد الذى قام بين هاتين الدولتين الاسكندناويتين . وفى عام ١٩٠٥ استقلت النرويج بامر نفسها ، على خير مايرجى من سلام ووئام ، فأصبحت مملكة مستقلة ، وتمنى لها السويديون الرقى السريع ، وكانوا فى غاية الحكمة اذ تركوها تمضى فى حال سبيلها .

وكان الايطاليون ، الذين ظلوا منذ ايام النهضة تحت رحمة سلسلة لاتنقطع من غارات المغيرين ، قد رجوا هم ايضا الخير على يد القائد نابليون . غير أن الامبراطور نابليون خيب آمالهم الى حد بعيد ، فلم يحقق رغبة الشعب فى توحيد ايطاليا ، بل قسمها الى عدد من الامارات الصغيرة والدوقيات والجمهوريات علاوة على الدولة البابوية التى كانت بعد نابلى أسوا اقليم فى شبه الجزيرة باكملها حكما واشدها بؤسا . وقد الغى مؤتمر ڤينا عددا قليلا من الامارات القديمة ،

واعطاها لمن هم أهل لها من افراد بيت هابسبورج ذكورا واناثا .

اما الاسبان التعساء الذين كانوا أول من قام بثورة قومية كبرى على نابليون ، والذين بذلوا أزكى دمائهم فى سبيل ملكهم ،فقد عوقبوا عقابا صارما عندما سمح المؤتمر للملك بالعودة الى بلاده . لقد امضى هذا الملك الشرير المعروف بفرديناند السابع ، السنوات الاربع الاخيرة من حياته سجينا فى يد نابليون ، واستعان على قضاء هذه الايام بنسج كسى لتماثيل اوليائه المحببين اليه ، واحتفل بعودته الى بلاده باعادة محاكم التفتيش وغرفة التعذيب اليها ، وكانت الثورة قد قضت عليها . لقد كان فرديناند شخصا كريها ممقوتا سواء من شعبه أو من زوجاته الاربع ، ولكن الحلف المقدس ثبته على عرشه الشرعى ، وانتهت الجهود التى بذلها الاسبان أهل الوفاء والرزانة للخلاص من هذا الكابوس ، وجعل اسبانيا ملكية دستورية بالقتل واراقة الدماء .

وكانت البرتغال لا ملك لها منذ عام ١٨٠٧ ، وهو العام الذى فرت فيه الاسرة المالكة الى المستعمرات فى البرازيل . وكانت هذه البلاد قاعدة لتموين جيوش ولنجتن فى أثناء حرب شبه الجزيرة من عام ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٤ ، وظلت البرتغال بعدعام ١٨١٥ اشبه بولاية انكليزية الى ان عاد بيت براجانزا الى العرش مخلفا وراءه احد أفراد البيت المالك فى ريودى جانيرو امبراطورا على البرازيل ، وهى الامبراطورية الامريكية الوحيدة التى ظلت قائمةً عدة سنوات ، والتى انتهى أجلها عام ١٨٨٩ ، عندما اصبحت البرازيل جمهورية .

اما فى الشرق فلم يفعل شىء لتحسين الظروف المريعة التى كان يعيش فى كنفها الصقالبة واليونانيون الذين كانوا لايزالون من رعايا السلطان . وفى عام ١٨٠٤ قام صربى من رعاة الخنازير يدعى جورج الأسود (مؤسس أسرة قره جورجيفتش) بثورة ضد الترك ، ولكن التركاوقعوا به الهزيمة ، وقتلهأحد أصدقائه المزعومين ، وهو زعيم صربى منافس له يدعى **ميلوش ابرينوفيتش** (الذى اصبح راس أسرة ابرينوفيتش) ، واستمر الترك أصحاب السلطان المطلق فى البلقان .

اما اليونانيون ــ الذين كانوا قد اصبحوا ، منذ ان فقدوا استقلالهم قبل ذلك بألفى سنة ، من رعايا المقدونيين ثم الرومان ثم البنادقة ثم الترك ــ فقدكانوا يأملون ان ينالوا اخيرا على يد مواطنهم **كابو ده استريامن** أهل كورفو ، وعلى يد **تزارتوروسكى** الذى كان من أصدق أصدقاء الاسكندر . على أن مؤتمر فينا لم يكن يهتم بأمر اليونان ، ولكن اهتمامه الشديدكان منصرفا الى ابقاء الملوك الشرعيين على عروشهم سواء اكانوا مسيحيين أو مسلمين ، او على غيرهذين الدينين ، ولذلك لم يفعل شيئا من اجل اليونانيين .

على ان آخر الأخطاء التى وقع فيها مؤتمر فينا وأعظمها هو معاملته لالمانيا . ذلك أن حركة الاصلاح الدينى وحروب الثلاثين سنة . . . لم تقض على رخاء المانيا فحسب ، بل احالتها ايضا الى انقاض سياسية لا امل فيها ، اذ انقسمت البلاد الى مملكتين،والىعدد قليل من الدوقيات الكبيرة ، والى كثير من الدوقيات الصغيرة ، ومئات من الامارات والبارونيات والمدن الحرة والقرى الحرة ،يحكمها اعجب خليط من الحكام ظهروا على هذا المسرح الهزلى . وقد غير فردريك الاكبر هذه الحال عندما انشأ بروسيا القوية ، ولكن هذه الدولة لم تعش بعده الا سنوات قلائل .

لقد رسم نابليون خطة للوفاء بحاجة معظم هذه الدول الصغيرة الى الاستقلال ، ولكن لم يعش من هذه الدول بعد عام ١٨٠٦ الا اثنتان وخمسون دولة من مجموعها البالغ أكثر من ثلاثمائة دولة . وفى خلال سنوات الجهاد المظلم فى سبيل الاستقلال كان مطمح كثير من شباب الجيش أن تقوم دولة قوية موحدة . على ان مثل هذا الاتحاد لم يكن ليتم دون زعامة قوية ، فمن عساه يكون هذا الزعيم ؟

كان ثمة خمس ممالك فى البلاد التى تتحدث الالمانية . وكان حاكما مملكتين من هذه الممالك ــ وهما النمسا وبروسيا ــ قد اعتليا العرش بفضل الله وارادته . اما ملوك الممالك الثلاث الاخرى : وهى بافاريا وسكونيا وورتنبرج ، فقد اعتلوا العرش بفضل نابليون . ولما كان هؤلاء الملوك تابعين مخلصين للامبراطور ، فان الالمان الآخرين كانوا يتشككون فى وطنيتهم .

وقد انشأ مؤتمر فينا حلفا المانيا جديدا ، كان بمثابة عصبة امم ، يضم ثمانيا وثلاثين دولة المانيةذات سيادة تحت رياسة ملك النمسا ،الذى كان يعرف آنئذ باسم امبراطور النمسا ، وكان ذلك ضربا من التدابير التى تتخذ لتفادى الازمات لم يرض عنه أحد . والحق أن مجلس النواب الألمانى « الدايت » الذى كان يعقد جلساته فى فرانكفورت مدينة التتويج القديمة ، كان يبحث المسائل الهامة ذات الصبغة السياسية العامة ،

ولكن هذا المجلس الجديد كان يضم ممثلي ثمان وثلاثين دولة ذات مصالح مختلفة . وكان لايتخذ فيه قرار الا باجماع الاصوات ، (وهي قاعدةبرلمانية قضت علىمملكةبولندا القوية البأس فيما سلف من القرون) . ومن ثم سرعان ماغدا الاتحاد الالمانى الشهير موضع سخرية اوربا ، واصبحت سياسة الامبراطورية القديمة اشبه شيء بسياسة الولايات الامريكية الوسطى فى العقدين الرابع والخامس من القرن الماضى .

لقد اذل هذا البرلمان اشد الاذلال أولئك الناس الذين ضحوا بكل شيء فى سبيل تحقيق مثل قومى نزعوا اليه ، ولكن المؤتمر لم يكن يحفل بمشاعر الرعايا الخاصة . . . فانتهى النقاش ، واسدل الستار .

وانا لنتساءل : هل اعترض احد على ذلك ؟ نعم لقد حدث اعتراض بلا شك . ذلك انه ما ان انطفأ شعور الكراهية الذى خامر الناس اول الامر نحو نابليون ، وخمدت الحماسة الكبرى فى النفوس ، وتكشفت للناس الجريمة التى اقترفت باسم « السلام والاستقرار » حتى بدأوا يتهامسون بل هددوا بالثورة العلنية . ولكن ما الذى كان فى طوقهم أن يفعلوه ؟ كانوا لاحول لهم ولا قوة ، يعيشون تحت رحمة اقسى وادق نظام للشرطة عرفه العالم .

لقد اعتقد اعضاء مؤتمر فينا صادقين مخلصين « ان مبدأ الثورة هو الذى ادى الى اغتصاب نابليون الامبراطور السابق للعرش على هذا النحو الاجرامى » ، وقد ادركوا انهم قد اهيب بهم للتخلص من انصار مايعرف بالآراء الفرنسية ، شأنهم فى ذلك شأن فيليب الثانى الذى استمع لنداء ضميره وحده ، عندما قام باحراق البروتستانت وشنق عرب اسبانيا .

لقد كان الرأى فى مستهل القرن السادس عشر ، ان الرجل الذى لا يعتقد فى حق البابا الالهى فى حكم رعاياه بما يرى ان فيه صلاحهم العام مارق زنديق ، وان من واجب جميع الرعايا المخلصين قتله . وفى بداية القرن التاسع عشر كان أى رجل فى القارة الاوربية لايعتقد فى حق الملوك الالهى فى الحكم حسبما يرى الملك او رئيس وزرائه . . . مارقا زنديقا ويجب على جميع الرعايا المخلصين ابلاغ امره الى اقرب شرطى ليتحققوا من انه قد نال جزاءه . غير أن الحكام فى عام ١٨١٥ قد تعلموا مافيه الكفاية فى مدرسة نابليون ، وقاموا بالواجبات المنوطة بهم على وجه احسن بكثير من اسلافهم فى عام ١٥١٧ . ولقد كانت الفترة بين عامى ١٨١٥ و ١٨٦٠ هى الحقبة الكبرى للتجسس السياسى . فقد بثت الجواسيس والعيون فى كل مكان ، وكانوا يعيشون فى القصور كما كانوا يوجدون فى احقر الحانات . لقد كانوا ينظرون من خلال ثقوب الابواب فى مجالس الوزراء ، ويستمعون الى احاديث الناس وهم يروحون عن انفسهم جلوسا فوق المقاعد فى المتنزهات البلدية ، وقاموا بحراسة الحدود حتى لايستطيع احد ان يعبرها من غير تصريح بالعبور معتمد ، كما كانوا يفتشون جميع الحقائب حتى لايتسرب الى البلاد التى يقوم بالحكم فيها سادتهم من الملوك ، أى كتاب يحمل فى طياته الآراء الفرنسية الخطرة . وكانوا يجلسون بين الطلاب فى قاعات الدرس . . والويل كل الويل للاستاذ الذى يتفوه بعبارة يشتم منها العداء للنظام القائم للامور ، وكانوا يتبعون الأولاد والفتيات الصغار فى ذهابهم الى الكنيسة حتى لايلهوا فى الطريق !

وكان هؤلاء الجواسيس يستعينون على أداء كثير من هذه المهام برجال الدين ، فقد قاست الكنيسة الشيء الكثير ايام الثورة . اذ صودرت املاكها ، وقتل كثير من القساوسة . وكان ابناء الجيل الذين اخذوا اصول دينهم عن ڤولتير وروسو وغيرهما من الفلاسفة الفرنسيين — يرقصون حول مذبح العقل عندما الغت لجنة الامن العام عبادة الله فى اكتوبر عام ١٧٩٣ . وقد تبع القساوسة المهاجرين الى منفاهم الطويل ، والآن وقد عادوا فى اعقاب الجيوش المتحالفة ، فقد اخذوا فى العمل تحدوهم الرغبة فى الانتقام ، بل ان اليسوعيين انفسهم قدعادوا عام ١٨١٤ ، واستأنفوا عملهم الاول : الا وهو تثقيف النشء وتعليمهم . ولم تصب طائفتهم الا نجاحا قليلا فى صراعها مع اعداء الكنيسة . فقد انشأت هذه الطائفة مراكز لها فى كل انحاء العالم ليبصروا الاهالى بنعمة المسيحية ، ولكن سرعان ما استحالت هذه المراكز الى شركة تجارية منظمة كانت تتدخل على الدوام فى اعمال السلطات المدنية . وقد اخرج اليسوعيون من بلاد البرتغال خلال عهد المركيز ده بومبال الوزير البرتغالى والمصلح الكبير . وفى عام ١٧٧٣ الغى البابا كليمانت الرابع عشر طائفة اليسوعيين ، نزولا على رغبة معظم دول اوربا الكاثوليكية . وهاهم اولاء قد عادوا الى مهمتهم مرة اخرى ، واخذوا يلقنون مبادىء «الطاعة» و «حب الأسر الشرعية الحاكمة » للأطفال الذين استأجر آباؤهم الشرفات لكى يستطيعوا أن يسخروا من مارى

انطوانيت وهى تساق الى المقصلة التى قدر لها ان تضع حدا لآلامها وبؤسها .

ولم تكن الامور فى الدول البروتستانتية ، مثل بروسيا ، احسن من ذلك فى كثير او قليل . ذلك ان المة الزعماء الوطنيين فى عام ١٨١٢ والشعراء والكتاب الذين نادوا بشن حرب مقدسة على الغاصب ، اصبحوا الآن يوصمون بأنهم زعماء شعبيون خطرون . فقد كانت بيوتهم تفتش وخطاباتهم تقرأ ، وكان عليهم ان يقدموا انفسهم للشرطة فى أوقات معلومة ، وينبئوهم بأخبارهم . واطلق للرياضيين البروسيين العنان فى التشدد مع جيل الشباب ، فاذا ما قام فريق من الطلاب بالاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لحركة الاصلاح فى فريبرج القديمة ... احتفالا فيه صخب ، وان خلا من المضرة ، يوجس رجال الحكومة البروسية من أن يكون ذلك منذرا بثورة محيقة . واذا قتل طالب لاهوت ، ايمانه أكثر من ذكائه ، جاسوسا للحكومة الروسية يعمل فى المانيا ، فان الجامعات توضع تحت رقابة رجال الشرطة ، ويسجن الاساتذة او يطردون من مناصبهم دون أن يحاكموا على اية صورة من الصور .

وكانت روسيا بطبيعة الحال اكثر حماقة فى اتخاذ هذه الخطوات المناهضة للثورة . فلقد افاق الاسكندر من نوبة التقى والورع التى انتابته ، وكان يستسلم شيئا فشيئا الى الكآبة والحزن . لقد كان يعلم حق العلم ان كفاياته محدودة ، كما ادرك كيف اتفق لهم فى فينا ان أصبح فريسة لمترنيخ .. فأخذ يولى ظهره الى الغرب شيئا فشيئا ، وأصبح حاكما روسيا بحق ، يحصر اهتمامه فى القسطنطينية المدينة المقدسة القديمة التى كانت أول معلم للصقالبة . وكان الاسكندر كلما تقدم به العمر زاد انهماكا فى العمل ، وقلت قدرته على الانتاج . وبينما كان منصرفا الى دراساته وتدابيره أحال وزراؤه جميع الروسيا الى ثكنات عسكرية .

وليست هذه الصورة مشرقة تسر الناظرين ، ولعله كان يجمل بى أن أوجز فى وصف هذه الردة الكبرى ، ولكن من الحق أيضا ان تعرف هذه الحقيقة حق المعرفة . ولم تكن هذه المرة الاولى التى بذلت فيها محاولة ترمى الى الرجوع بالتاريخ الى الوراء ، وكانت عاقبة ذلك هى العاقبة المنتظرة المألوفة .

الاستقلال القومى

على ان حب الاستقلال القومى كان ارسخ من ان يقتلع على هذا النحو . وكان أهل امريكا الجنوبية أول من ثاروا على التدابير الرجعية التى اتخذها مؤتمر فينا . وحذت حذوهم اليونان وبلجيكا واسبانيا وعدد كبير من سائر بلاد القارة الاوربية . وقد حفل القرن التاسع عشر باخبار حروب كثيرة فى سبيل الاستقلال

ليس من الخير فى شىء أن نقول « لو أن مؤتمر فينا قد فعل كيت وكيت ، بدلا من أن يسلك هذا المسلك او ذاك ... لتغير تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر » . لقد كان مؤتمر فينا مجتمعا عقده قوم خرجوا لتوهم من ثورة كبرى ، وفترة دامت عشرين عاما ، انقضت فى حروب رهيبة تكاد لا تنقطع . التقى هؤلاء القوم ليفيئوا على أوربا « السلام والاستقرار » اللذين كان الناس ، فى نظرهم ، فى حاجة اليهما . وكان المؤتمرون نفرا من اولئك الذين نسميهم بالرجعيين ، آمنوا ايمانا راسخا بعجز جهود الناس عن أن يحكموا انفسهم . فعاودوا تخطيط خريطة اوربا على نحو كان يبدو انه يبشر بأعظم مايمكن من نجاح وثيق... وخاب سعيهم ، ولكن السبب فى ذلك لايعود الى ان القوم كانوا يضمرون من ناحيتهم اى شر ، لقد كان معظم هؤلاء رجالا من المدرسة القديمة ، تذكروا الايام السعيدة التى مروا بها فى شبابهم الهادىء ، فرغبوا رغبة صادقة فى عودة هذه الايام المباركة . ولكنهم لم يستطيعوا ان يدركوا ذلك السلطان العظيم الذى كان للمبادىء الثورية فى نفوس سكان القارة الاوربية . لقد كان ذلك منهم ضربا من سوء التوفيق . بيد انه يتعذر علينا أن نقول ان

عملهم هذا يعد جريمة من الجرائم . على أن ثمة درسا لقنته الثورة الفرنسية لاوربا وامريكا على السواء : الا وهو حق الشعوب فى تحقيق قوميتها .

لقد كان نابليون — وهو ذلك الرجل الذى كان لايحترم شيئا ، ولا يوقر شخصا — لا تأخذه شفقة ولا رحمة فى معالجة الاطماع القومية والوطنية . الا ان قواد الثورة الاولين كانوا قد نادوا بذلك المبدأ الجديد ، وهو « ان القومية لاتقوم بالحدود ولا تقاس باصحاب الرءوس المستديرة او الانوف العريضة ، وانما هى مسألة تمس القلوب والنفوس » .

وكانوا اذ يلقنون الاطفال الفرنسيين عظمة الامة الفرنسية ، يشجعون الاسبان والهولنديين والايطاليين على السير على نهجهم . وسرعان ما اخذت هذه الشعوب — التى كانت تؤمن جميعا بعقيدة روسو فى الفضائل السامية التى كان يتحلى بها الانسان الاول — تنقب فى ماضيها ، فوجدت تحت اطلال العهد الاقطاعى عظام الاجناس الجبارة التى حسبت انها سلالتها الضعيفة .

لقد كان النصف الاول من القرن التاسع عشر عهد الكشوف التاريخية العظمى . وكان المؤرخون فى كل مكان مشغولين بنشر وثائق وعهود العصور الوسطى واخبارها الاولى ، فنشأ عن ذلك ان تملكت النفوس فى كل بلد من البلاد عزة جديدة بالوطن القديم . وكان معظم هذا الشعور يرتكن الى تفسير مخطىء للحقائق التاريخية . ولكن الحقائق لا يعول عليها فى ميدان السياسة العملية ، وانما يقوم كل شىء فى هذا الميدان على ما يعتقد الناس انه حق . وكان الملوك ورعاياهم فى معظم الممالك يعتقدون اعتقادا راسخا فى مجد اسلافهم وذيوع صيتهم .

لم يجنح مؤتمر فينا الى مراعاة الشعور والعواطف ، فقد خطط اصحاب السعادة المؤتمرون خريطة اوربا وفقا لمصالح عدد محدد من الاسر الحاكمة ، ووضعوا الامانى القومية على الهامش ، او فى قائمة الكتب المحرمة ، هى وسائر المبادىء الفرنسية الخطرة .

غير ان التاريخ لايقيم وزنا للمعاهدات ، ذلك ان وجود الامم لسبب او لآخر ... ضرورة ، فيما يظهر ، من ضرورات التطور المطرد للمجتمع الانسانى . ولعل هذه الحقيقة سنة من سنن التاريخ غابت الى الآن عن انظار العلماء . ثم ان محاولة ايقاف تيار هذه الامم باءت بالخذلان التام، مثلها مثل المحاولة التى بذلها مترنيخ لمنع الناس من التفكير سواء بسواء . ومن عجب ان القلاقل الاولى بدأت فى جهة نائية من جهات العالم، وهى أمريكا الجنوبية . فقد كانت المستعمرات الاسبانية فى هذه القارة تستمتع فى فترة من الزمن بشىء من الاستقلال خلال السنوات الكثيرة التى استمرت فيها الحروب النابليونية . بل ان هذه المستعمرات ظلت مخلصة لملكها عندما أسره أمبراطور فرنسا ، ورفضت الاعتراف بيوسف بونابرت الذى نصبه أخوه ملكا على اسبانيا عام ١٨٠٨ .

والحق أن الجزء الوحيد من أمريكا الذى أزعجته الثورة اشد الازعاج ، كانت جزيرة هايتى التى عرفت فى رحلة كولومبس الأولى باسم « أسبانيولا » . ففى عام ١٧٩١ منح رجال المؤتمر الوطنى الفرنسى — فى فورة مفاجئة من فورات المحبة والاخاء الانسانى — اخوانهم السود جميع الامتيازات التى كانت الى ذلك الحين وقفا على أسيادهم البيض . ولقد ندم المؤتمر فجأة ايضا على اتخاذه هذه الخطوة . على ان المحاولات التى بذلت لنقض هذا الوعد ادت الى قيام حروب رهيبة دامت عدة سنوات بين الجنرال ليكليرك صهر نابليون والزعيم الزنجى توسانت لو فرتير . وفى عام ١٨٠١ طلب من توسانت زيارة الجنرال ليكليرك لبحث شروط الصلح بعد ان بذلت له اغلظ المواثيق بتأمينه على حياته . ووثق توسانت بخصومه البيض ورحل على احدى السفن . وكان من امره ان توفى بعد ذلك بقليل فى سجن من السجون الفرنسية . غير ان الزنوج نالوا استقلالهم، وانشأوا لهم جمهورية ، وكانوا آخر الامر خير معين لاول زعيم وطنى فى امريكا الجنوبية عندما هب لتخليص بلاده من نير الاسبان .

ولد **سيمون بوليفار** — وهو من مواطنى كركاس من اعمال فنزويلا — عام ١٧٨٣ ، وتلقى علومه فى اسبانيا، وزار باريس ، وشهد حكومة الثورة وهى تقوم بالحكم، وعاش ردحا من الزمن فى الولايات المتحدة ، ثم عاد الى وطنه حيث أخذ السخط العام على اسبانيا .. الوطن الاصلى ، يتخذ مظهرا معينا . وقد أعلنت فنزويلا استقلالها عام ١٨١١ ، واصبح **بوليفار** احد قواد الثورة . ولم يمض شهران حتى حلت الهزيمة بالثوار ، وركن بوليفار الى الفرار .

وكان بوليفار خلال السنوات الخمس التالية زعيم قضية خاسرة فى الظاهر ، اذ ضحى بثروته كلها ، ولم يكن فى استطاعته الشروع فى حملته الاخيرة الناجحة الا بمعونة رئيس جمهورية هايتى . وقد عمت الثورة بعد ذلك أمريكا الجنوبية باسرها ، وسرعان ما اتضح ان اسبانيا أصبحت عاجزة عن القضاء على الثوار

دون معونة من الخارج ، لذلك نجدها تطلب هـذه المعونة من الحلف المقدس .

ولقد ازعجت هـذه الخطوة انكلترا ايما ازعاج ، فاصحاب سفن الشحن فى انكلترا كانوا قـد خلفوا الهولنديين عـلى القيـام بحركة الشحن فى العـالم ، وكانوا يتوقعون أرباحا طائلة من اعلان الاستقلال فى جميع أرجاء أمريكا الجنوبيـة ، وكانوا يأملون ان تتدخل الولايات المتحدة الامريكية فى الامر ، ولكن مجلس الشيوخ الامريكى لم تكن لديه اية مشروعات من هذا القبيل ، كذلك ظهرت اصوات كثيرة فى المجلس تعلن انه يجب ان تطلق يد اسبانيا فى تسوية هذا الامر .

وحدث ان تغيرت الوزارة البريطانية فى ذلك الوقت نفسه ، اذ ذهبت وزارة الاحرار وحل محلها وزارة المحافظين ، واصبح جورج كانئج وزيرا للخارجية فأوعز بان انكلترا ستؤيد عن طيب خاطر الحكومة الامريكية بكل ما لأسطولها من قوة ، اذا اعلنت هذه الحكومة عدم موافقتها على خطط الحلف المقـدس فيما يتصل بمستعمرات امريكا الجنوبية الثائرة .

ومن ثم حدث فى الثانى من شهر ديسمبر عام ١٨٢٣ ان قام **الرئيس منرو** خطيبا فى الكونجرس الامريكى واعلن « ان امريكا تعد كل محاولة من جانب الدول المتحالفة ترمى الى بسط نظامها عـلى اية بقعة من نصف العالم الغربى امرا يهدد امننا وسلامتنا » ، ثم قال محذرا « وان الحكومة الامريكية سوف تعـد مثل هذا العمل من جانب الحلف المقدس مظـاهرة غير ودية موجهة الى الولايات المتحدة » . وبعد ذلك باربعة اسابيع نشرت الصحف الانكليزية نص مبـدأ منرو ، فلم يكن امام الدول المنضمة الى هذا الحلف المقدس الا اختيار احد الامرين ..

ولقد تردد مترنيخ فى الامر ، ولكنه شخصيا كان راغبا فى المخاطرة باغضاب الولايات المتحدة التى كانت قد اهملت جيشها واسطولها منذ نهاية الحرب الامريكية الانكليزية عام ١٨١٢ . ولـكن خطة التهـديد التى انتهجها كانئج ، والقلاقل التى ظهرت فى القارة الاوروبية، قد اجبرته على اتخاذ جانب الحذر ، لذلك لم تنفذ هذه الحملة قط ، ونالت امريكا الجنوبية والمكسيك استقلالهما .

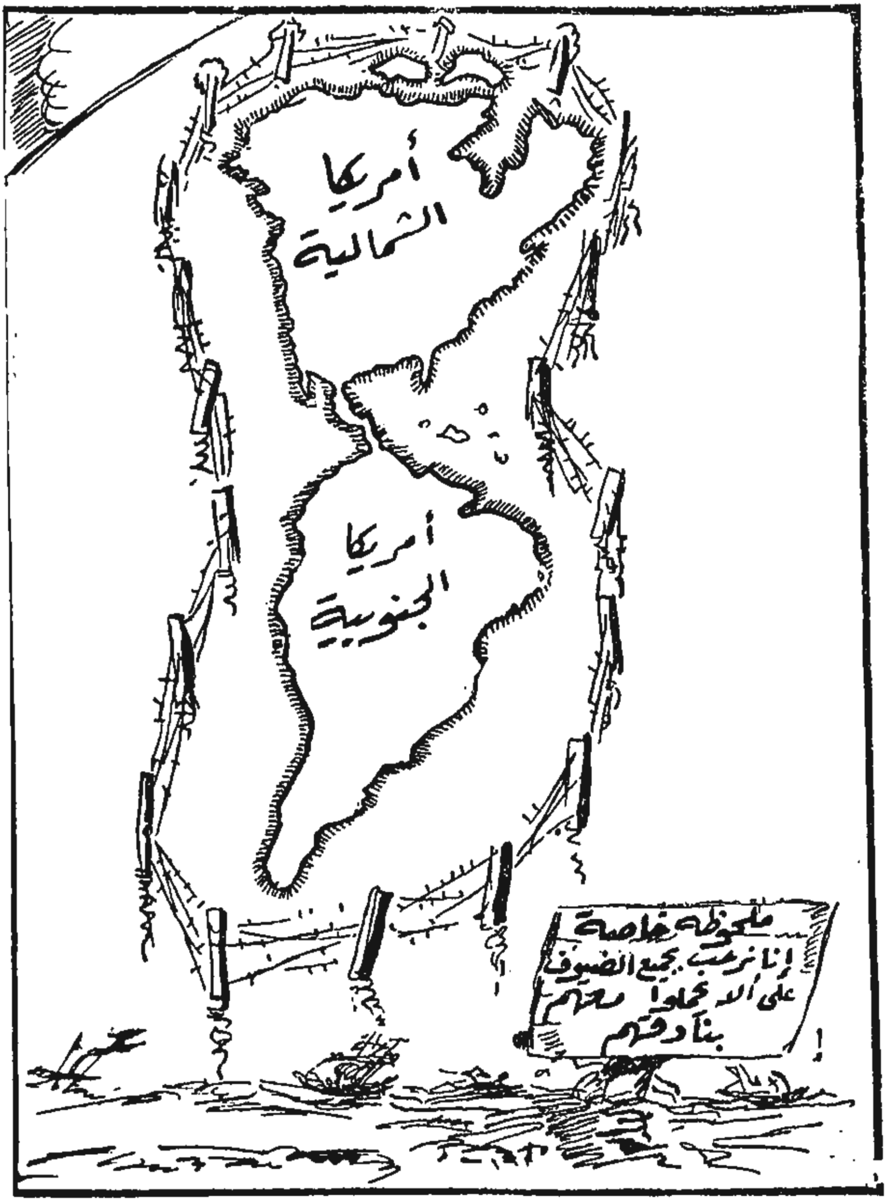
اما من حيث القلاقل فى القارة الاوربية ، فقـد كانت مقبلة سريعة وعنيفة . فقد انفذ الحلف المقدس الجنود الفرنسيين الى أسبانيـا عام ١٨٢٠ لحفظ السلام فى تلك البلاد . واستخدمت الجنود النمسوية لمثل هـذا الغرض فى ايطاليـا عنـدما كان حزب الكاربونارى ــ وهم تلك الجمعية السرية التى تألفت من صناع الفحم النباتى ــ يبث الدعوة الى توحيد ايطاليا ويثير الفتنة ضد فرديناند ملك نابلى الجبار .

وجاءت من الروسيا أيضا انباء سيئة ، ذلك ان وفاة الاسكندر كانت نذيرا بقيام الثورة فى سـانت بطرسبرج ، وهى ثورة دموية قصيرة الاجل ، تعرف باسم ثورة **ديكابرست** (لانها حدثت فى شهر ديسمبر) . وقد انتهت هذه الثورة بشنق عدد كبير من الوطنيين الصالحين الذين نفروا من النزعة الرجعية التى انتهجها الاسكندر فى سنواته الاخيرة ، فحاولوا ان يقيمـوا فى الروسيا حكومة دستورية .

على أن الامور ازدادت سوءا ، فان مترنيخ حاول ان يضمن لنفسه معـونة ملوك أوربا عـلى الدوام ، وذلك بعقد عدة مؤتمرات فى اكس لاشابل وفى تروبو وفى ليبـاخ ، واخيرا فى فيرونا . ومن ثم شـد ممثلو الدول المختلفة رحالهم الى هذه المدن الجميلة الساحلية، وهى المدن التى اعتـاد ان يقضى فيها رئيس الوزارة النمسوية فصل الصيف . وكان هؤلاء يبذلون دائما الوعد بانهم سيتخذون كل ما فى وسعهم للقضاء على الثورة ، ولكنهم لم يكونوا بحال واثقين من النجاح . ذلك ان النفوس بدأت تتجهم ، وخاصـة فى فرنسـا ، حيث كانت الملكية فى مركز ابعد ما يكون عن الاستقرار . ومهما يكن من شيء فان النزاع قد شب أول ما شب فى البلقان ، وهو ذلك المنفذ الى أوربا الغربية الذى سار فيه جميع غزاة هذه القارة منذ اقدم الازمنة . وقد شبت الثورة الاولى فى البغدان ، وهى اقليم داشيـا الرومانى القديم الذى انسلخ من جسم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث . وقد غدا هذا الاقليم منذ ذلك الوقت ارضا ضائعة ، أشبه ما تكون بقـارة اطلانطس ، حيث استمر اهله يتحدثون اللغة الرومانية القديمة . وظلوا يطلقون على انفسهم اسم الرومان وعلى بلادهم اسم رومانيا . قام فى هذا الاقليم عام ١٨٢١ شاب يونانى يدعى الأمير **اسكندر ابسلانتى** ، وبدأ ثورته على الترك ، وقد اخبر أتباعه انهم يستطيعون الاعتماد على الروسيا . ولكن مترنيخ أرسل رسله على جناح السرعة الى سانت بطرسبرج، فكان ان رفض القيصر تقديم هذه المساعدة بعـد ان اقنعه الوزير النمسوى اقناعا تاما بالمحافظة على السلام والاستقرار ، واضطر ابسلانتى الى الفرار الى النمسا حيث أمضى السنوات السبع التالية من حياته فى السجن .

وبدأت القلاقل فى اليونان فى هـذا العام نفسه

(١٨٢١) ... فقد كانت جمعية سرية من الوطنيين اليونانيين تمهد الطريق للثورة منذ عام ١٨١٥ ، وكان من أمرها ان رفعت علم الاستقلال بغتة على ارض المورة (وهى بلاد الپيلوبونيز القديمة) ، وطردت الحاميات التركية منها . ولقد اجاب الترك على ذلك باسلوبهم المعتاد ، اذ اخذوا بطريرك اليونان بالآستانة — وهو بمثابة البابا لكل اليونانيين ولكثير من الروس على السواء — وشنقوه هو وعدد من اساقفته فى يوم عيد



مبدأ مونرو

الفصح من عام ١٨٢١ ، فانتقم اليونانيون بذبح جميع المسلمين فى تريبولتزا عاصمة المورة . وقد ثار الترك لذلك فهاجموا جزيرة خيوس وقتلوا من اهلها ٢٥ الف مسيحى ، وباعوا ٤٥ الف مسيحى آخر بيع العبيد فى آسيا ومصر . وعند ذلك فزع اليونانيون الى ملوك اوربا ، ولكن مترنيخ قال لهم كلاما كثيرا قوامه أن يصطلوا « بالنار التى اشعلوها » — ولست احاول فى هذا المقام ان اصطنع المجاز ، ولكنى انقل كلام فخامته ... فقد انبأ القيصر أن هذه النار « نار الثورة يجب أن تحرق نفسها خارج حظيرة المدينة » . واقفلت حدود البلاد فى وجه المتطوعين الذين رغبوا فى انقاذ اخوانهم الوطنيين ، وبدا أن قضيتهم باءت بالخسران ، ذلك ان جيشا مصريا نزل فى بلاد المورة تلبية لطلب تركيا ، وسرعان ما رفرف العلم التركى مرة ثانية فوق الاكروبول معقل أثينا القديم . ووطد الجيش المصرى السلام فى البلاد على الطريقة التركية . وتتبع مترنيخ هذه الحوادث باهتمام يشوبه الانفعال ، منتظرا اليوم الذى تصبح فيه محاولة تعكير السلم فى أوربا حدثا من احداث الماضى .

وكانت انكلترا هى التى قلبت للمرة الثانية خطط مترنيخ راسا على عقب ، ذلك أن عظمة انكلترا لم تكن تقوم على مستعمراتها المترامية ، ولا على ثروتها أو اسطولها ، وانما كانت تقوم على تلك البطولة الرصينة والاستقلال اللذين عرف بهما أوساط الناس فيها * فالانجليزى يطيع القانون ، لانه يدرك أن احترام حقوق الآخرين هو الفارق بين حظيرة الكلاب وبين الجماعة المتحضرة ، ولكنه لايعترف بحق الآخرين فى التدخل فى تفكيره . فاذا اتت بلاده شيئا اعتقد انه خطأ ، فانه يهب من سكونه ، ويقول لها انها اخطات ، فتحترمه الحكومة التى يهاجمها ، وتحميه كل الحماية من الرعاع الذين يؤثرون كثيرا — كما كانوا فى ايام سقراط — القضاء على اولئك الذين يفوقونهم شجاعة وفطنة . وما من دعوة سليمة قامت الا وجدت عددا من الانكليز بين أخلص مؤيديها مهما يكن حظها من التاييد وبعد الشقة . وسواد الشعب الانكليزى لايختلفون عن غيرهم فى البلاد الأخرى ، فهم يتمسكون بما بين أيديهم من العمل الميسور لهم ، ولكن ليس لديهم متسع من الوقت ينفقونه فى المغامرات الخيالية . ولكنهم مع ذلك يعجبون بجارهم الغريب الاطوار الذى يترك كل ما فى يده ويذهب للقتال من اجل شعب مغمور فى آسيا او افريقيا . فاذا لقى هذا الجار حتفه ، فانهم يقيمون له جنازة شعبية كريمة ، ويجعلونه فى نظر اطفالهم مثالا للشجاعة والمروءة .

وقد كانت جواسيس الشرطة الذين بثهم الحلف المقدس لا حول لهم ولا قوة امام الروح القومية ، فانه فى عام ١٨٢٤ ، نشر اللورد بيرون — وهو ذلكم الشاب الانكليزى الثرى الذى نظم شعرا ابكى اهل اوربا جميعا — شراع يخته ، وأبحر صوب الجنوب لمساعدة اليونانيين . وبعد ذلك بثلاثة أشهر انتشر الخبر فى اوربا بان بطلهم قد لقى حتفه فى ميسولونجى آخر معقل من معاقل اليونانيين . ولقد اثارت وفاته غريبا وحيدا شجون الناس ، فتألفت الجمعيات فى جميع الدول لتقديم المساعدة لليونانيين . وقام **لافاييت** رجل الثورة الامريكية العجوز العظيم يدافع عن قضية اليونان فى فرنسا ، وارسل ملك بافاريا مئات من ضباطه لمساعدة الثوار ، وتدفقت الاموال والمؤن على رجال ميسولونجى الذين كانوا يتضورون جوعا .

وفى ذلك الوقت كان جورج كاننج ، الذى احبط خطط الحلف المقدس فى امريكا الجنوبية ، قد امتلى منصب رياسة الوزارة فى انكلترا . وقد وجد أن الفرصة قد سنحت له للاخذ بمخانق مترنيخ مرة اخرى . وكانت اساطيل بريطانيا والروسيا رابضة بالفعل فى البحر المتوسط ، وكانت قد انفذتها الحكومات التى عادت لاتجسر على كبح جماح حماسة الشعوب لنصرة قضية الوطنيين اليونانيين . ولقد ظهر الاسطول الفرنسى فى الميدان ، لان فرنسا كانت قد جعلت نفسها منذ نهاية الحروب الصليبية حامية المسيحية فى البلاد الاسلامية . وفى العشرين من شهر اكتوبر عام ١٨٢٧ ، هاجمت اساطيل الدول الثلاث الأسطول التركى فى خليج ناڤارينو وقضت عليه* . وقلما قوبلت اخبار وقعة من الوقائع بمثل ماقوبلت به اخبار وقعة ناڤارينو من فرح الناس وابتهاجهم . وقد تعزى اهل اوربا الغربية والروسيا الذين كانوا محرومين من الحرية فى أوطانهم بخوض حرب خيالية فى سبيل حرية اهل اليونان المضطهدين . وقد نال اليونانيون جزاءهم عام ١٨٢٩ فاصبحت اليونان

* هنا يتضح انتصار بعض الغربيين لبعض على باطلهم ... اما آن الاوان لانتصار بعض الشرقيين لبعض على حقهم .. ؟

دار الشعب

* ما كان الاسطول تركيا بل كان مصريا . ولم يكن لقاؤه بالاسطول الفرنسى لقاء حرب شريفة بين خصمين ، بل كان غدرا لا يزال حتى اليوم دأبهم ...

دار الشعب

امة مستقلة ، ولقيت سياسة الرجعية والاستقرار هزيمتها الثانية الكبرى .

ولو انني حاولت في هذا المجلد الصغير ان اقص عليك بالتفصيل قصة النزاع في سبيل الاستقلال القومي في جميع الدول الاخرى لبدا ذلك سخيفا . فهناك عدد كبير من الكتب القيمة اختصت بهـذه الموضوعات . ولقد وصفت لك قصة النزاع في سبيل استقلال اليونان ، لانها كانت أول هجوم ناجح شن على حصن الرجعية الذي اقامه مؤتمر فينا لحفظ الاستقرار في اوربا . وظل هـذا الحصن المنيع من حصون الرجعية متماسكا ، وظل مترنيخ قابضا على ناصيتـه ، ولكن النهاية كانت قريبة . واقام آل بوربون في فرنسا حكما قوامه رجال الشرطة الذين كانوا يحاولون القضاء على آثار الثورة الفرنسية ، متجاهلين تماما قواعد الحرب وقوانينها الجارية على اصول المدنية . فلقد استمتع الشعب الفرنسي عندما توفي لويس الثامن عشر عام ١٨٢٤ بسلام وامن دام تسع سنوات ، كانت في حقيقتها أمر من السنوات العشر التي خاضت فيها الامبراطورية حروبها . فقد خلف لويس على العرش اخوه شارل العاشر .

وكان لويس من اسرة بوربون الشهيرة ، تلك الاسرة التي لم تتعلم شيئا قط ولم تنس شيئا ابدا . وقد ظلت ذكرى ذلك الصباح الذي بلغته فيه ، وهو مقيم في مدينة هام ، الاخبار بقطع رأس اخيه ... نذيرا باقيا لما عساه يحدث للملوك الذين لا ينظرون الى علامات الساعة النظرة الصحيحة . اما شارل الذي كان قد اخذ بعقد ديونا خاصة بلغت خمسين مليونا من الفرنكات قبل ان يبلغ العشرين من عمره ، فلم يكن يعرف شيئا او يذكر شيئا ، وكانت عزيمتـه قد صحت على ان يعلم شيئا .

فما ان خلف اخاه على العرش حتى اقام حكومة « قساوسة وبالقساوسة ومن أجل القساوسة » . والحق ان الدوق ولنجتون الذي قال هـذا القول لايمكن ان يعد من الاحرار الآخذين بأسباب العنف ، ومع ذلك فان شارل حكم البلاد حكما اسخط هـذا الدوق نفسه الذي كان نصيـرا مخلصا للقانون والنظام . ولما حاول شارل اخماد صوت الصحافة التي اجترأت على نقد حكومته ، وحل البرلمان لانه انتصر للصحافة ... باتت ايامه معدودة .

وفي مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٣٠ ، شبت الثورة في باريس . وفي الثلاثين من ذلك الشهر نفسـه فر الملك صـوب الشاطىء ، وابحر الى انكلترا . وبهذه الطريقة انتهى اجل هذه المهزلة المشهورة التي دامت خمسة عشر عاما ، واقصيت آخر الامر اسرة بوربون عن عرش فرنسا . لقد كان ملوك هذه الاسرة تنقصهم الكفاية الى حد بعيد ، وكانت فرنسا خليقة بان تعود الى الحكم الجمهوري ، ولكن مترنيخ لم يكن ليسـمح باتخاذ هذه الخطوة .

لقد كان الموقف جد خطير ، ذلك ان شرارة الثورة قد تطايرت الى ماوراء الحدود الفرنسية ، فالهبت مخزنا آخر للبارود مليئا بالمظالم القومية . فمملكة الاراضي المنخفضة الجديدة لم يصادفها النجاح ، اذ لم يكن هناك من سبب يوحد ما بين البلجيك وأهل هولندا . وكان ملكهم وليم صاحب اورانج ، وهو سليل احد اعمام وليم الصامت ، ينقصه الكثير من الحنكة والمرونة التي تحفظ السلام بين رعاياه غير المتجانسين . على الرغم من انه كان دءوبا على العمل ، ورجلا من رجال الاعمال القادرين . زد على ذلك ان حشود القساوسة الذين هبطوا ارض فرنسا قد التمسوا من فورهم الطريق الى بلجيكا . وكانت كل محاولة يبذلها وليم البروتستانتي تحيطها زمجرة تصدر من الجموع الفقيرة للمواطنين الثائرين ، ناظرين اليها على انها سعي للاعتداء على حرية الكنيسة الكاثوليكية .

ففي الخامس والعشرين من شهر اغسطس ، شبت ثورة عامة على السلطات الهولندية في بروكسل . وبعد ذلك بشهرين اعلن البلجيكيون استقلالهم ، واختاروا **ليوبولد ٥٠ كوبورج** – عم فيكتوريا ملكة انجلترا – ملكا عليهم . ولقد كان ذلك حلا موفقا لتلك المشكلة ، اذ انفصلت هاتان الدولتان اللتان لم يكن ثمة موجب قط لاتحادهما ، وعاشتا من ثم في سـلام ووئام ، وسلكتا مسلك الجارين الفاضلين الوقورين .

لقد كانت الاخبار في تلك الايام التي لم يكن فيها سوى قليل من السكك الحديدية القصيرة ، تنتقل ببطء ، ولكن عندما بلغ البولنديين أخبار الانتصارات التي حازها الثوار في فرنسا وبلجيكا ... حدث اصطدام مباشر بين البولنديين وحكامهم الروس ، ادى الى حروب مريرة دامت سنة من الزمان ، وانتهت بانتصار الروس انتصارا تاما ، « ووطد النظام على ضفاف الفستولا » على الطريقة الروسية المعروفة . لقد كان نيقولا الاول الذي خلف اخاه الاسكندر على العرش عام ١٨٢٥ يعتقد اعتقادا جازما بحق اسرته الالهي في الحكم . وقد كان آلاف البولنديين اللاجئين الذين وجدوا المأوى في اوربا

الغربية ، شهودا على أن مبادىء الحلف المقدس كانت لاتزال أكثر منمجرد عبارة جوفاء فيروسيا المقدسة.

ومرت ايطاليا ايضا بفترة من الاضطرابات والقلاقل. فان مارى لويز دوقة پارما وزوجة نابليون الامبراطور السابق التى هجرته بعد موقعة واترلو ، كانت قد اقصيت عن بلادها . اما فى الدولة البابوية فقد حاول الشعب المحنق اقامة جمهورية مستقلة . غير ان الجيوش النمسوية سارت الى روما ،وسرعان ماعادت الامور الى ما كانت عليه . وظل مترنيخ يسكن فى « بول پلاتز » مقر وزير خارجية آل هابسبورج ، وعاد جواسيس رجال الشرطة الى عملهم ، واستتب السلام استتبابا . وقد قدر لاوربا ان تظل ثمانية عشر عاما اخرى قبل ان تبذل محاولة ثانية اكثر نجاحا من الأولى لتخليصها من ارث مؤتمر ڤينا الرهيب .

ثم ان فرنسا ، وهى تلك الدولة التى كانت محك الثورات فى اوربا ، هى التى كتب عليها للمرة الثانية ان تصدر الاشارة الاولى للثورة . فقد ولى العرش بعد شارل العاشر ، لويس فيليب ابن دوق اورليانز الشهير ، الذى اعتنق مذهب اليعاقبة ، وصوت مع المصوتين باعدام ابن عمه الملك ، وكان له شأن فى ايام الثورة الاولى ، وكان آنئذ يسمى «فيليب المساواة»، وقد قتل آخر الامر عندما حاول روبسبيير تطهير الأمة من جميع الخونة (وهو الاسم الذى اطلقه على أولئك الذين لايشاركونه آراءه) واضطر ولده فيليب الى الفرار من جيش الثورة . وقد اخذ لويس فيليب الشاب يهيم على وجهه فى كل ناحية ، فقد قام بالتدريس فى احدى مدارس سويسرا ، وانفق سنتين فى اكتشاف مجاهل الناحية الغربية البعيدة من امريكا . وقد عاد لويس الى باريس بعد سقوط نابليون ، وكان اكثر فطنة وذكاء من ابناء عمه من اسرة بوربون .

كان لويس فيليب رجلا طيبا ... يتجول فى المتنزهات العامة وتحت ابطه مظلة من قماش القطن الاحمر تتبعه زمرة من الأطفال ، شأنه شأن ارباب الأسر الطيبين . غير ان فرنسا كانت قد كبرت على الملكية، ولم يعرف لويس ذلك الا فى صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير من عام ١٨٤٨ ، عندما اقتحم جمهور من الناس قصر التويلرى ، وطردوا الملك منه ، واعلنوا الجمهورية .

ولما بلغت هذه الأخبار ڤينا ، رأى مترنيخ لأول وهلة ان ذلك ليس الا تكرارا لما حدث عام ١٧٩٣،وانه يجب على الحلفاء ان يسيروا الى باريس مرة اخرى لوضع حد لهذا السباق الديمقراطى المعيب المنكر. غير أن العاصمة النمسوية قد جاهرت بالثورة بعد ذلك باسبوعين ، وفر مترنيخ من وجه الفوغاء من الباب الخلفى لقصره ، واضطر الامبراطور فردیناند أن يمنح رعاياه دستورا يتضمن معظم المبادىء الثورية التى حاول رئيس وزرائه القضاء عليها خلال السنوات الثلاث والثلاثين الاخيرة .

وفى هذه المرة شعرت اوربا جميعها بهذه الصدمة، واعلنت المجر استقلالها ، ودخلت فى حرب ضد آل هابسبورج تحت قيادة لويس كوسوث ، واستمرت الحرب بين هاتين القوتين غير التكافئتين أكثر من سنة. ثم اخمدت هذه الفتنة آخر الامر على يد جيوش القيصر نيقولا التى عبرت جبال الكرپات ، وجعلت المجر مرة اخرى موطنا آمنا للحكم الاستبدادى . ومن ثم اقام آل هابسبرج محاكم عسكرية غير عادية حكمت بالاعدام على معظم المجريين الذين عجزوا عن قهرهم فى ساحة القتال .

اما فيما يتصل بايطاليا فقد اعلنت جزيرة صقلية استقلالها عن نابلى ، وطردت ملكها من آل بوربون . وكان القتل من نصيب **روسى** رئيس الوزراء فى الاملاك البابوية ، واضطر البابا نفسه الى الفرار ، ولكنه عاد فى السنة التالية على رأس جيش فرنسى ظل فى روما لحماية قداسته من أفراد شعبه حتى عام ١٨٧٠ . ثم استدعى هذا الجيش الى فرنسا ليحميها من البروسيين . واصبحت روما عاصمة لايطاليا . وثار فى الشمال كل من ميلان والبندقية على حكامها النمسويين ، وكان يشد من أزرهما البرت ملك سردانية . على أن جيشا قويا بقيادة **رادتزكى** المسن، سار الى نهر الپو ، واوقع الهزيمة بأهل سردانية بالقرب من كستزا ونوڤارا . واجبر البرت على التخلى عن العرش لابنه فيكتور ايمانويل الذى أصبح بعد ذلك بسنوات قلائل اول ملك على ايطاليا الموحدة.

اما فى المانيا فقد اتخذت ثورة عام ١٨٤٨ ، صورة مظاهرة وطنية كبرى تطالب بالوحدة السياسية وبحكومة نيابية . وثار فى باڤاريا طلبة الجامعة على الملك الذى انفق ماله ووقته على سيدة ايرلندية تدعى لولا مونتز تجيد الرقص الاسبانى ، ويثوى جثمانها الآن فى بترفيلد بنيويورك ، واخرجوه من البلاد. واجبر ملك بروسيا على الوقوف عارى الرأس امام توابيت الضحايا الذين قتلوا ابان الاضطرابات التى حدثت فى الشوارع ، وان يعد بمنح البلاد حكومة دستورية . وفى مارس من عام ١٨٤٩ ، اجتمع البرلمان

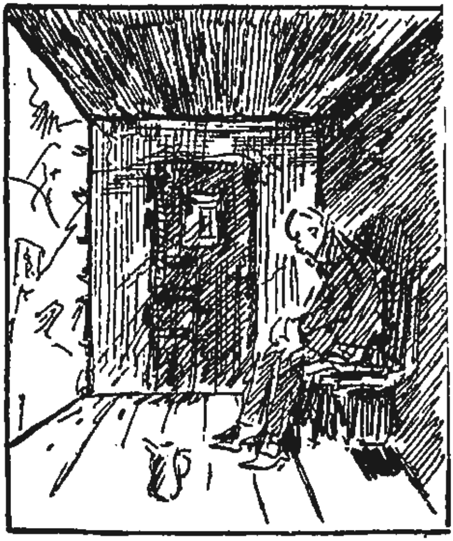
الالمانى المكون من ٥٥٠ نائبا من جميع انحاء البلاد فى مدينة فرانكفورت ، وقدم اقتراحا بان يكون الملك فردريك وليم ملك بروسيا امبراطورا على المانيا الموحدة .

على ان موجة المد هذه قد اخذت عندئذ فى الانحسار ، فقد تنازل الملك فردیناند الضعيف عن العرش لابن أخيه فرانسيس جوزيف ، وظل الجيش النمسوى المدرب تدريبا حسنا مخلصا لقائده الاعلى، وتكاثرت الضحايا على الجلادين . وجرى آل هابسبورج على فطرتهم العجيبة التى كانت تشبه طبائع القطط ، فمكنوا لانفسهم فى البلاد مرة أخرى ، وعززوا بسرعة سيادتهم على اوربا الشرقية والغربية . ولقد ادوا دورهم فى حلبة السياسة بمنتهى البراعة ، واستغلوا تنافس الولايات الالمانية الاخرى فى منع ملك بروسيا من الارتقاء الى لقب الامبراطور . وقد تعلم آل هابسبورج قيمة الصبر ، لانهم قاسوا كثيرا مرارة الهزيمة ، فعرفوا كيف ينتظرون ، وتحينوا الفرص ، فتركوا الاحرار الذين لم يتمرسوا قط بالسياسة يتكلمون ويتكلمون ويتكلمون ، وينتشون بأحاديثهم الشائقة ، فى حين اخذ النمسويون يحشدون جنودهم فى صمت ، ويفضون برلمان فرانكفورت ، ويعاودون توطيد الحلف الالمانى القديم الميئوس منه ، الذى فرضه مؤتمر ڤينا على عالم لم يكن يتوقع ذلك .

على انه كان ثمة بين نواب هذا البرلمان العجيب ، المكون من جماعة من المتحمسين الذين لاينظرون الى الامور نظرة عملية ، سيد من اهل بروسيا يدعى **بسمارك** استغل ماسمعه وما رآه استغلالا حسنا . كان هذا الرجل يزدرى الخطابة من اعماق نفسه لانه كان يعرف (وهذا مايعرفه كل رجال العمل) ان ما من شىء قد تحقق بالكلام . لقد كان **بسمارك** وطنيا مخلصا على طريقته ، تمرس فى مدرسة الدبلوماسية القديمة ، وكان فى استطاعته ان يبد خصومه فى الكذب ، كما كان يستطيع ان يبذهم فى المشى وتناول الشراب والركوبه سواء بسواء .

لقد اقتنع بسمارك بانه يجب احالة هذا الحلف المفكك الذى يضم ولايات صغيرة .. الى دولة موحدة اذا اريد لهذه الدولة أن تقوم لها قائمة بين سائر الدول الاوربية . وقد نشأ بسمارك فى كنف آراء العهد الاقطاعى التى تؤمن بالولاء للحكام ، وكان هو من اخلص خدام اسرة هوهنزلرن ، ومن ثم قرر ان هذه الاسرة يجب أن تحكم الدولة الجديدة لانها اولى بذلك من آل هابسبورج العاجزين ، وكان باوغ هذه الغاية يقتضيه أن يتخلص أول الامر من النفوذ النمسوى ، فأخذ يعد العدة لانجاز هذه المهمة الشاقة.

وكانت ايطاليا فى الوقت نفسه قد حلت مشكلتها ، وتخلصت من سيدها النمسوى البغيض . وكانت وحدة ايطاليا من صنيع ثلاثة من الرجال : هم كافور ومازيني وغاريبالدى . وكان كافور المهندس المدنى القصير النظر ذو العوينات ذات الاطار المصنوع من الصلب ، هو الذى قام بدور الرائد السياسى الحذر . اما مازيني الذى قضى معظم ايامه مختبئا فى اقبية المنازل فى شتى انحاء اوربا ، مختفيا عن اعين رجال الشرطة النمساويين ، فقد كان هو المحرض الشعبى. واما غاريبالدى وعصابته من ذوى القمصان الحمراء والفرسان الفلاظ ، فقد كان يستثير خيال الجماهير .



مازينى

وكان كل من مازيني وغاريبالدى يؤمن بالنظام الجمهورى فى الحكم ، على أن كافور كان من أتباع الملكية . وقد اقر كل من مازيني وغاريبالدى وجهة نظر كافور لعلمهما بتفوقه وكفايته فى مثل هذه المسائل السياسية العملية ، مضحين باطماحهم فى سبيل الهدف الاسمى الذى يصبو اليه وطنهم المحبوب.

وكان هوى كافور مع بيت سردانية ، كما كان هوى بسمارك مع آل هوهنزلرن . ولقد أخذ كافور يعمل بمنتهى الحذر والفطنة على التمكين للملك السردانى من أن يتولى قيادة الشعب الايطالى

باسره ، ولقد ساعدته الظروف المضطربة التى كانت تمر بها سائر البلاد فى اوربا مساعدة كبيرة فى تحقيق خططه . وما من دولة اعانت ايطاليا على بلوغ استقلالها اكثر من فرنسا جارتها القديمة التى كانت تثق فيها حينا ، وتتوجس منها احيانا .

وقد حدث أن انتهى فجاة اجل الجمهورية فى فرنسا ، تلك الدولة المضطربة ، فى شهر نوفمبر من عام ١٨٥٢ ، ولكن هذه النتيجة كانت متوقعة . ذلك ان نابليون الثالث ابن لويس بونابرت ملك هولندة السابق ، وابن اخى نابليون العظيم ، عمد الى اعادة الامبراطورية الى فرنسا ، وجعل نفسه امبراطورا بفضل الله وارادة الشعب .

لقد كان هذا الشاب الذى تلقى علومه فى المانيا والذى كان يمزج فرنسيته بالحروف الحلقية التيوتونية الغليظة ، شأنه شأن نابليون الاول الذى داب على التحدث بلغة وطنه الثانى مشوبة بتلك اللكنة الايطالية القوية — كان هذا الشاب يحاول جاهدا أن يستغل التقاليد النابليونية لصالحه . على أن لويس كان له أعداء كثيرون ، ولم يستشعر الاطمئنان كل الاطمئنان من ناحية سيطرته على عرشه الجديد . صحيح انه اكتسب صداقة الملكة فيكتوريا ووزرائها ، وهو امر لاشك انه كان عظيم الاهمية ، الا أن ملوك الدول الاوربية الاخرى كانوا يعاملون الامبراطور الفرنسى معاملة تنطوى على الغطرسة المهينة ، وكانوا يسهرون الليل فى تدبير وسائل جديدة تمكنهم من اظهار احتقارهم العميق لاخيهم الطيب محدث النعمة .

واضطر نابليون الى التماس وسيلة يحطم بها هذه المعارضة بالوعد أو بالوعيد . وكان يدرك تمام الادراك أن كلمة المجد مازال لها سحر فى نفوس رعاياه . ورأى نابليون أن لا مناص من المغامرة فى سبيل عرشه ، ومن ثم صحت عزيمته على ان يغامر فى سبيل الامبراطورية مغامرة اجل واخطر ، فاتخذ من هجوم روسيا على تركيا ذريعة لاشعال حرب القريم ، تلك الحرب التى قاتلت فيها فرنسا وانكلترا الروسيا من اجل السلطان . وكانت هذه الحرب مغامرة باهظة التكاليف قليلة الثمرة ، ولم تجن منها فرنسا أو انكلترا او الروسيا مجدا يذكر .

غير ان حرب القريم قد تمخضت عن خير واحد ، ذلك انها اعطت سردانية فرصة قدمت فيها متطوعيها الى الجانب الرابح . فلما اعلن الصلح واتت كافور الفرصة لمطالبة فرنسا وانكلترا بالاعتراف بفضله ، واستغل هذا الايطالى الماهر الحالة الدولية ليحصل على اعتراف بأن سردانية دولة من اهم الدول الاوربية ، فاثار الحرب بين سردانية والنمسا فى شهر يونيه من عام ١٨٥٩ . ولقد ضمن كافور لنفسه مساعدة نابليون نظير التنازل له عن اقاليم سافوى ومدينة نيس التى كانت فى حقيقة أمرها مدينة ايطالية . ولقد اوقعت الجيوش الفرنسية والايطالية الهزيمة بالنمسا عند ماجنتا وسولفرينو ، وادمجت الاقاليم والدوقيات التى كانت فى يد النمسا من قبل فى مملكة ايطاليا الموحدة . واصبحت فلورنسا عاصمة ايطاليا الجديدة حتى عام ١٨٧٠ عندما استدعت فرنسا جنودها من روما لرد عادية الالمان . وما ان غادر الفرنسيون ايطاليا حتى دخلت الجيوش الايطالية المدينة الخالدة واتخذت أسرة سردانية مقرها فى قصر الكيرينال القديم الذى شيده احد البابوات القدامى على أطلال حمامات الامبراطور قسطنطين .

على ان البابا عبر نهر التيبر ، واعتكف وراء أسوار قصر الفاتيكان الذى كان مقر كثير من اسلافه منذ ان عادوا من منفاهم فى أفنيون عام ١٣٧٧ ، ولقد رفع البابا صوته عاليا محتجا على هذا الاغتصاب الغاشم لاملاكه ، وبعث برسائل يستنجد فيها باولئك الكاثوليك المخلصين الذين جنحوا الى مشاركته فى ضرائه . على ان عددهم كان قليلا آخذا فى النقصان على الدوام . وما ان تخلص البابا من اعباء الحكم حتى استطاع ان يكرس وقته كله للمسائل الروحية .

ولقد اتخذت البابوية لنفسها مقاما جديدا جليلا بترفعها عن منازعات الساسة الاوربيين الصغيرة ، فافاد ذلك الكنيسة فائدة كبيرة ، وجعلها قوة دولية ذات شأن فى التقدم الاجتماعى والدينى ، ووقفت من المشاكل الاقتصادية الحديثة موقفا احصف من معظم الطوائف البروتستانتية . ومن ثم باءت المحاولة التى بذلها مؤتمر فينا لحل المسألة الايطالية بجعل شبه الجزيرة الايطالية ولاية نمساوية ، بالخيبة والخذلان .

على ان المسألة الالمانية ظلت حتى ذلك الحين من غير حل ، اذ ثبت انها اعقد المسائل جميعا . لقد ادى فشل ثورة عام ١٨٤٨ الى هجرة جميع العناصر الحرة النشيطة فى الشعب الالمانى . فقد نزح هؤلاء الشبان الى الولايات المتحدة الامريكية والبرازيل والى المستعمرات الجديدة فى آسيا وأمريكا . وأتم عملهم فى المانيا اناس من طراز آخر .

كان يمثل مملكة بروسيا فى مجلس النواب الالمانى الجديد الذى اجتمع فى فرانكفورت ، بعد ان انحل البرلمان الالمانى وفشل الاحرار فى اقامة دولة موحدة ،

أوتو فون بسمارك الذى طرقنا الحديث عنه فى الصفحات القليلة السابقة . وما ان حان الوقت الذى نحن بصدده حتى كان بسمارك قد حاول ان يكتسب ثقة ملك بروسيا التامة ، وكان هذا هو كل ماموله ، اذ لم يكن يعبأ قط برأى البرلمان او الشعب البروسى ، ذلك انه شاهد بعينيه هزيمة الاحرار ، وعرف انه لا يستطيع التخلص من النمسا الا بالحرب ، لذلك بدأ بتقوية الجيش البروسى . وضاق البرلمان البروسى باساليب بسمارك الاستبدادية ، فرفض ان يوافق على الاعتمادات اللازمة . اما بسمارك فلم يكلف نفسه مؤونة مناقشة الامر ، بل مضى فى عمله وزاد جيشه مستعينا بالاموال التى قدمها مجلس النبلاء البروسى والملك، واخذ من بعد يبحث عن قضية قومية يتخذها وسيلة لخلق موجة عظيمة من الوطنية بين جميع افراد الشعب الالمانى .

كان يقوم فى شمالى المانيا دوقيتا شلزويج وهولشتين اللتان كانتا منذ العصور الوسطى مصدر متاعب وقلاقل . وكان يسكن هذين الاقليمين طائفة من الدانيماركيين وطائفة من الالمان ، على ان هذين الاقليمين لم يكونا جزءا لا يتجزأ من الدولة الدانيماركية على الرغم من انهما كانا خاضعين لحكم ملك الدانيمارك ، فادى ذلك الى قيام مصاعب لا حد لها . ولقد شاءت العناية الالهية ان تحملنى على اثارة هذه المسألة المنسية التى حلت الآن فيما يظهر بمقتضى نصوص معاهدة فرساى* غير ان الالمان فى هولشتين كانوا يجاهرون بالانتقاص من قدر الدانيماركيين ، وكان الدانيماركيون فى شلزويج يفاخرون كثيرا بدانيماركيتهم . وكانت اوربا باسرها تناقش هذه المسألة . واصغى أعضاء نوادى المنشدين (Männerchors) ونوادى الرياضيين (Turnvereins) فى المانيا للخطب المثيرة عن « اخوانهم المشردين » . واخذ رؤساء الوزراء على اختلافهم يحاولون تبين حقيقة المسألة فى الوقت الذى عبات فيه بروسيا جيوشها لتخليص الاقليمين المفقودين . ولم تكن النمسا بوصفها على رأس الحلف الالمانى لتسمح لبروسيا بالتصرف فى هذه المسألة الهامة بمفردها ، فحشدت هى ايضا جيوش آل هابسبورج ، وعبرت جيوش الدولتين العظيمتين الحدود الدانيماركية واحتلت الدوقيتين بعد أن ابلى الدانيماركيون فى القتال أحسن البلاء . واستغاثت الدانيمارك بالدول الاوربية ، ولكنها كانت فى شغل شاغل عنها ، وبذلك ترك الدانيماركيون التعساء ليلاقوا مصيرهم .

وبعد ذلك اخذ بسمارك يعد العدة للمنظر الثانى من برنامجه الامبراطورى ، فقد اتخذ من مسألة تقسيم الغنائم والاسلاب مثارا للنزاع بينه وبين النمسا . ووقع آل هابسبورج فى الفخ الذى نصبه لهم ، ذلك أن الجيش البروسى الجديد ، الذى انشاه بسمارك وقواده المخلصون ، فزا بوهيميا . وفى اقل من ستة أسابيع حلت الهزيمة الماحقة بآخر الجيوش النمسوية عند **كونيجراتز وسادوا** ، واصبح الطريق مفتوحا الى ڤينا . غير أن بسمارك لم يكن يريد ان يدفع الامور الى أكثر من ذلك ، فقد ادرك انه فى حاجة الى الابقاء على بعض الاصدقاء فى اوربا . ففرض على آل هابسبورج المنهزمين شروطا للصلح معتدلة غاية فى الاعتدال ، على أن يتنازلوا عن رياستهم للحلف الالمانى . وكان بسمارك أقل اعتدالا ورحمة مع الدويلات الالمانية التى انحازت الى النمسا ، اذ ضمها الى بروسيا . وعند ذلك الفت معظم الدول الشمالية فيما بينها هيئة جديدة اطلق عليها اسم الحلف الالمانى الشمالى ، وجعلت بروسيا الظافرة نفسها بصفة غير رسمية زعيمة على الشعب الالمانى.

ولقد وقفت اوربا مشدوهة من السرعة التى تمت بها هذه الوحدة . ولم تحفل انكلترا بذلك اى احتفال ، اما فرنسا فقد اظهرت من الشواهد مايدل على عدم ارتياحها . وكان سلطان نابليون على الشعب الفرنسى يضمحل اضمحلالا مطردا ، ذلك أن حرب القريم كانت قد كلفت فرنسا كثيرا ، ولم تحقق لها شيئا .

وغامرت فرنسا مغامرتها الثانية عام ١٨٦٣ عندما حاول جيش فرنسى ان يفرض الغراندوق النمسوى مكسمليان امبراطورا على الشعب المكسيكى، الا انه ما ان انتصر اهل الشمال فى الحرب الأمريكية الاهلية ، حتى انتهت هذه الحرب بكارثة ، ذلك ان حكومة واشنطن اجبرت الفرنسيين على سحب جنودهم ، فاتاحت لاهل المكسيك الفرصة لتحرير بلادهم من الاعداء ، واطلاق النار على هذا الامبراطور المقوت .

وقضت الضرورة بأن يضفى على العرش النابليونى ثوب جديد من المجد ، ورأت فرنسا ان الاتحاد الالمانى

* ظهرت الطبعة الانجليزية الاولى من الكتاب عام ١٩٢٢ . دار الشعب

الشمالى خليق بأن يصبح فى بضع سنوات منافسا خطرا لها . فرأى نابليون ان خوض الحرب مع المانيا قد يصلح من شأن اسرته . واخذ يتلمس الاسباب لاشعال هذه الحرب ، وواتته اسبانيا بسبب ، وهى الدولة التعسة التى كانت فريسة ثورات لاعداد لها.

لقد اتفق ان كان العرش الاسبانى خاليا فى هذا الوقت نفسه ، فعرض على الفرع الكاثوليكى من اسرة هوهنزلرن . وعارضت الحكومة الفرنسية فى هذا العرض ، فما كان من أسرة هوهنزلرن الا ان اعتذرت بادب عن قبوله ، الا ان نابليون الذى كانت تبدو عليه آنئذ امارات المرض، كان واقعا الى حد كبير تحت نفوذ زوجته الجميلة اوجينى ده مونتيجو ، وهى ابنة شريف اسبانى، وحفيدة وليم كركپاتريك احد قناصل امريكا فى مالقة ، وهى البلد التى تصدر الاعناب . وكانت اوجينى عظيمة الحظ من الذكاء ، الا انها كانت سيئة التربية ، شأنها فى ذلك شأن معظم نساء اسبانيا فى ذلك الوقت. كانت واقعة تحت رحمة مشيريها من رجال الدين ، وكان هؤلاء السادة الافاضل لا يضمرون الود لملك بروسيا البروتستانتى . وقد نصحت اوجينى الامبراطور زوجها ، فقالت له : كن شجاعا ، ولكنها اغفلت الشطر الثانى من هذا المثل الفارسى المشهور الذى يحذر البطل ، فيقول : كن شجاعا ولكن لا تجعل شجاعتك تجاوز الحد . ووثق نابليون بقوة جيشه ، فوجه خطابا الى ملك بروسيا ، واصر على ان يعطيه الملك المواثيق بانه « لن يسمح بترشيح اى امير من اسرة هوهنزلرن لتولى عرش اسبانيا » . ولما كان آل هوهنزلرن قد تخلوا وشيكا عن هذا الشرف ، فان هذا الطلب كان فى غير موضعه . وقد رد بسمارك على الحكومة الفرنسية بذلك ، على ان نابليون لم يرض عن هذا الرد .

كان ذلك فى عام ١٨٧٠ ، وكان الملك وليم قد ركب البحر الى امز ، وحدث يوما ان اتصل به الوزير الفرنسى ، وحاول أن يستانف مناقشة هذه المسالة فاجابه الملك فى لطف بالغ ، بأن اليوم يوم جميل ، وان المسألة الاسبانية قد اسدل عليها الستار ، وليس للحديث فى هذا الموضوع من بعد بقية .

وارسل تقرير عن هذه المقابلة بالبرق الى بسمارك جريا على الاصول المتبعة فى مثل هذه الاحوال، وكان بسمارك هو الذى يسير دفة الشئون الخارجية جميعا . وصاغ بسمارك هذه البرقية بحيث تفيد منها الصحافة البروسية والفرنسية . وقد لامه كثير من الناس على هذا الفعل ، على أن بسمارك كان فى مقدوره ان يتعلل بأن تحوير الاخبار الرسمية ، كان من حقوق جميع الحكومات المتمدينة منذ اقدم العصور. ولما طبعت هذه البرقية المعدلة شعر اهل برلين الافاضل ان ملكهم الشيخ المبجل ذا الشوارب البيضاء الجميلة قد اهانه فرنسى قمىء متعجرف . كما أن اهل باريس الأفاضل استشاطوا غضبا، لان وزيرهم المهذب الرفيع الخلق قد طرده خادم بروسى من خدام الملك . وهكذا اشتبكت الدولتان فى الحرب ، وفى اقل من شهرين كان الجزء الاكبر من جيش نابليون ، قد وقع فى أسر الالمان . وحلت نهاية الامبراطورية الثانية ، واخذت الجمهورية الثالثة تتخذ العدة لدفع عادية المغيرين الالمان عن باريس .

وقد ثبتت باريس للهجوم خمسة اشهر طوال ، وحدث قبل استسلامها بعشرة ايام ان نودى بملك بروسيا امبراطورا بالقرب من قصر **فرساى** ، وهو القصر الذى ابتناه الملك لويس الرابع عشر الذى كان عدوا لدودا للالمان . وتمت المناداة بين قصف المدافع مؤذنة اهل باريس الجائعين بان امبراطورية المانية جديدة قد حلت محل الاتحاد القديم المسالم الذى كان يضم الحكومات والدويلات التيوتونية .

وبهذه الطريقة العنيفة حلت آخر الامر المسالة الالمانية . وما ان انقضى عام ١٨٧١ ، حتى كانت جميع اعمال مؤتمر ڤينا قد ذهبت اباديد بعد مضى ست وخمسين سنة على اجتماع المؤتمر المشهود فى ڤينا . لقد حاول كل من مترنيخ والاسكندر وتاليران ، ان يفيئوا على اهل اوربا سلاما دائما ، الا ان الاساليب التى اصطنعوها قد افضت الى قيام حروب وثورات لاعداد لها ، واعقب الشعور الذى ساد القرن الثامن عشر بأن الناس جميعا اخوة ، عصر تفشت فيه القومية المتطرفة تفشيا لم ينته اجله بعد .

على ان العالم الذى عاش فيه اهل اوربا كان يتغير تغيرا تاما فى الوقت الذى كانوا يقاتلون فيه من اجل استقلالهم القومى ، وذلك بفضل سلسلة من المخترعات جعلت الآلة البخارية الساذجة التى استحدثت فى القرن الثامن عشر أعظم واخلص خادم للانسان

عصر الآلة

توفى اعظم محسن الى الجنس البشرى منذ نيف ونصف مليون سنة خلت . وكان هذا المحسن مخلوقا مشعرا، منخفض الجبهة، غائر العينين، غليظ الفك ، قوى الاسنان حتى لكانه نمر . ولعله كان قمينا بان يبدو قبيح المنظر فى مجتمع من العلماء المحدثين ، ولكنهم احرياء بان يبجلوه بوصفه سيدهم، ذلك انه كان يستخدم حجرا يكسر به بندقة وعصا يرفع بها صخرة كبيرة . وهو الذى اخترع المطرقة والرافعة وهما اول ادواتنا ، وفعل مالم يفعله اى انسان آخر من بعده ليهيىء للبشر ذلك الامتياز الهائل الذى رفعهم فوق سائر الحيوانات الاخرى التى تشاركهم العيش على هذا الكوكب .

ومن ثم اخذ الانسان يزيد اسباب حياته يسرا بفضل استخدامه عددا اكبر من الادوات . وقد اثارت العجلة الاولى (وهى قرص اتخذ من شجرة قديمة) نفوس الجماعات التى عاشت سنة ١٠٠,٠٠٠ ق . م بمقدار ما اثارت الطائرة مجتمعنا منذ سنين قلائل فحسب .

وتروى فى واشنطون قصة مدير مكتب لتسجيل المخترعات ، الذى اقترح فى مستهل العقد الثالث من القرن الماضى ، أن يلغى هذا المكتب لان « كل ما يمكن اختراعه قد اخترع » . ولا شك ان ثمة شعورا من هذا القبيل قد انتشر فى عالم ما قبل التاريخ عندما رفع اول شراع على طوف ، واصبح القوم قادرين على الانتقال من مكان الى مكان من غير حاجة الى التجديف ، او دفع الطوف بالقضيب او جذبه من الشاطىء .

والحق أن من اهم فصول التاريخ ذلك الجهد الذى يبذله الانسان ليجعل شخصا غيره ، أو شيئا من الاشياء، يقوم بعمله ، فى حين يستمتع هو بوقت فراغه يقضيه فى الجلوس فى الشمس، أو فى رسم صور على الصخور او فى تدريب صغار الذئاب او اشبال النمور ، على سلوك مسلك الحيوانات المستأنسة الوديعة .

والواقع انه كان من الميسور على الدوام فى الازمنة السحيقة ان يستعبد الانسان جارا له ضعيفا ، ويحمله على القيام بالمهام الحقيرة فى الحياة . ومن الاسباب التى جعلت اليونان والرومان الذين كانوا لايقلون ذكاء عنا ، يعجزون عن استحداث ادوات اهم من ذلك ... انتشار الرق عندهم ، ولذلك لم يكن ثمة مايدعو اماما من ائمة الرياضيات الى تضييع وقته فى الاسلاك والبكر واسنان الدواليب وملء الجو بالضجيج والدخان ، فى حين كان فى مقدوره ان يذهب الى السوق ويبتاع كل ما يحتاجه من العبيد بازهد الاثمان .

وكان الرق فى العصور الوسطى قد الغى ولم يبق الا نوع هين هو رقيق الارض ، ومع ذلك فان نقابات ارباب الحرف لم تشجع فكرة استخدام الآلات لانهم راوا ان ذلك يؤدى الى تبطل عدد كبير من اخوانهم . زد على ذلك ان اهل العصور الوسطى لم يكونوا يحفلون اى احتفال بانتاج مقادير كبيرة من البضائع. لقد كان حائكوهم وقصابوهم ونجاروهم يعملون لسد الزم حاجات المجتمع الصغير الذى يعيشون فى كنفه ، ولم تكن لهم رغبة فى منافسة جيرانهم او انتاج ما يزيد على حاجتهم الملحة .

اما فى عصر النهضة فقد اصبحت الكنيسة لاتستطيع ان تشتد فى اضطهادها على البحوث العلمية ، كما كان شانها من قبل ، ولذلك اخذت طائفة كبيرة من الرجال تخصص حياتها للرياضيات والفلك وعلم الطبيعة والكيمياء . وقد نشر رجل اسكتلندى يدعى **جون نابير** — قبل اندلاع حرب الثلاثين سنة بعامين — كتيبا يصف ذلك الكشف الجديد للوغاريتمات . وفى خلال هذه الحرب اتم **جونفريد ليبنتز** الليپسكى طريقة المتسلسلات اللانهائية وبلغ بها مرتبة الكمال . وولد **نيوتن** الفيلسوف الانكليزى العظيم فى الطبيعيات قبل عقد صلح وستفاليا بثمانى سنوات ، وفى السنة نفسها توفى **غاليلو** الفلكى الايطالى . وكانت حرب الثلاثين سنة قد اتت على رخاء اوربا الوسطى فى ذلك الحين ، ونشأ اهتمام مفاجىء ، وان يكن عاما ، بالكيميا ، وهو ذلك العلم الزائف العجيب الذى ظهر فى القرون الوسطى واطمع الناس فى احالة المعادن الخسيسة الى ذهب . وقد تبين استحالة ذلك ، على

ان ارباب هذه الصناعة وقعوا فى معاملهم على عدة افكار جديدة ، وساعدوا اعقابهم من الكيمائيين فى عملهم مساعدة عظيمة .

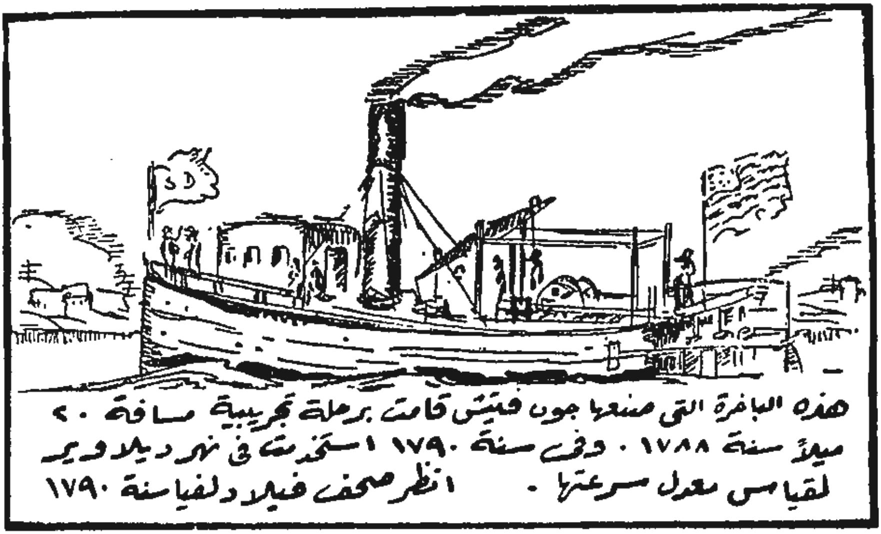
وقد هيأ عمل هؤلاء جميعا للعالم اساسا علميا ركينا استطاعوا بفضله ان ينشئوا اشد الآلات تعقيدا . وقد استغل طائفة من الرجال العمليين هذا الاساس استغلالا طيبا . واستخدمت العصور الوسطى الخشب فى صنع تلك القطع القليلة من الآلات التى كانت لازمة لهم . الا ان الخشب كان يبلى بسهولة ، اما الحديد فكان افضل من الخشب بكثير ، على ان الحديد كان نادرا الا فى انكلترا . ومن ثم كان صهر الحديد يتم معظمه فى هذه البلاد ، وكان ذلك يتطلب نارا عظيمة . وكان يتحصل على هذه النار بالخشب ، الا ان خشب الغابات اخذ ينضب شيئا فشيئا . عند ذلك استعمل الفحم الحجرى ، اى الاشجار المتحجرة المتخلفة من الازمان السابقة على التاريخ . ولكن الفحم يتطلب كما تعلمون حفر الارض ثم نقل هذا الفحم الى افران الصهر ، وكان يتعين ايضا تجفيف المناجم من المياه التى تغزوها باستمرار . وكانت هاتان المشكلتان تقتضيان الحل السريع . وكان يستطاع فى ذلك الحين جر عربات الفحم الحجرى مؤقتا بوساطة الخيل ، ولكن مشكلة نزح المياه كانت تتطلب استخدام آلات خاصة . وانهمك عدد من المخترعين يحاولون ايجاد حل لهذه المشكلة ، وكلهم عالم بانه لابد من استخدام البخار فى آلتهم الجديدة هذه . وقد وصف لنا **هيرون** الاسكندرى الذى عاش فى القرن الاول قبل الميلاد كثيرا من الآلات اديرت بالبخار . وكان الناس فى عصر النهضة قد خامرتهم فكرة اقامة مركبات حربية تدار بالبخار . ويحدثنا المركيز **ورسستر** معاصر **نيوتن** عن آلة بخارية فى مؤلفه عن المخترعات . وبعد ذلك بقليل اى فى عام ١٦٩٨ ، قدم **توماس سيقرى** من اهالى لندن طلبا لتسجيل مضخة اخترعها . وكان رجل هولندى يدعى **كريستيان هويجنز** يحاول فى الوقت نفسه تحسين آلة استخدم فيها البارود لاحداث انفجارات منتظمة ، على نحو يشبه شبها كبيرا الطريقة التى نتبعها فى استخدام الفازولين فى محركاتنا .

وكان الناس فى جميع انحاء اوربا مهتمين بهذه الفكرة . وكان **دينيس پاپان** الفرنسى صديق **هويجنز** ومساعده ، يجرى تجاربه على آلة بخارية فى بلاد مختلفة . وقد اخترع هذا الرجل عربة صغيرة تدار بالبخار ، وقاربا مزودا بطارة تجديف تسيره . ولكن السلطات صادرت قاربه عندما حاول ان يسير به فى رحلته بسبب شكوى قدمها اتحاد المراكبية خوفا من ان يحرمهم هذا القارب من أرزاقهم .

ومات پاپان آخر الأمر فى لندن ، وقد برح به الفقر ، لانه انفق كل ماله على مخترعاته . وعند وفاة پاپان كان رجل آخر من المتحمسين للآلات يدعى **توماس نيوكومن** يعالج مسألة صنع مضخة بخارية جديدة . وبعد ذلك بخمسين سنة حسن **جيمس واط** — وكان صانع آلات من مدينة جلاسجو — آلة **توماس** . وفى عام ١٧٧٧ زود **واط** العالم بأول آلة بخارية ثبتت قيمتها العملية بحق .

على ان العالم السياسى كان قد اصابه تغير كبير فى اثناء القرون التى اجريت فيها تجارب الآلة الحرارية . ذلك ان البريطانيين حلوا محل الهولنديين فى نقل تجارة العالم بصفة عامة ، وفتحوا مستعمرات جديدة ، وكانوا يحملون المواد الخام التى تنتجها المستعمرات الى انكلترا ، فيحيلونها هناك الى بضائع جاهزة ، ثم يصدرونها الى اركان العالم الاربعة . وكان اهل جورجيا وكارولينا قد شرعوا خلال القرن السابع عشر يستنبتون شجرة جديدة تغل ضربا عجيبا من مادة صوفية عرفت بصوف القطن . وكانت هذه المادة ترسل الى انكلترا بعد جنيها فينسج منها اهل لانكشير نسيجا . وكان هذا النسج يتم باليد وفى بيوت العمال . وسرعان ما ادخلت على حرفة النسيج تحسينات عدة . وفى عام ١٧٣٠ اخترع جون كاى « المكوك » ، وفى عام ١٧٧٠ سجل **جيمس هارجريفز** « دولاب الغزل » الذى اخترعه . واخترع **ايلى هوايتنى** الامريكى ، دولاب حلج القطن الذى ينقى القطن من بذرته ، وكان هذا العمل يتم باليد بمعدل رطل فقط من القطن يوميا . واخيرا اخترع **ريتشارد آركرايت** وصاحب الفضيلة **ادموند كارترايت** آلات نسج كبيرة كانت تدار بقوة الماء . ثم حدث فى العقد الثامن من القرن الثامن عشر ، اى فى الوقت نفسه الذى شرع فيه مجلس الطبقات فى فرنسا يعقد اجتماعاته المشهورة التى رمى بها الى قلب الاوضاع السياسية فى اوربا .. ان اعدت آلات **واط** بحيث تستطيع تسيير آلات النسج التى اخترعها **آركرايت**، وقد احدث ذلك ثورة اقتصادية واجتماعية غيرت الصلات القائمة بين الناس فى كل ناحية من نواحى العالم تقريبا .

وما ان نجحت الآلة الثابتة حتى وجه المخترعون



اول سفينة بخارية

همهم الى مشكلة القوارب والعجلات ذات المحرك مستعينين فى ذلك بالوسائل الآلية . وقد رسم **واط** نفسه الخطط لصنع قاطرة بخارية . على انه حدث قبل ان يتم **واط** فكرته ، ان قامت قاطرة صنعها **ريتشارد ترفيثك** بنقل حمل عشرين طنا سنة ١٨٠٤ فى « بنى داران » فى منطقة التعدين بويلز .

وكان فى باريس فى ذلك الوقت جوهرى امريكي رسام لصور الاشخاص يدعى **روبرت فولتن** يحاول اقناع نابليون باستخدام قاربه الغواص ، زاعما انهذه الغواصة « **نوتيلوس** » وقاربه البخارى قمينان بان يحققا للفرنسيين القضاء على سيطرة انكلترا على البحار ..

على ان فكرة **فولتن** عن صنع قارب بخارى لم تكن مبتكرة . ولا شك فى انه استقاها من **جون فتش**، وهو رجل عبقرى فى الآلات من اهل كونكتيكت، سخرت سفينته البخارية التى صنعها بمهارة مياه نهر دلاوير فى وقت متقدم يرجع الى عام ١٧٨٧ . على ان نابليون ومشيريه من العلماء لم يؤمنوا بالقيمة العملية لهذا القارب ذى المحرك الذى يسير من تلقاء ذاته . وقد سارت هذه السفينة الصغيرة الاسكتلندية الصنع فى نهر السين ، واخذت تنفث دخانها فى رشاقة وخفر ، ومع ذلك فان الامبراطور العظيم اهمل الافادة من هذا السلاح القتال الذى كان حريا أن يثار له من وقعة ترفلجار .

اما من ناحية **فولتن** فانا نجده قد عاد الى الولايات المتحدة . وكان هذا الرجل من رجال الاعمال الواقعيين ، ومن ثم انشا شركة ناجحة للبواخر هو و**روبرت لفنجستون** ، احد الموقعين على « اعلان الاستقلال » ، وكان روبرت وزير امريكا المفوض فى فرنسا عندما كان **فولتن** فى باريس يحاول أن يبيع اختراعه . وقد منحت الباخرة الاولى لهذه الشركة حق احتكار جميع مياه ولاية نيويورك ، وكانت هذه السفينة المسماة باسم « كليرمونت » مجهزة بآلة صنعها **بولتون و واط** فى برمنجهام بانكلترا ، وقدبدات رحلاتها المنتظمة بين نيويورك والبانى عام ١٨٠٧ .

اما **جون فتش** المسكين ـ وهو ذلكم الرجل الذى استطاع أن يستخدم الزورق البخارى فى الاغراض التجارية ، قبل أن يستطيع احد ذلك بأمد طويل ـ فقد مات ميتة كئيبة . ذلك ان صحة ذلك الرجل ساءت وخلا جيبه من المال ، وادركه الافلاس عندما دمر زورقه الخامس الذى كان يدار بمحرك ذى لولب، وسخر به جيرانه ، كما قدر لهم أن يسخروا بعد ذلك بمائة سنة بالأستاذ **لانجلى** عند ما انشا طائرته العجيبة . وكان **فتش** يامل ان يزود بلاده بوسيلة سهلة لركوب متن انهار الغرب الكبرى ، على ان مواطنيه آثروا الرحيل على زوارق مفلطحة ، او السفر على الاقدام . وفى عام ١٧٩٨ تملكه اليأس ، وبرح به البؤس فانتحر بالسم . .

على انه حدث بعد عشرين سنة ان استطاعت الباخرة « **سافناه** » التى بلغت حمولتها ١٨٥٠ طنا



منشأ السفينة

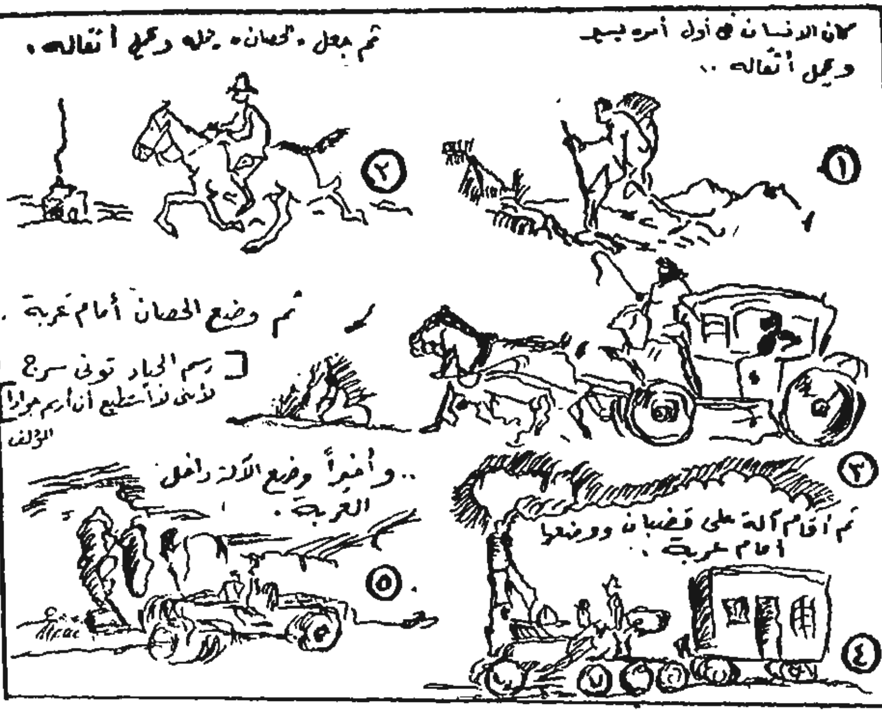
وسرعتها ست عقد فى الساعة (أى ربع سرعة الباخرة « موريتانيا » تقريبا) ان تعبر المحيط من سافنـــاه الى ليفربول فى اثنين وعشرين يوما ، وهى سرعة كانت قياسية فى ذلك الوقت . وعندئذ انتهت سخرية الجماهير ، ونسب الناس فى حماستهم فضل هــذا الاختراع الى غير صاحبه .

وبعد ذلك بست سنوات صنع **جورج ستيفنسون** ، ذلكم الرجل الاسكتلندى الذى كان قد داب على صنع قاطرات لنقل الفحم من المنجم الى أفران الصهر ومصانع القطن — قاطرته السفرية التى خفضت استهلاك الفحم بنسبة ٧٠ ٪ تقريبا ، وجعلت من الميسور مد اول خط حديدى منتظم للسفر من مانشستر الى ليفربول. فكان الناس ينتقلون من مدينة الى مدينة بسرعـــة خمسة عشر ميلا فى الساعة ، وهى سرعة لم يسمع بها من قبل . وزادت هذه السرعة بعد اثنى عشر عاما الى عشرين ميلا فى الساعة . اما فى الوقت الحالى* فان اية سيارة من سيارات فورد — وهى تلك الثمرة المباشرة للآلات الصغيرة ذات المحرك التى صنعهـــا **ديملر وليفاسور** فى العقد الثانى من القرن الماضى — تستطيع ، اذا كانت فى حالة جيدة ، ان تتفوق على « الغلايات النفاخة » الاولى .

واخذ هؤلاء المهندسون الذين طبعت عقولهم على النظر الى الامور نظرة عملية يحسنون آلاتهم الحرارية المجلجلة ، فى حين كانت طائفة من ارباب العلم البحت — وهم اولئك الناس الذين درجوا على انفاق اربع عشرة ساعة كل يوم فى دراسة الظواهر العلمية النظرية التى لايرجى أن تتقدم صناعة الآلات بدونها .. يتبعون سبيلا جديدا مبشرا بأن يهديهم الى ادق أسرار الطبيعـــة وخوافيها .

ولقد استطاع عدد من الفلاسفة الاغريق والرومان منذ الفين من السنين (ونخص بالذكر منهم **طاليس المليتوسى وپليناس** الذى قتل وهـــو يحاول دراســـة ثوران بركان ڤيزوف سنة ٧٩ عندما طمر هـــذا البركان مدينتى پومپى وهرقلانيوم بحممه) ان يشاهدوا بقايا عجيبة من قش وريش طيور عالقة بالقرب من قطعة من الكهرمان دلكت بخرقة من الصوف . على ان فلاسفة العصور الوسطى لم يكونوا يحفلون بهذه القوة الكهربائية الخفية ، فما ان انقضى عصر النهضة

* الربع الاول من القرن العشرين . دار الشعب



منشأ السيارة

حتى كتب **وليم جلبرت** الطبيب الخاص للملكة اليصابات رسالته المشهورة عن طبيعة المغناطيس وخصائصه . وفى خلال حرب الثلاثين سنة صنع **أوتو فون جوريكه** عمدة ماجدبرج ومخترع المضخة الهوائية ، أول آلة كهربائية .

وانصرفت طائفة كبيرة من العلماء الى دراسة الكهرباء فى أثناء القرن التالى . واخترع ما لايقل عن ثلاثة أساتذة قدر ليدن المشهور عام ١٧٩٥ . وكان **بنيامين فرانكلين** فى الوقت نفسه موليا هذا الموضوع كل اهتمامه ، وبنيامين هو اشهر عباقرة أمريكا العالميين بعد بنيامين طومسون (وهو الذى أصبح يعرف باسم **الكونت رمفورد** بعد فراره من نيوهامپشير بسبب تحيزه للانكليز) . وقد كشف فرانكلين ان وميض البرق والشرارة الكهربائية ظاهرتان من ظواهر هذه القوة الكهربائية ، وظل يتابع دراسته فى الكهرباء حتى انتهت حياته النافعة الحافلة بالعمل . ثم جاء بعده **فولتا** صاحب العمود الكهربائى المشهور ، ثم **جالڤانى** و **داى** والاستاذ الدانيمركى **هانز كريستيان أورستيد** ، ثم **امپير** و **أراجو** و **فراداى**، وكان كل هؤلاء من الباحثين المثابرين فى الطبيعة الحق للقوى الكهربائية .

وقد زود هؤلاء الباحثون العالم بمستكشفاتهم من غير مقابل . وقد اعتقد **صمويل مورس** ، الذى كان فى طليعة حياته فنانا مثل **فولتن** ، انه يستطيع ان يستخدم هذا التيار الكهربائى الجديد فى نقل الرسائل من بلد الى بلد ، وعزم على أن يصطنع لذلك سلكا من النحاس وآلة صغيرة اخترعها . ولم يجد **مورس** بدا من الانفاق من ماله على التجارب التى يجربها ، وسرعان ما نفد ماله جميعا ، فاشتد فقره ، وزادت سخرية الناس به . وحينئذ طلب من الكونجرس معاونته ، ووعدته لجنة خاصة للتجارة بمد يد المعونة اليه . على ان اعضاء الكونجرس لم يكونوا جميعا مهتمين بهذا الامر ،واضطر مورس الى الانتظار اثنتى عشرة سنة الى ان جاد عليه الكونجرس باعانة صغيرة ، فاقام خطا من خطوط البرق بين بلتيمور وواشنطن . وفى عام ١٨٣٧ عرض فى قاعة محاضرات جامعة نيويورك الآلة البرقية الاولى التى نجح فى صنعها . وانتهى الامر بأن ارسلت فى اليوم الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨٤٤ أول رسالة بين بلدين بمدت الشقة

بينهما ، اى بين واشنطن وبلتيمور . اما الآن فان العالم كله مغطى بشبكة من الخطوط البرقية ، ونحن نستطيع اليوم أن نرسل الانباء من اوربا الى آسيا فى ثوان قلائل .

وبعد ذلك باثنتين وعشرين سنة استخدم **اسكندر جراهام بل** ، التيار الكهربائى فى تشغيل التليفون الذى اخترعه . وحسن **ماركونى** بعد ذلك بنصف قرن هذه الافكار بفضل اختراعه طريقة لارسال الرسائل تخلص بمقتضاها نهائيا من الاسلاك العتيقة .

وكان **ميخائيل فراداى** من اهل يوركشير ، قد اخترع المولد الكهربائى الاول فى الوقت الذى كان فيه مورس من اهل نيو انجلند يشتغل فى تلغرافه . واتم فراداى هذه الآلة الصغيرة الدقيقة عام ١٨٣١ عندما كانت اوربا لا تزال ترتعد فرائصها من جراء ثورات يوليه الكبرى التى قلبت خطط مؤتمر فينا راسا على عقب . واخذ المولد الاول ينمو وينمو وينموحتى اصبح فى مقدوره اليوم ان يزودنا بالحرارة والنور والقوة اللازمة لجميع الآلات على اختلاف انواعها . (وانت ايها القارىء تعرف المصابيح الصغيرة الوهاجة التى صنعها **اديسون** لاول مرة معتمدا على التجارب التى اجراها الفرنسيون والانكليز فى هذا الصدد فى العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر) . وانا زعيم ، لو صحت نظريتى ، بان الآلة الكهربائية سوف تقضى فى القريب القضاء المبرم على الآلة الحرارية ، كما قضت حيوانات ما قبل التاريخ الراقية التكوين فى العصور الغابرة على جاراتها الاضعف منها تكوينا .

صحيح اننى لا اعرف شيئا عن الآلات ، ولكن غلبة الآلة الكهربائية خليقة بان تفعم قلبى بالسعادة . ذلك ان الآلة الكهربائية التى تدار بقوة الماء خادم نظيف انيس للبشر ، فى حين ان الآلة الحرارية ـ معجزة القرن الثامن عشر ـ اداة صاخبة قذرة تملأ رحاب العالم بالدخان المتراكم والغبار والهباب ، وتتغذى بالفحم الذى يتطلب حفر المناجم ، وهو عمل كثير المشقة يعرض آلاف الناس للخطر .

ولو اننى كنت قصاصا ، لامؤرخا يجب عليه التزام الحقائق وقد لايباح له الاستعانة بالخيال ، لوددت ان اصف ذلك اليوم السعيد ، يوم تحمل آخر قاطرة بخارية الى متحف التاريخ الطبيعى ، فتوضع بعد هيكل المطاية المهولة ، والزاحف المجنح ، وغيرهما من المخلوقات البائدة التى عاشت فى العصور الغابرة .

الثورة الاجتماعية

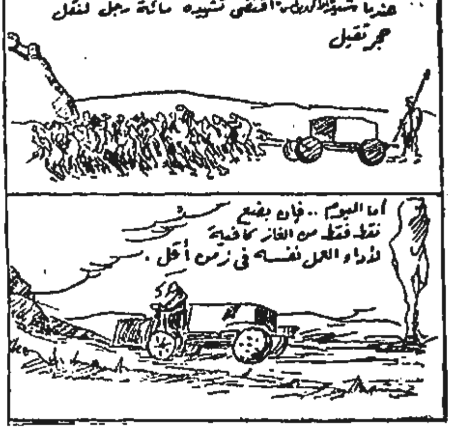
على ان الآلات الجديدة كانت باهظة التكاليف ، لايستطيع اقتناءها الا الموسرون . وقد اضطر النجار القديم او الاسكاف الذى كان سيد نفسه فى حانوته الصغير ، ان يلتحق بخدمة اصحاب الآلات الكبيرة .. فزاد كسبه ، وفقد فى الوقت نفسه ماكان له من استقلال ، وهو امر اسخطه واحنقه

كان العمل فى العالم خلال العصور الخالية ، يتم على يد عمال مستقلين يجلسون فى ورشهم الصغيرة القائمة فى واجهات منازلهم ، ويملكون عدتهم ، ويضربون تلاميذهم فى الصنعة ، ويمارسون حرفهم على هواهم فى الحدود التى رسمتها نقاباتهم . كانوا يعيشون عيشة بسيطة ، ويضطرون الى العمل ساعات طويلة . ولكنهم كانوا سادة انفسهم ، فاذا استيقظوا من نومهم ، وطلع عليهم النهارمشرقاجميلا يحلو فيه الصيد ... خرجوا للصيد . ولم يكن ثمة من يستطيع ان يمنعهم من ذلك .

بيد أن ادخال الآلات فى الصناعة غير من هذه الحال . ولم تكن الآلة فى واقع الامر الا اداة كبرت وتضخمت . والحق ان القطار الحديدى الذى ينقلك بسرعة ميل فى الدقيقة ليس الا اثنتين من الارجل فائقتى السرعة ، كما ان المطرقة البخارية التى تسوى الواح الحديد الثقيلة ليست الا قبضة يد رهيبة هائلة مصنوعة من الصلب .

ونحن نستطيع ان يكون لنا رجلان سليمتان وقبضة قوية حسنة ، اما القطار الحديدى والمطرقة البخارية ومصنع القطن ... فآلات باهظة التكاليف لايستطيع ان يقتنيها فرد واحد ، وانما جرت العادة بان تملكها شركة من الناس يساهمون فيها جميعا بمبلغ من المال معلوم ، ثم توزع الارباح التى تدرها السكة الحديدية او محلج القطن ، بقدر ما اودعه المساهمون فيها من اموال .

فلما تحسنت الآلات ، واصبحت حقا شيئا نافعا



قوة الانسان وقوة الآلة

من الناحية العملية يدر على النـاس الربح ـ اخذ منشئو هـذه الأدوات الضخمـة ، وصـناع الآلات ، يلتمسـون العملاء الذين يستطيعون ان يدفعوا نقدا .

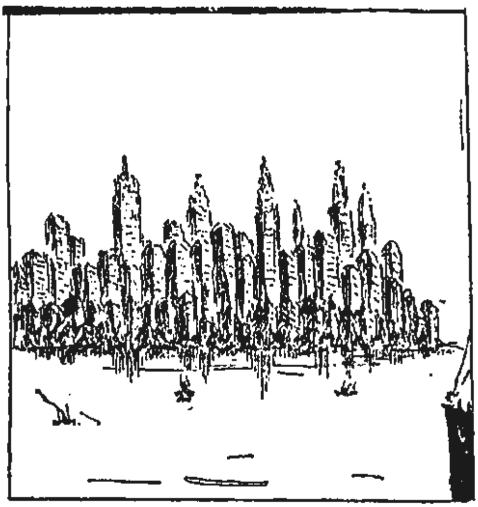
وكانت الارض فى العصور الوسطى هى الصورة الوحيدة من صور الثروة ، ولذلك كان النبلاء دون سواهم هم الذين يعدون من أهل الثراء . ولـكن ما لديهم من الذهب والفضة كان ضئيلا جدا ـ كما سبق أن بينت لكم فى فصل سابق ـ وكانوا يتوسلون بالطريقة القديمة فى المقايضة ، فيقايضون الابقـار بالخيل ، والبيض بعسل النحل . وكان فى مقدور اهل المدن فى العصور الوسطى ان يجمعوا الثروة بانعاش التجارة بين الشرق والغرب ، فنـافسوا النبـلاء والفرسان منافسة خطيرة .

وقد قضت الثورة الفرنسية قضاء مبرما عـلى ثروة النبلاء ، وزادت ثروة الطبقة المتوسطة زيادة هائلة . وقد أتاحت سنوات القلاقل التى اعقبت الثورة الكبرى للكثيرين من اهل الطبقة الوسطى فرصة الاستزادة من بضائع العالم بما يربى عن نصيبهم . وصادر رجال المؤتمر الفرنسى املاك الكنيسة وبيعت بالمزاد ، فزاد عدد المدلسين والمبتزين زيادة فظيعة ، وسرق محتكرو الاراضى آلاف الاميال من الاراضى الثمينة ، واستغلوا أموالهم خلال حروب نابليون فى جنى الارباح غير المشروعة من الغلال والبارود ، واصبحوا حينذاك يملكون من المال ما يزيد عما تستلزمه نفقات بيوتهم بالفعل ، وغدا فى مقدورهم ان ينشـئوا لانفسهم المصانع ، ويستاجروا الرجال والنساء لادارة آلاتهم .

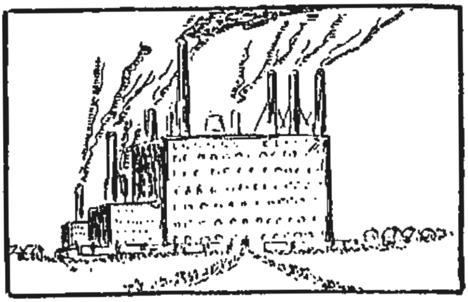
وقد احدث ذلك تغيرا مباغتا فى حياة مئـات الآلاف من الناس ، فتضاعف سكان عدة مدن فى بضع سنين ، وأصبحت سرة العمران القديمة التى كانت المقام الحقيقى للمواطنين ، محاطة بأرباض كئيبة سيئة العمارة يهجع اليها العمال بعد أن ينفقوا فى المصانع احـدى عشرة ساعة او اثنتى عشرة او ثلاث عشرة ساعة ، ثم يئوبون منها الى المصنع اذا ما آذنت صفارته ببدء العمل .

ودار الحديث فى الريف قاصيه ودانيه عن الأموال الطائلة التى يمكن جنيها فى المدن ، فكان الفـلام من اهل الريف الذى درج على المعيشة فى الهـواء الطلق يشخص الى المدن ، فتتبدد عافيتـه وسط الدخان والغبـار المنطلق مـن تلك الورش الاولى التى كانت سيئة التهوية ، ويدركه الموت فى أكثر الاحيان فى مأواه الحقير او فى المستشفى .

ولم يتم انتقال عدد كبير من الناس من الحقل الى المصنع من غير ان يبدوا شيئا من المعارضة ، ذلك ان قدرة الآلة على أداء مايعمله مائة رجل قد قضت على تسعة وتسعين رجلا آخر بالبطل . وقد كره هؤلاء ذلك ، وكانوا يهاجمون مبـانى المصـنع فى كثير من الأحيان ، ويضرمون النار فى آلاته . ولـكن شركات



المدينة الحديثة



المصنع

التامين كانت قد انشئت فى وقت مبكر يرجع الى القرن السابع عشر ، واصبح ملاك المصانع على الجملة محميين الى حد كبير من هذه الخسارة . وسرعان ما اقيمت آلات احدث وافضل ، واحيط المصنع بسور مرتفع فقضى بذلك على الشغب . ولم تستطع النقابات القديمة ان تبقى فى هذا العالم الجديد عالم البخار والحديد ، وانتهى اجلها . وحاول العمال أن يقيموا اتحادات منتظمة ، ولكن اصحاب المصانع استطاعوا بفضل ثرائهم ان يؤثروا تاثيرا عظيما على رجال السياسة فى مختلف البلاد ، فالتجأوا الى الهيئات التشريعية ، ومن ثم استصدروا على يدها قوانين تحرم انشاء مثل هذه الاتحادات لانها تدخلت فى حرية العامل فى التصرف .

وانى لارجو الا يذهب بك الظن الى ان السادة اعضاء البرلمان الذين اجازوا هذه القوانين كانوا طغاة شريرين . فقد كان هؤلاء ابناء عهد الثورة البررة ، وهو العهد الذى كان كل فرد يتحدث فيه عن الحرية ، وكان الناس خلاله يقتلون جيرانهم فى كثير من الاحيان لأن مبلغ حبهم للحرية اقل مما ينبغى . وبما ان الحرية كانت اعظم فضيلة يتحلى بها الانسان ، فلم يكن من الصواب اذن ان تفرض اتحادات العمال على اعضائها ساعات العمل التى يستطيعون ان يقوموا بالعمل فيها ، والاجور التى ينبغى لهم ان يطالبوا بها . اذ يجب ان يكون العامل على الدوام « حرا فى عرض خدماته فى السوق الحرة » . كما أن صاحب العمل يجب ان يكون حرا فى ادارة عمله على الوجه الذى يرى فيه صلاحه . ذلك ان ايام الطريقة التجارية التى نظمت الدولة بمقتضاها الحياة الصناعية للمجتمع كافة ، كانت مؤذنة بالزوال . وكانت الفكرة الجديدة عن الحرية ، تلح فى الا تتدخل الدولة على الاطلاق فى هذه الامور ، وتترك التجارة تجرى فى مجراها .

ولم يكن النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهد شكوك عقلية وسياسية فحسب ، بل كان أيضا عهدا حلت فيه محل الافكار الاقتصادية القديمة ، افكار جديدة تلائم حاجات الناس فى تلك الايام اكثر من الافكار القديمة . وقد نادى ترجو ، أحد وزراء مالية لويس السادس عشر الذين باءوا بالخيبة ، بمبدأ « الحرية الاقتصادية » قبل الثورة الفرنسية بعدة سنين . وكان ترجسو يعيش فى بلاد قاست الامرين من كثرة الاجراءات الحكومية العتيقة ، وكثرة الأوامر الرسمية ، وكثرة الموظفين الذين كانوا يحاولون تنفيذ عدد كبير من القوانين . وقد كتب ترجو فى ذلك قائلا « تخلصوا من هذا الاشراف الحكومى ، ودعوا الناس يفعلون ما يريدون . فتنصلح جميع الأحوال » . وسرعان ما اصبحت نصيحته بعدم التدخل من جانب الحكومة الصيحة التى جمعت شمل الاقتصاديين فى ذلك الوقت .

وكان آدم سميث فى انكلترا يعمل فى الوقت نفسه فى تاليف مجلداته الضخمة عن « ثروة الأمم » ، وقد اتخذت هذه المجلدات شاهدا آخر على « الحرية » و « حق الناس الطبيعى فى الاتجار » . وحدث بعد ذلك بثلاثين سنة ، اى بعد سقوط نابليون ، أن انتصرت السلطات الرجعية فى مؤتمر فينا ، فحمل الناس على الاخذ بهذه الحرية فى حياتهم الاقتصادية وحرم عليهم ذلك فى علاقاتهم السياسية .

وقد ثبت ان شيوع استعمال الآلات كان له — كما سبق ان قلت لكم فى مستهل هذا الفصل — فائدة كبرى للدولة ، فازدادت الثروة بسرعة ، واستطاعت بلاد واحدة مثل انكلترا ان تتحمل جميع اعباء الحروب النابليونية الكبرى بفضل الآلات . وجنى الراسماليون ، وهم اولئك القوم الذين دبروا الاموال التى اشتريت بها الآلات — ارباحا طائلة ، واصبحت لهم اطماع واخذوا يهتمون بالسياسة . وحاولوا ان ينافسوا الاشراف اصحاب الضياع ، وكان نفوذ هؤلاء لايزال كبيرا على الحكومات فى معظم الدول الأوربية .

وكان اعضاء البرلمان فى انكلترا لايزالون ينتخبون بمقتضى المرسوم الملكى الصادر عام ١٢٦٥ ، على ان عددا كبيرا من المراكز الصناعية المنشأة حديثا لم يكن لها ممثلون فى البرلمان ، ومن ثم عمل اهلها على استصدار مشروع قانون سنة ١٨٣٢ يصلح هذا

النقص . وقد غير هذا القانون نظام الانتخاب ، وزاد من سلطان طبقة اصحاب المصانع على الهيئة التشريعية . على أن ذلك احدث سخطا عظيما بين الملايين من عمال المصانع الذين تركوا ولا صوت لهم فى الحكم . فبداوا هم ايضا يثورون فى سبيل الحصول على حق التصويت ، وسجلوا مطالبهم فى وثيقة عرفت من بعد باسم « وثيقة الشعب » ، وكان كل يوم يمر يزيد فى حدة المناقشات الدائرة حول هذه الوثيقة . ولم يكن هذا الجدل المحتدم قد خمد عندما هبت ثورات عام ١٨٤٨ . وروعت الحكومة الانكليزية من جراء ماكان يلوح فى الافق من خطر اندلاع ثورة يعقوبية جديدة ، وقيام اعمال العنف والشدة ... فوضعت الدوق ولنجتون الذى كان فى ذلك الوقت فى الثمانين من عمره على راس الجيش ، واستدعت المتطوعين ، وأعلنت فى لندن حالة الحصار ، واتخذت الأهبة لقمع الثورة المؤذنة بالهبوب .

على ان حركة اصحاب هذه الوثيقة قتلت نفسها بنفسها لعدم كفاية القائمين عليها ، ولم يقع الا القليل من حوادث العنف . واخذت الطبقة الجديدة ، طبقة اصحاب المصانع الموسرين (وانا اكره كلمة البورجوازية التى استمسك بها المبشرون بالنظام الاجتماعى الجديد استمساكا شديدا) تزيد من سلطانها على الحكومة رويدا رويدا . واستمرت ظروف الحياة الصناعية فى المدن الكبيرة تحيل فدادين مترامية الاطراف من المراعى وحقول القمح الى مساكن حقيرة كئيبة تتحكم فى مشارف كل مدينة اوروبية حديثة .

لم يفىء اصطناع الناس للآلات على العالم ذلك العهد من السعادة والرخاء الذى تكهن به الجيل الذى راى السكة الحديدية تحل محل مركبات السفر العامة . وقد اقترحت عدة اقتراحات لعلاج هذه الحال ولكن لم يفد واحد منها فى حل المشكلة حلا شافيا

التحرر

فى سنة ١٨٣١ ، وقبيل اقرار مشروع القانون الأول بالاصلاح مباشرة ، كتب **جيرمى بنتام** ، أعظم الباحثين الانكليز فى الاجراءات التشريعية ، واكبر المصلحين السياسيين الواقعيين فى ذلك العهد الى صديق له يقول « السبيل الى الطمانينة هو أن تجعل غيرك مطمئنا . والسبيل الى اطمئنان الناس هو أن تبدى لهم انك تحبهم ، والسبيل الى اظهار المحبة لهم هو ان تحبهم حقا » . وقد كان جيرمى رجلا صادقا قال ما اعتقد انه حق . وكان يشاركه آراءه آلاف من بنى قومه شعروا انهم مسئولون عن سعادة جيرانهم البائسين ، وحاولوا ما وسعهم أن يمدوا لهم يد العون . والله يعلم أن الوقت كان قد آذن بأن يفعل هؤلاء شيئا .

والحق انه لم يكن ثمة محيص من الاخذ بمبدأ « الحرية الاقتصادية » (او مبدأ عدم التدخل الذى قال به ترجو) فى ذلك المجتمع القديم الذى كانت قيود العصور الوسطى تعرقل كل الجهود الاقتصادية التى يبذلها . على أن هذه الحرية فى العمل التى كانت اسس القوانين فى تلك البلاد ، قد افضت الى قيام حالة رهيبة مخيفة . ذلك ان ساعات العمل فى المصنع كانت لا تقاس الا بقدرة العمال البدنية فحسب . فقد كان من المفروض فى المراة أن تعمل مادامت تستطيع الجلوس الى نولها من غير أن يصيبها الاغماء من التعب .

وكان الأطفال فى سن الخامسة اوالسادسة يؤخذون الى مصانع نسج القطن انقاذا لهم من اخطار الشوارع وحياة البطالة . وقد اعتمد قانون يفرض على اطفال المعدمين ان يعملوا او يعاقبوا بتقييدهم بالسلاسل الى آلاتهم . وكانوا يجزون على عملهم باعطائهم قدرا من الطعام السيىء يسد رمقهم ، وتخصيص ضرب من الحظائر يهجعون اليها بالليل . وكان يغلبهم التعب فى كثير من الأحيان ، فياخذهم النوم وهم يعملون . ومن ثم كان يدور عليهم رئيس العمل بالسوط ايقاظا لهم ، ويضربهم على مفاصل اصابعهم لينهضوا الى عملهم . ولا شك أن آلافا من هؤلاء الاطفال الصغار ، قد ادركهم الموت تحت وطاة هذه الظروف . وكان هذا الأمر باعثا على الأسف ، ذلك ان اصحاب العمل كانوا بالرغم من ذلك كله بشرا لم تخل قلوبهم من الرحمة ، وودوا صادقين لو ان فى مقدورهم أن يبطلوا « تشغيل الأطفال » . ولكن الرجل كان حرا ، ومن ثم كان الطفل تبعا لذلك « حرا » ايضا . زد على ذلك

ان زيداً لو حاول ادارة مصنعه من غير أن يستخدم الاطفال من سن الخامسة أو السادسة للجأ منافسه عمرو الى الاستزادة من عدد الأطفال الصغار الذين يشتغلون فى مصنعه ، فكان ذلك قمينا بأن يفضي بزيد الى الافلاس . ولذلك كان يستحيل على زيد ان يستغنى عن تشغيل الاطفال الا حين يصدر قانون من البرلمان يحرم ذلك على جميع أصحاب العمل .

على أن البرلمان عاد لا يسيطر عليه النبلاء القدامى اصحاب الأرض الذين كانوا يحتقرون اصحاب المصانع محدثى النعمة ، حاملى صرر النقود ، ويجاهرونهم بالازدراء ، واصبح فى ذلك الوقت خاضعا لنفوذ ممثلى المراكز الصناعية ، فلم تتحسن الحال الا تحسناً ضئيلا مادام القانون لم يكن يسمح بانخراط العمال فى اتحادات عمالية .

ولا شك ان المعتدلين واصحاب البصيرة من اهل ذلك العهد كانوا ملمين بهذه الظروف الرهيبة . على انهم كانوا ايضا لاحول لهم ولا قوة . فقد غزت الآلات العالم فجاة ، ولم يكن ثمة مناص من أن تمر سنون طوال ، وأن يبذل آلاف الرجال والنساء من ذوى النفوس النبيلة جهودهم قبل ان يستطاع وضع الآلات فى مكانها الصحيح ، وردها خادما للانسان لا سيدا له .

ومن عجب ان الحملة الاولى التى وجهت الى نظام تشغيل العمال المقوت الذى كان شائعا آنئذ فى جميع انحاء العالم ، كانت لصالح زنوج افريقيا وامريكا .

وكان الاسبان هم الذين أدخلوا نظام الرق فى القارة الأمريكية . وحاولوا أن يستخدموا الهنود عمالا فى الحقول والمناجم ، ولكن الهنود كانت تخور قواهم ويموتون اذا انتزعوا من المعيشة الخلوية التى الفوها . واراد قسيس رحيم ان ينقذهم من الفناء ، فاقترح ان يجلب الزنوج من افريقيا ليقوموا بهذا العمل ، ذلك ان هؤلاء كانوا اقوياء يحتملون المعاملة القاسية . زد على ذلك ان صحبتهم للبيض تتيح لهم فرصة الدخول فى المسيحية ، فيستطيعون بذلك أن يخلصوا نفوسهم بالايمان . وهكذا كان هذا التدبير ، من كل ناحية ، خليقا بأن يعود بالخير على البيض الرحماء وعلى اخوانهم السود الجاهلين . على أن الحاجة الى القطن ازدادت بادخال الآلات فى الصناعة ، وحمل الزنوج على الانكباب على العمل اكثر من ذى قبل ، فبدأوا يموتون تحت وطأة المعاملة التى كان يعاملهم بها المشرفون على العمل ، كما مات الهنود من قبل .

واخذت اخبار هذه القسوة الفظيعة التى عوملوا بها تتسرب على الدوام الى أوربا ، وبدأت تهيج خواطر الرجال والنساء فى جميع انحاء أوربا مطالبين بالغاء الرق . والف **وليم ولبرفورس وزخارى ماكولى** (وهو والد المؤرخ العظيم الذى يجب عليك ان تقرأ تاريخه عن انكلترا اذا شئت ان تعرف كيف يمكن أن يبلغ تاريخ من التواريخ مابلغه هذا التاريخ من طرافة معجبة) فى انكلترا جماعة للقضاء على الرق . وكان اول مافعله هؤلاء استصدار قانون يجعل « تجارة الرقيق غير مشروعة » . ولم يبق فى جميع المستعمرات البريطانية عبد واحد بعد عام ١٨٤٠ . وقد وضعت ثورة عام ١٨٤٨ ، حدا للرق فى الاملاك الفرنسية . واستصدر البرتغاليون سنة ١٨٥٨ ، قانونا وعد الرقيق بالتحرر فى مدى عشرين سنة من صدوره ، والغى الهولنديون الرق سنة ١٨٦٣ ، واعاد القيصر اسكندر الثانى الى الرقيق الحرية التى كانت قد انتزعت منهم قبل ذلك بنيف وقرنين . اما فى الولايات المتحدة فقد اثارت هذه المسألة مشاكل خطيرة وادت الى حرب طويلة الأجل .

وقد كان من المبادىء التى قررتها وثيقة اعلان حقوق الانسان « ان الناس جميعا خلقوا احرارا متساوين » ، الا انها استثنت من هذا المبدأ اولئك الرجال والنساء ذوى البشرة الداكنة ، واولئك الذين يعملون فى مزارع الولايات الجنوبية . وزادت كراهية اهل الشمال لنظام الرق بمرور الزمن ، ولم يكتموا شعورهم نحو هذا النظام . على أن اهل الجنوب ادعوا انهم لايستطيعون أن يزرعوا قطنهم من غير أن يستخدموا العبيد ، واحتدم الجدل احتداما شديدا فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين قرابة خمسين عاما .

وظل اهل الشمال مستمسكين برايهم فى هذا الشأن ، ورفض اهل الجنوب ان يسلموا لهم بذلك . وهددت الولايات الجنوبية بالخروج على الاتحاد الأمريكى عندما بدا لها استحالة التوفيق بين الرأيين . وكانت هذه الفترة من الفترات العصيبة فى تاريخ هذا الاتحاد ، كما كانت قمينة بان تثير كثيرا من الأحداث ، لولا الجهود التى بذلها رجل عظيم صالح حقا .

فقد حدث فى السادس من نوفمبر سنة ١٨٦٠ ، أن انتخب الجمهوريون الذين كان سلطانهم غالبا فى الولايات المناهضة للرق **ابراهام لنكولن** رئيسا للجمهورية . وكان لنكولن محاميا من أهل الينوى شيد مستقبله فى ميدان الحياة العقلية . وقد عرف

هــذا الرجل عن كثب ، مساوىء استعباد الانسان ، واهتدى بثاقب بصره الى أن القارة الأمريكية الشمالية لاتتسع لقيام امتين متنافستين . فلما انفصل عدد من ولايات الجنوب عن الاتحاد الأمريكى وكون مايسمى بـ « ولايات أمريكا المتحالفة » قبل لنكولن التحدى . واعلنت الولايات الشمالية حاجتها الى متطوعين ، فلبى النداء مئات الالاف من الشبان فى حماسة شديدة ، واعقبت ذلك حرب اهلية مريرة دامت اربع سنوات ، واوقع اهل الجنوب الذين كانوا اوفر عدة الهزيمة مرارا بجيوش اهل الشمال بفضل قائديهم البارعين **لى وجاكسون** . وعندئذ اخذت القوة الاقتصادية **لنيوانجلند** والغرب تلقى بثقلها فى الميزان . وبرز من غمار الجند ضابط يدعى **جرانت** فأصبح **شارل مارتل** حرب العبيد الكبرى . واخذ جرانت يكيل الضربات الحاطمة لحصون الجنوب المتداعية دون انقطاع . وفى مستهل عام ١٨٦٣ اصدر الرئيس لنكولن « اعلان التحرير » الذى اعتق جميع العبيد . وفى ابريل سنة ١٨٦٥ سلم لى البقية الباقية من جنوده الشجعان عند **ابوماتوكس** . وبعد ذلك بأيام قلائل اغتال رجل مخبول الرئيس لنكولن ، الا أن عمله ظل باقيا ، ذلك أن الرق ابطل فى جميع انحاء العالم المتمدين ما عدا كوبا التى كانت لاتزال خاضعة لحكم الاسبان .

على أن السود كانوا يتمتعون بقدر من الحرية مطرد الزيادة ، فى حين كان عمال أوربا الأحرار لايعاملون المعاملة الواجبة . والحق أن كثيرا من الكتاب المعاصرين والمراقبين لسير الأمور قد عجبوا لم لم تمت جماهير العمال (الذين يطلق عليهم اسم الطبقة الدنيا أو البروليتاريا) من مجرد البؤس الذى ران عليها . لقد كان هؤلاء يعيشون فى بيوت قذرة قائمة فى المناطق الحقيرة من احياء الرعاع ، ويأكلون طعاما سيئا ، ولا يتلقون من التعليم الا مايكاد يكفيهم للقيام بأعمالهم . ولم يكفل لهم مايعول اسرهم اذا ادركهم الموت او اصيبوا بحادث . ولكن اصحاب معامل الخمور والمشروبات الروحية الذين كانوا يستطيعون أن يؤثروا فى الهيئات التشريعية تأثيرا كبيرا شجعوهم على نسيان احزانهم ، فكانوا يقدمون لهم مقادير عظيمة من الوسكى والجن بأرخص الأثمان .

اما التحسين الهائل الذى طرأ على احوال العمال فى العقدين الثالث والرابع من القرن الماضى ، فلا يعود الفضل فيه الى جهود رجل واحد . فقد وقفت خير العقول فى جيلين جهودها على انقاذ العالم من النتائج المفجعة التى تسببت عن ادخال الآلات الصناعية بغتة .

ولم يحاول ارباب هذه العقول القضاء على النظام الراسمالى . ولو انهم فعلوا ذلك ، لكانوا قد ارتكبوا حماقة كبرى ، ذلك أن ثروة الآخرين المتجمعة اذا احسن استغلالها قمينة بأن تعود بالخير العميم على الناس كافة . ولكنهم حاولوا أن يحاربوا الفكرة القائلة بأن المساواة الحق يمكن أن تقوم بين صاحب الثروة الذى يملك المصانع ويستطيع أن يقفل ابوابها دون أن يتعرض للجوع ، وبين العامل الذى لامناص له من أن يقبل مايقدم له من عمل بأى أجر يستطيع الحصول عليه ، أو يجابه خطر الموت جوعا هو وزوجه وعياله .

لقد سعى هؤلاء المصلحون الى استحداث طائفة من القوانين تنظم العلاقة بين أصحاب المصانع وعمالها . وكان نجاحهم فى ذلك مطرد الزيادة فى البلاد كافة . فجمهرة العمال اليوم يلقون الحماية الواجبة . وقد خفضت ساعات عملهم فبلغت معدلا جيدا هو ثمانى ساعات فى اليوم . ويرسل الآن اطفالهم الى المدرسة بدلا من أن يرمى بهم الى اغوار المناجم أو الى غرف الندف فى مصانع القطن .

على أن ثمة فريقا آخر من الناس تأملوا ايضا فى منظر هذا الدخان المتراكم كله ينطلق فى الفضاء ، وسمعوا هدير قطارات السكك الحديدية ، ورأوا المخازن ممتلئة بالفائض من جميع المواد على اختلافها ، وتساءلوا عن الهدف النهائى الذى ينتظر أن يبلغه هذا النشاط الهائل فى السنين المقبلة . وقد تذكر هؤلاء أن الجنس البشرى عاش مئات الألوف من السنين من غير أن يكون له عهد بالمنافسة التجارية والصناعية . فتساءلوا : اليس فى مقدورهم تغيير النظام القائم للأشياء ، والتخلص من طريقة المنافسة التى طالما ضحت بسعادة الانسان فى سبيل الربح ؟

ولم تكن هذه الفكرة ، بل هذا الأمل الغامض فى مشرق أيام أسعد واهنأ ، وقفا على بلاد دون غيرها . فقد اقام **روبرت أوين** صاحب كثير من مصانع القطن مايعرف بـ « الجماعة الاشتراكية » فى انكلترا وكتب له النجاح . فلما توفى انتهى عهد الرخاء الذى حل بنيو لانارك ، ولم يكن مصير المحاولة التى بذلها الصحفى الفرنسى **لويس بلان** لاقامة « ورش اجتماعية » خيرا من سابقتها . وسرعان مابدا لذلك العدد المتزايد من الكتاب الاشتراكيين ، أن الجماعات الفردية الصغيرة التى تظل خارج نطاق الحياة الصناعية المنتظمة لن تستطيع أن تفعل شيئا على الاطلاق ، ذلك أن الحال كانت تستوجب دراسة المبادىء الكبرى الكائنة وراء المجتمع الصناعى والراسمالى

بأسره قبل أن يستطاع اقتراح العلاج الشافى لهذه الأدواء .

وقد جاء بعد أولئك الاشتراكيين العمليين أمثال **روبرت أوين ولويس بلان وفرانسوا فورنييه** طائفة من الباحثين فى الاشتراكية بحثا نظريا مثل **كارل ماركس وفريدرخ انجلز . وماركس** أشهر من صاحبه فى هذا الشأن ، وكان يهوديا نابها جدا عاشت أسرته فى المانيا زمنا طويلا . وقد سمع **ماركس** بالتجارب التى اجراها **أوين وبلان** ، واخذ يهتم بمسائل العمل والأجور والبطالة . ولكن أفكاره الحرة جعلت رجال الشرطة فى المانيا يكرهونه كراهية شديدة ، فاضطر الى الفرار الى بروكسل ، ثم الى لندن حيث عاش عيشة رقيقة حقيرة مراسلا لصحيفة نيويورك تربيون .

ولم يكن احد حتى ذلك الحين قد عنى عناية كبيرة بكتبه عن الموضوعات الاقتصادية . على أنه أنشأ عام ١٨٦٤ ، أول رابطة دولية للعمال ، ونشر بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٨٦٧ ، المجلد الأول من بحثه المشهور المعروف **برأس المال** . وقد اعتقد ماركس ان التاريخ جميعا نزاع طويل بين أولئك الذين يملكون وأولئك الذين لايملكون . وأن ادخال الآلات فى الصناعة وشيوع استعمالها خلقا طائفة جديدة فى المجتمع : الا وهى طبقة الراسماليين الذين يستخدمون الفائض من مالهم فى شراء الأدوات التى كان يستعملها العمال آنئذ لانتاج ثروة اكبر ، ثم يستخدمون هذه الثروة مرة اخرى فى بناء مصانع أكثر ، وهكذا تستمر هذه السلسلة الى ماشاء الله . ويقول ماركس أن الطبقة الثالثة (الطبقة البورجوازية أو الوسطى) كانت فى الوقت نفسه تزداد غنى على غنى ، وتزداد الطبقة الرابعة (الطبقة الدنيا أو البروليتاريا) فقرا على فقر ، وتكهن بأنه سيأتى فى النهاية رجل يملك ثروة العالم جميعا ، ويكون سائر الناس خداما له ، يعتمدون على مايجود به عليهم .

واراد ماركس أن يتفادى حدوث ذلك ، فنصح العمال فى جميع البلاد بالاتحاد ومناهضة طائفة من الاجراءات السياسية والاقتصادية عددها فى اعلان صدر عام ١٨٤٨ ، وهى السنة التى اندلعت فيها آخر الثورات الكبرى فى ايطاليا .

وكانت حكومات أوربا بطبيعة الحال تستنكر هذه الآراء استنكارا شديدا ، واستصدرت بلاد كثيرة ، وخاصة روسيا ، قوانين صارمة لمناهضة الاشتراكيين ، وصدرت الأوامر لرجال الشرطة بفض اجتماعاتهم والقبض على خطبائهم . ولكن هذا النوع من الاضطهاد لاياتى بنتيجة ما . ذلك ان الاستشهاد هو خير وسيلة ممكنة للاعلان عن قضية لم تلق تأييدا من الناس . ومن ثم زاد عدد الاشتراكيين فى أوربا زيادة مطردة ، وسرعان ماتجلى انهم لم يفكروا فى اشعال نار ثورة عنيفة ، وانما كانوا يستخدمون سلطانهم المتزايد فى البرلمانات المختلفة لتأييد مصالح الطبقات العاملة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استدعى الاشتراكيون لتأليف المجالس الوزارية ، وتعاونوا مع الكاثوليك التقدميين والبروتستانت لاصلاح التلف الذى سببته الثورة الصناعية ، وتوزيع الخيرات العميمة التى نتجت من ادخال الآلات فى الصناعة ، وتزايد الثروة توزيعا أعدل وادنى الى القسط .

عصر العلم

على أن العالم كله قد طرأ عليه تغير آخر أعظم شأنا من الثورات السياسية والثورات الاقتصادية ، فقد استطاع العلماء آخر الأمر أن يظفروا بالحرية فى العمل بعد أن مرت بهم اجيال من الظلم والاضطهاد ، وأخذوا يحاولون الكشف عن القوانين الانسانية التى تسير الكون

لقد كان للمصريين والبابليين والكلدانيين والاغريق والرومان جميعا شىء من الفضل فى قيام تلك الافكار الغامضة الأولى عن العلم والبحث العلمى . على أن الهجرات الكبرى التى حدثت فى القرن الرابع قضت على عالم البحر المتوسط القديم . ثم ان الكنيسة كانت تهتم بالحياة الروحية اكثر من اهتمامها بحياة الجسد ، فعدت العلم مظهرا من مظاهر تطاول الانسان ، يشاء ان يدس انفه فى الشئون القدسية الخاصة بملك الله العلى القدير ، ومن ثم كان العلم وثيق الصلة بالكبائر السبع .

لقد حطم عصر النهضة جانبا من تلك الاسوار التى اقامتها اهواء اهل العصور الوسطى ، الا ان مافعلته النهضة فى هذا الشأن كان محدودا ضيق النطاق . على أن عصر الاصلاح الدينى الذى اعقب



الفيلسوف

عصر النهضة فى القرن السادس عشر ، كان يناهض المثل التى هدفت اليها « المدنية الجديدة » . ومن ثم هدد العلماء بالعقاب الصارم مرة أخرى اذا هم تجاوزوا ذلك النطاق المحدود للمعرفة الذى وصفه الكتاب المقدس .

وعالمنا عالم حافل بتماثيل القواد العظام ممتطين صهوة جيادهم المتبخترة ، يقودون جنودهم المهللين الى النصر المجيد. ونجد هنا وهنالك شاهدا متواضعا من المرمر منبئا بأن رجلا من رجال العلم قد ثوى فى مقره الاخير . ولعلنا سنفرق فى التنويه برجال السيف ورجال العلم الف سنة أخرى ، وسيعلم اطفال ذلك الجيل السعيد بالشجاعة المجيدة التى تحلى بها اهل العلم ، والاخلاص المنقطع النظير الذى ادى به هؤلاء الرواد الباحثون فى العلم المجرد . . . واجبهم . وهذا العلم المجرد وحده هو الذى جعل عالمنا الحديث حقيقة واقعة .

وقد قاسى كثير من هؤلاء الرواد فى ميدان العلم . . . الفقر ، وتحملوا ما اصابهم من ازدراء ومهانة . فقد عاشوا فى الغرف القائمة على اسطح المنازل ، وماتوا فى السجون ، ولم يجترئوا على طبع أسمائهم فى صدر كتبهم او نشر ما انتهت اليه بحوثهم فى مسقط راسهم ، بل هربوا مخطوطات مؤلفاتهم الى بعض المطابع السرية فى **امستردام** او **هارلم** . وتعرضوا لعداوة الكنيسة المرة ، سواء أكانوا من البروتستانت ام من الكاثوليك .

وكانوا مادة عدد لاحصر له من المواعظ حرضت اتباع الابرشيات على معاملة هؤلاء المرتدين بالعنف والقسوة .

وكان هؤلاء العلماء يجدون ملاذا هنا وهناك . ذلك ان الشعور بالتسامح كان غالبا فى هولندا ، ومن ثم رفضت السلطات فيها أن تتدخل فى حرية الناس فى التفكير ، مع انها كانت تنظر الى البحوث العلمية نظرة مشوبة بشيء من الاستنكار . واصبحت هولندا ملجأ صغيرا لاحرار الفكر اتخذه الفلاسفة والرياضيون الفرنسيون والانكليز والالمان متنفسا يهجعون اليه حينا قصيرا ، ويستنشقون فيه الهواء الطليق .

وقد ذكرت لكم فى فصل سابق كيف منع روجر باكون ، احد أئمة العباقرة فى القرن الثالث عشر ، من كتابة كلمة واحدة سنوات خشية ان تضطرب الامور من جديد بينه وبين اولى الامر فى الكنيسة . وبعد ذلك بخمسمائة سنة كان الساهمون فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تحت اشراف رجال الشرطة الفرنسيين باستمرار .

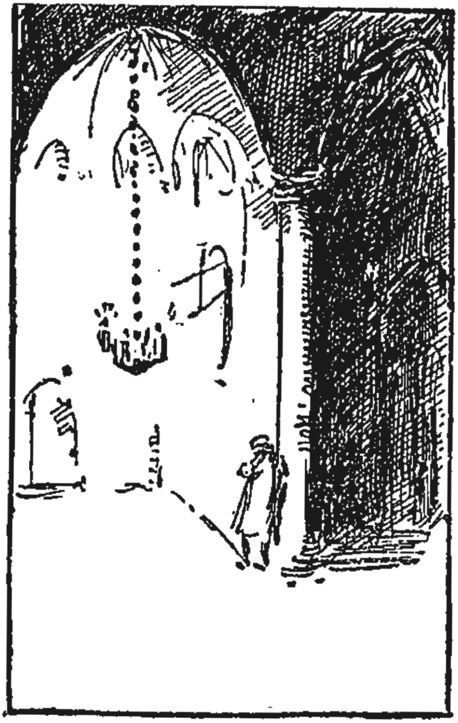
وبعد ذلك بنصف قرن اجترأ **دارون** على مناقشة قصة خلق الانسان كما وردت فى الكتاب المقدس ، فانصبت عليه اللعنات من كل منبر ، رامية اياه بأنه عدو البشرية . بل ان اضطهاد اولئك الذين يجترئون على ميدان العلم المجهول لم ينقض اجله تماما الى اليوم .

وهاأنذا اكتب هذا الكتاب فى الوقت الذى يخاطب فيه المستر بريان جمهورا كبيرا من الناس متحدثا عن « خطر الدارونية » ، محذرا مستمعيه من الاخطاء التى وقع فيها العالم الانكليزى الطبيعى الكبير .

على ان كل ماذكرت لايعدو أن يكون تفصيلا لما وقع . ذلك ان العمل الذى قدر له أن يعمل قد تم بلا تغيير ولا تعديل ، كما أن الخير العميم الذى تم على يد الكشوف والمخترعات ، قد اصاب اولئك الناس الذين دأبوا على رمى كل رجل من أصحاب النظر بأنه رجل مثالى لايقيس الامور بمقياس الواقع .

وكان اهل القرن السابع عشر لايزالون يؤثرون استقصاء السموات العلى ، ودراسة موقع كوكبنا بالنسبة للمجموعة الشمسية . ولم ترض الكنيسة حتى عن ذلك ، وعدته فضولا غير محمود ، فلم يستطع **كوبرنيكوس** الذى كان اول من اثبت ان الشمس هى مركز الكون ، طبع كتابه الى ان ادركته المنية . وانفق

جاليليو الشطر الأكبر من حياته تحت رقابة سلطات الكنيسة ، ولكنه دأب على استخدام منظاره ، وزود **اسحاق نيوتن** بمجموعة من الملاحظات العملية ساعدت هذا الرياضى الانكليزى مساعدة كبيرة فى الكشف عن تلك السنة الطريفة التى تخضع لها الأجسام الهابطة ، والتى عرفت من بعد باسم قانون الجاذبية .



جاليليو

وقد استنفد ذلك الى حين على الأقل اهتمام الناس بالسموات ، واخذ الانسان يدرس الأرض . وقد افضى اختراع المنظار العملى (وهو اداة صغيرة عجيبة كالحة المنظر) على يد **انطونى فان ليونهويك** فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، الى اتاحة الفرصة لدراسة المخلوقات التى لاترى الا بالمنظار ، وهى علة كثير جدا من الامراض . وقد وضع هذا المنظار اساس علم الفطريات الذى خلص العالم فى السنوات الاربعين الأخيرة من طائفة كبيرة من الأمراض ، بفضل الكشف عن المتعضيات الدقيقة التى تسببها ، كما اتاح لعلماء طبقات الارض اسباب دراسة مختلف الصخور والحفريات التى وجدت مطمورة فى اعماق سطح الأرض دراسة دقيقة . ونقصد بالحفريات تلك النباتات والحيوانات المتحجرة التى ترجع الى ماقبل التاريخ . وقد اقنعت هذه الحفريات هؤلاء العلماء بأن الأرض لابد ان تكون أقدم بكثير مما جاء فى سفر التكوين . وفى عام ١٨٣٠ طبع السير **تشارلس ليال** كتابه « مبادىء علم طبقات الارض » ، وانكر فيه قصة الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس ، وزودنا بوصف اعجب من ذلك بكثير عن التقدم الوئيد والتطور المطرد الذى أصاب الأرض .

وكان **المركيز ده لابلاس** فى الوقت نفسه يدرس نظرية جديدة فى الخلق تقول بانه كان بقعة صغيرة فى المحيط السديمى الذى تكونت منه مجموعة الكواكب . وكان **بنزن وكيرتشهوف** يبحثان بفضل المنظار الطيفى التكوين الكيميائى للنجوم ولكوكب الشمس جارتنا الصالحة التى كان جاليليو اول من لاحظ ماعليها من بقع عجيبة .

وكان علماء التشريح ووظائف الاعضاء قدحصلوا من الكنيسة فى الوقت نفسه ايضا على اذن بتشريح الاجسام ، بعد ان اقتضاهم ذلك نضالا رهيبا مريرا مع السلطات الكنسية فى البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية ، وتخلصوا من دجل القرون الوسطى الذى كان يقوم على التخمين ، واقاموا بدله علما بأعضائنا وخصائصها يستند الى المعرفة اليقينية .

وفى خلال جيل واحد ، اى مابين عامى ١٨١٠ و ١٨٤٠ ، زاد التقدم فى كل فرع من فروع العلم زيادة لم تعهد فى مئات الالاف من السنين التى خلت منذ ان نظر الانسان للمرة الأولى الى النجوم ، واحتار فى تعليل وجودها حيثما كانت . ولا شك فى أن ذلك اليوم الذى ازداد فيه تقدم العلم كان يوما كئيبا حزينا بالنسبة لاولئك الناس الذين تلقوا تعليمهم فى ظل النظام القديم . ونحن نستطيع ان ندرك شعور الكراهية الذى احسوا به نحو علماء من قبيل لامارك ودراوين ، لم يذهبوا معهم الى حد القول بانهم « انحدروا من القرود » (وهى تهمة كانوا يعدونها فيما يظهر اهانة شخصية موجهة اليهم) ، بل زعموا ان الجنس البشرى الفخور قد نشأ من سلسلة طويلة من الاجداد يمكن ان يردوا نسبهم الى السمك الهلامى الصغير الذى كان اول من سكن هذا الكوكب الذى نعيش عليه .

لقد صحت عزيمة اهل الطبقة الوسطى المكرمة التى سادت القرن التاسع عشر على ان تفيد من الغاز او النور الكهربائى ، ومن جميع النتائج العملية المتحصلة

من الاخذ بالكشوف العلمية الكبرى . أما الباحث الصرف صاحب النظريات العلمية الذى لايرجى للعالم تقدم بدونه ، فقد ظل موضع الشك الى عهد جد قريب ، ثم اعترف الناس بخدماته آخر الأمر . فالأغنياء الذين كانوا فيما مضى يهبون ثروتهم فى سبيل بناء كاتدرائية ، ينشئون الآن معامل فسيحة الجنبات تأوى أناسا يقاتلون فى صمت اعداء البشر المستترين ، وكثيرا مايضحون بحياتهم حتى تنعم الأجيال القادمة بسعادة أكبر وعافية أتم .

والحق ان كثيرا من آفات هذا العالم التى كان يعدها اسلافنا من « افعال الله » التى لامهرب منها ولادافع ، قد حدث ان تناولها العلماء على انها مظاهر لجهلنا وتهاوننا . وذلك ان كل طفل يعلم الآن ان فى مقدوره ان يتجنب الحمى التيفودية اذا هو عنى عناية يسيرة بتخير الماء الذى يشربه . ولكن اقتناع الناس بهذه الحقيقة استنفد من الأطباء سنوات وسنوات قضوها فى عمل شاق مرهق . وقد تيسر لنا بفضل دراسة الميكروبات التى تعيش فى أفواهنا ان نحمى اسناننا من شر التسوس . واذا كتب علينا ان نخلع سنا من اسناننا فما علينا الا ان تستنشق قليلا من الغاز ، ثم نذهب الى حال سبيلنا راضين مغتبطين .

ولما نقلت صحف عام ١٨٤٦ قصة « الجراحة دون الم » التى اجريت فى امريكا بالاستعانة بالاثير . . . هز اهل اوربا الطيبون رءوسهم . فقد بدا لهم ان خلاص الانسان من الألم يناقض ارادة الله الذى جعل الألم من نصيب العالم الفانى ، ومضى وقت طويل قبل ان تشيع طريقة استنشاق الاثير أو الكلوروفورم فى الجراحات .

على ان معركة التقدم كانت قد كسبت ، واخذت الثغرة التى احدثت فى جدران الأهواء القديمة تتسع وتتسع . وبمرور الزمن تقوضت احجار الجهل العتيق ، واخذ الرواد المتحمسون المبشرون بقيام نظام اجتماعى اسعد واهنأ . . . يندفعون فى طريقهم . ثم الفوا انفسهم بغتة امام عقبة جديدة . ذلك ان انصار الرجعية اقاموا من انقاض الماضى الغابر حصنا آخر ، ولم يكن بد من ان يبذل ملايين الناس ارواحهم فى سبيل هدم هذا المعقل الاخير من معاقل الرجعية .

الفن

فصل عن الفن

اذا كان الطفل فى تمام عافيته : ياكل كفايته ، وينام كفايته . . . فانه يناغى بنغم قصير يعبر به عن مقدار سعادته ، وهذا النغم لايعنى شيئا فى نظر البالغين . فهو يصل الى الاسماع فى صوت اشبه بـ « جو . . زم ، جو . . زم ، جووو » ولكنه فى نظر الطفل لحن تام كامل ، يعد أول مشاركة له فى عالم الفن .

فاذا كبر الطفل أو الطفلة شيئا ما ، واستطاع الجلوس ، بدأت المرحلة التى يصنع فيها عجائن من الصلصال ، وهذه العجائن الصلصالية لايعنى بها فى خارج محيطه . وذلك ان ثمة ملايين من الاطفال يصنعون ملايين اللايين من العجائن الصلصالية فى وقت واحد . على ان هذه العجائن تمثل عند الطفل الصغير مرحلة اخرى خطاها فى عالم الفن البهيج . فهو قد اصبح حينئذ مثالا .

وتبدا ايدى الطفل تطاوع عقله فى سن الثالثة او الرابعة فيغدو رساما . وتعطيه امه المتعلقة به صندوقا من الطباشير الملون ، فلا يلبث ان يغطى كل ورقة مهملة بنقوش ملولبة وخطوط مثبجة عجيبة ، تمثل بيوتا وخيلا ووقائع بحرية رهيبة .

على ان هذه السعادة التى يشعر بها الطفل لمجرد قدرته على « صنع اشياء » سرعان ماتنتهى . ذلك ان مرحلة المدرسة تبدأ ، ويستنفد الصبى وقته فى الدرس ، وتصبح « حرفة العيش » أو حرفة « كسب المعاش » قوام حياة كل صبى وصبية . ولا تترك جداول الضرب واسم المفعول من الافعال الفرنسية الشاذة لهما الا متسعا قليلا من الوقت ينفقانه فى ممارسة الفن .

ويشب الصبى ، ويبلغ مبلغ الرجال ، فينسى انه قضى معظم سنواته الخمس الاولى منصرفا الى الفن مالم تتملكه رغبة قوية تحفزه الى صنع اشياء بعينها لمجرد السرور الذى يغشى نفسه اذا هو ابدعها ، ومن غير

ان يساوره اى امل فى جزاء مادى يعود عليه من صنعها .

والأمم لاتختلف فى ذلك عن الاطفال . فما ان تخلص رجل الكهوف من المخاطر التى كانت تتهدد حياته اثناء فترة الجليد التى هرات بدنه ، حتى بدا برتبساواه ، ويصنع أشياء بذاتها كانت جميلة فى عينه على الرغم من انها كانت لاتنفعه فى دنياه ، ولا يفيدمنها فى قتاله وحوش الغابة . وشرع هذا الرجل يغطى جدران كهفه برسوم الفيلة والايائل التى اصطادها ، ويأخذ القطعة من الصخر فينحتها تماثيل ساذجة للنساء اللائى كن أحب النساء فى عينه .

وما ان اقام المصريون والبابليون والفرس وسائر امم الشرق ممالكهم الصغيرةعلى النيل والفرات ، حتى اخذوا يقيمون لملوكهم القصور الفخمة ، ويبتدعون لنسائهم الحلى المتلألئة ، ويزرعون البساتين الحافلة بالازاهير تشرق بالوانها اشراقة اللحن السعيد .

وقد صنع اسلافنا البدو الرحل النازحون من فيافى آسيا ، والذين كانوا ينعمون بحياة حرة ميسرة مقاتلين وصيادين ، أناشيد تغنوا فيها بجلائل مافعله قوادهم الصيد ، وابدعوا ضربا من القريض بقى الى يومنا هذا . ولما مكن هؤلاء لانفسهم فى بلاد اليونان الأصلية بعد ذلك بالف سنة ، واقاموا «دول‌مدن» . . اخذوا يعبرون عن افراحهم والراحهم بالمعابد الفخمة والتماثيل والمسرحيات‌الفكاهية والمآسى‌وبكل مانتصور من ضروب الفن . وكان الرومان ـ شأن منافسيهم القرطاجنيين ـ منهمكين انهماكا شديدا فى حكم غيرهم من الشعوب وجمع المال، فلم يتسع وقتهم‌كثيرا لحب المغامرات الروحية التى « لاغناء فيها ولا طائل من ورائها » ، ففتحوا العالم ، وانشأوا الطرق‌والجسور . ولكنهم استعاروا فنهم كله من اليونان . صحيح انهم ابدعوا بعض طرز عملية من طرز العمارةتوائم حاجات عصرهم ، الا أن تماثيلهم وتواريخهم وفيسفساءهم وقصائدهم ، كانت مجرد صور لاتينية قلدوا بها الاصول اليونانية . والحق انه لاقيام للفن بدون ذلك الشىء الغامض المتأبى عن الوصف ، الذى يطلق‌عليه العالم اسم « الشخصية » . وقد كان‌الرومان‌يتشككون فى هذا الضرب المعين من ضروب الشخصية . ذلك أن الامبراطورية الرومانية كانت فى حاجة الى جنود كفاة وتجار مقتدرين . ومن ثم ترك الرومان قرض الشعر ورسم الصور للاجانب .

ثم حلت العصور الوسطى . لقد كان الرجل الهمجى‌النور‌المأثور عن الامثال ، يضرب‌فى‌مصنع‌الخزف فى‌غربى اوربا . أو هو فى لغةاهل‌عصرنا ، الرجل‌الذى يؤثر اغلفة المجلات المحلاة بصور النساء الجميلات ، ويلقى بما ورث من صور رامبرانت المطبوعة فى سلة المهملات . على انه سرعان مازادت معرفته فحاول ان يصلح التلف الذى حدث على يديه قبل ذلك بسنوات قلائل . ولكن سلة المهملات كانت قد ذهبت وذهبت معها الصور .

على انه ماوافى هذا الزمن حتى كان فنه الذى نقله من الشرق، قد نما وتطور واصبح‌شيئاغاية‌فى‌الجمال ، وعوض ذلك الرجل ما أحدثه اهماله وتهاونه فيما سبق ، بالشىء‌الذى‌عرف‌باسم« فن‌العصور‌الوسطى» . وكان هذا الفن فى دائرة اوربا الشمالية ثمرة للقريحة الالمانية ، ولم يستق من اليونان واللاتين الا القليل ، ولم يستعر شيئا قط من صور الفن القديمة فى مصر واشور ،ولا داعى لذكر الهند والصين فى هذا المقام لا لشىء الا لأنهما كانتا غير موجودتين فى عرف اهل هذا الزمن . والحق ان سلطان شعوب الجنوب على جيرانهم أهل الشمال كان ضئيلا ، ومن ثم كان أهل ايطاليا يجهلون تمام الجهل آثار العمارة التى خلفها هؤلاء ، وكانوا يحتقرونهم احتقارا صريحا لامداراة فيه ولا ابهام .

وانتم جميعا قد سمعتم كلمة « قوطى » ، ولعلكم تقرنون هذه الكلمة بصورة كاتدرائية قديمة بديعة تضرب ابراجها الرفيعة فى كبد السماء . ولكن ما المدلول الحقيقى لهذه الكلمة ؟ انها تدل على شىء « فظ » و « همجى » ، شىء‌يتوقعه‌المرء من « رجل قوطى غير متمدين » ، من رجل خشن قادم من اقاصى المعمورة لايحترم القواعد التى قررها الفن الكلاسيكى ، يشيد « عمائره‌الحديثة‌الفظيعة » ليرضى ذوقه هو المنحط من غير توقير لآيات العمارة مثل الفورم والأكروبوليس .

ومع ذلك فقد ظلت العمارة القوطية عدة قرون تعبر ابلغ تعبير عن الشعور الصادق نحو الفن ، وهو الشعور الذى كان مصدر الالهام لشمالى القارة بأسره. ولا شك فى انك ستذكر مما قلناه فى فصل من‌فصول الكتاب التى سبقت ، كيف كان الناس يعيشون فى العصور الوسطى المتاخرة . فقد كانوا مزارعين يعيشون فى القرى أو متحضرين يعيشون فى مدينة ، او « كيفيتاس » ، وهو الاسم اللاتينى‌القديم للقبيلة .

والحق ان هؤلاء المدنيين كانوا فيما وراء أسوارهم العالية‌وخنادقهم العميقة ، أبناء قبيلة بحق يواجهون

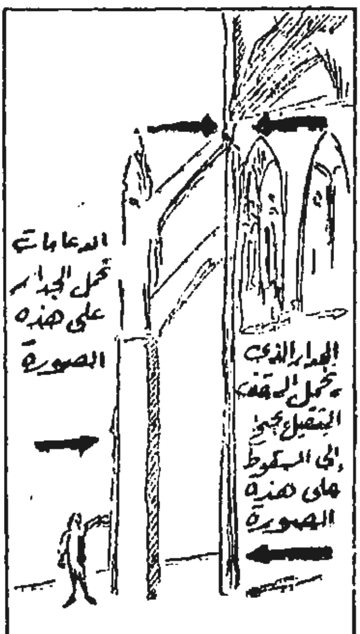
الخطر عصبة ، وينعمون بالامن والرخاء عصبة بفضل نظامهم الذي كان قائما على نهوض الجميع بحماية ذمارهم .

وقد كان السوق الذي يقوم فيه المعبد محور الحياة المدنية فى المدن اليونانية والرومانية القديمة . اما فى القرون الوسطى فقد أصبحت الكنيسة ، بيت الله ، محور حياة الناس . ونحن معشر البروتستانت المحدثين الذين نذهب الى الكنيسة مرة واحدة كل أسبوع ولا نمكث فيها الا ساعات قلائل ، لا نكاد نعرف مقام الكنيسة فى نظر الجماعة أيام القرون الوسطى . ثم انك أيها القارىء تحمل الى الكنيسة لتعميدك قبل أن يمضي اسبوع على اكتحال عينيك بنور الحياة . وتذهب اليها وانت بعد طفل لتستمع قصص القديسين الواردة فى الكتاب المقدس . ثم تغدو ابنا من ابناء الملة ، تبنى لنفسك ان كنت واسع الثراء كنيسة صغيرة خاصة ، اجلالا لذكرى الولى الذي يرعى اسرتك . وقد كانت الكنيسة تفتح ابوابها فى جميع ساعات النهار وشطرا كبيرا من الليل . وكانت بهذا المعنى تشبه المنتدى الحديث يقام لاهل المدينة جميعا . وانك لتجرى وانت فى الكنيسة بان يقع بصرك للمرة الاولى على الفتاة التى كتب عليك أن تعقد عليها فى حفل كبير امام المذبح الاكبر . ثم انك تثوى آخر الأمر حين تنتهي حياتك فى الدنيا تحت أحجار هذا البيت المألوف ، حتى يستطيع اولادك واحفادك ان يمروا بقبرك الى يوم يبعثون .

ولم تكن الكنيسة بيت الله فحسب ، بل كانت ايضا المحور الحقيقى لحياة الناس كافة ، ومن ثم وجب ان تبنى على خلاف كل بناء اقامته يد الانسان من قبل . لقد كانت معابد المصريين واليونان والرومان لا تعدو ان تكون مزارا لرب من ارباب ناحية من النواحى . ولم يكن ثمة داع يحمل هؤلاء القوم على انفساح رقعة هذه المعابد من الداخل ، بحيث تتسع لحشد من الناس كبير ، ذلك انه لم تكن تلقى عظات امام تماثيل اوزيريس او زيوس او جوبيتر . فقد كانت كل المواكب الدينية تقام عند شعوب البحر المتوسط القديمة فى العراء . على أن الجو فى الشمال كان فى الغالب قارسا ، ولذلك كان معظم الشعائر الدينية يقام تحت سقف الكنيسة .

وظل المهندسون المعماريون عدة قرون يكافحون فى سبيل التغلب على مشكلة تشييد بناء كبير يتسع لهذا العدد . وقد تعلموا من سلفهم الرومان فى العمارة كيف يقيمون جدرانا من الحجارة الثقيلة لا تتخللها الا منافذ صغيرة جدا ، خشية ان تفقد هذه الجدران متانتها ، ثم اقاموا فوقها سقفا ثقيلا من الحجارة . على أن المهندسين فى القرن الثانى عشر كانوا قد شاهدوا بعد اشتعال نار الحروب الصليبية ، العقود المستدقة الرأس التى جرى عليها المهندسون المسلمون ، فاستحدثوا طرازا جديدا اتاح لهم الفرصة الاولى لاقامة ذلك الضرب من البناء الذي يسد حاجة تلك الايام التى اشتدت فيها غيرة الناس على الدين . ثم مضوا فى هذا الطراز العجيب الذى نعته الايطاليون بذلك الاسم الزري الا وهو « القوطى » ، اى الهمجى ، فبلغ هؤلاء المهندسون غرضهم باستحداث سقف معقود مقام على دعائم . على ان هذا السقف اذا ثقل وزنه عن الحد فهو خليق أن يخل بالجدران ، مثله مثل الرجل يزن ثلثمائة رطل ويقعد على كرسى طفل ، فيتداعى الكرسى من تحته .

واراد المهندسون المعماريون الفرنسيون أن يتغلبوا على هذه الصعوبة ، فاخذوا يدعمون الجدران باعضاد ، وكانت هذه الاعضاد مجرد كتل ثقيلة من الحجر تستند اليها الجدران فى حملها السقف .



العمارة القوطية

وزادوا السقف تمكينـا بتعزيز دعائمه بما يعرف بالاعضاد الطائرة ، وهى طريقة من ابسط طرق البناء ستتبينها لأول وهلة عنـدما ترى الصـورة التى رسمتها .

وكانت هذه الطريقة الجديدة فى البناء تسـمح باقامة نوافذ ضخمة . وكان الزجاج فى القرن الثانى عشر من البدع الباهظة الثمن ، فلم يستعمل الا فى نوافذ عـدد قليل جدا من بيوت الأفراد . بل لقد خلت منه قلاع النبلاء ، وهذا هو السبب فى وجـود تيارات الهواء على الدوام ، وفى تدثر أهل تلك الأيام بالفراء فى داخل البيوت وخارجها .

ومن حسن التوفيق ان صناعة الزجاج الملون التى كانت شائعة بين اهل البحر المتوسط القدماء لم تكن قدانقرضت تماما . فقد كان ثمة احياء لصناعة الزجاج المنقوش بالالوان ، وسرعان ما ازدانت نوافذ الكنائس القوطية بقصص من الكتاب المقدس ابرزت على قطع صغيرة من ترابيع الزجاج ، لونت بالوان متالقة وشدت باطر طويلة من الرصاص .

ولننظر اذن الى بيت الله المجيـد الجديد عامـرا بجماهير الناس المتشوقين ، يحيون شعائر الدين كما لم يحيها احد من قبلهم ولا من بعـدهم ! ذلك أن القوم لم يبخلوا بشىء على هـذا البيت ، بيت الله وبيت الانسان ، ولم يستكثروا عليه شيئا مهما بلغ من جودته وغلو ثمنه ونفاسته .

واخذ المثالون الذين كانوا قد تبطلوا منذ سـقوط الامبراطورية الرومانية يعودون فى تهيب الى ممارسة فنهم الجليل . وزينت جميع الابواب الكبرى والعمد والأعضـاد والأطنـاف بصـور منحوتة تمثـل الرب والقديسين المباركين . وشـمر المطرزون ايضـا عن سـاعد الجد ، واخـذوا يصنعون القماش المزركش للحوائط . وجاد الجواهرية ببدائع فنهم حتى يتخذ محراب المذبح كامل زينته . بل فعل المصور كل ما فى وسعه ، ولكن هذا المسكين كان يلاقى مصاعب جمة ، فقد كانت تعوزه الوسيلة المواتية .

وترتبط بذلك قصته .

فقد كان الرومان والنصارى الاولون يغطون أرض معـابدهم وبيوتهم وحـوائطها بالفسيفـساء ، وهى صور كانت تصنع من قطع الزجاج الملون . ولـكن هذا الفن كان عسيرا جدا . فهو لم يكن يتيح للمصور ان يعبر عن كل ما يريد ، وهو امر يدركه كل الاطفال الذين حاولوا أن يصنعوا اشكالا من مكعبات الخشب الملونة . ومن ثم مات فن التصوير بالفسيفـسـاء فى العصور الوسطى المتأخرة ... الا فى روسيا حيث التجا مصورو الفسيفـساء البوزنطيون بعد سقوط القسطنطينية ، واستمروا يزينون حوائط الكنائس الارثوذكسية حتى ايام البلشفيك الذين اوقفـوا بناء الكنائس .

وقد كان فى مقدور المصور فى القرون الوسطى أن يمزج الوانه بماء الجص الندى الذى كانت تطلى به حوائط الكنائس . وظلت هذه الطريقة ، طريقة التصوير على « الجص الغض » (وقد غلب عليها اسم فريسكو ، اى التصوير الغض) .. شائعة جدا عدة قرون . وهى الآن نادرة ندرة فن رسم المنمنمات فى المخطوطات ، وقلما نجد بين مئات الفنانين الذين يعيشون فى مدننا الحديثة واحدا يستطيع ان يعـالج هـذه الطريقـة بنجاح . على انه لم يكن ثمة طريقة غيرها فى القرون الوسطى . وكان الفنانون لايمارسون الا الصور الجصية لانهم لم يجدوا طريقة فى التصوير احسن منها . ومع ذلك فقد كان لهذه الطريقة عيوب خطيرة . ذلك ان الحيطان كانت تنفض الجص فى غالب الأحيـان ، أو تفسد الرطوبة الألوان افسادها لرسوم الورق الذى نلصقه الآن على حوائطنا . وحاول القوم بكل وسـيلة تخطـر على البـال التحرر من اتخاذ الجص وسيلة الى هذا الفن . حاولوا أن يمزجوا الوانهم بالخمـر والخل وعسل النحل وبياض البيض اللزج ، ولـكن لم تات وسيلة من هذه الوسـائل بنتيجة مرضـية . واستمرت هذه التجارب اكثر من الف عام . وقد نجح فنانو العصور الوسطى نجاحا باهرا فى نقش الصـور على الرق الذى كانت تصنع منه اوراق المخطوطات ، ولكن نجاحهم كان محدودا عنـدما تصـدوا لنقش مسـاحات كبيرة من الخشب أو الحجر بطلاء معرض للتشمع .

وقد حلت هذه المشكلة آخر الامر فى جنوبى هولندا خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر على يد **جان وهوبرت فان ايك** . فقد مزج هـذان الأخوان الفلمنكيان المشهوران طلاءهما بنوع من الزيت أعـد اعدادا خاصا . وقد مكنهما ذلك من اتخاذ الخشب والخيش او الحجر او اى شىء آخر سطوحا خلفية لصورهم .

على أنه ما ان حل هذا الزمن حتى كانت غيرة الناس على الدين التى تجلت فى مستهل العصور الوسطى اثرا من آثار الماضى . واخذ اهل المدن الموسرون يحلون محل الاساقفة فى رعاية الفنون . ولـما كان الفن فى جميع الاحوال ينقاد الى اصحاب الثراء ، فقد أخـذ

الفنانون عندئذ يعملون لهؤلاء السادة من أهل الدنيا ، ورسموا صورا للملوك والقراندوقات وأرباب المصارف الأغنياء . وانتشرت الطريقة الجديدة ، طريقة الرسم بالزيت ، فى أمد وجيز جـدا فى جميع انحاء أوربا . وكانت فى كل قطر مدرسـة خاصـة فى الرسم بالزيت تمثل الأذواق المتميزة للقوم الذين كانت ترسم لهـم هذه الصور الشخصية او المناظر الطبيعية .

فقد كان **فلاسكويز** مثلا يصور فى اسبانيا اقـزام البلاط والنساجين الذين كانوا ينسجون الاقمشـة المطرزة فى المصانع الملكية ، وشتى صنوف الاشخاص والموضوعات التى تتصل بالملك وبلاطه . اما فى هولندا فقد رسم **رامبرانت وفرانز هالس وفرمير** المخازن التى فى بيت التاجر وزوجته بملابسـها التى تقرب من ملابس الريفيات وأطفاله الأصحاء المتغطرسين والسفن التى درت عليه الثروة . اما فى ايطاليا التى كان البابا فيها لايزال اكبر راع للفنون ، فقد استمر **ميخائيل انجلو وكورجيو** يرسمان مريم العذراء والقديسين . وكان النبلاء فى انكلترا على جانب عظيم من الثراء والسلطان ، كما كان الملوك فى فرنسا قد غـدوا اصحاب الـكلمة العليا فى الدولة ، ومن ثم اخـذ الرسامون فى هاتين الدولتين يصورون الأعيان المبرزين الـذين كانـوا يساهمون فى الحكم ، والسيدات الفاتنات اللائى كن صديقات لجلالة الملك .

وتجلى أثر التغير الكبير الذى طرأ على التصوير ، بانصراف الناس عن الكنيسة القديمة ، وظهور طبقة اجتماعية جديدة فى سائر ضروب الفن الاخرى . واتاح اختراع الطباعة للمؤلفين احراز الشهرة والمكانة بتاليف الكتب للجماهير ، ونشأت بفضل ذلك حرفة الروائى والرسام . على ان الناس الذين كان لديهم من المـال مايكفى لشراء الكتب الجديدة ، لم يكونوا من اولئك الذين يؤثرون الاخلاد الى بيوتهم بالليـل يتاملون فى السقف أو يجلسون فارغى البال . لقد كان هـؤلاء يسعون الى التسلية ، وكان عدد المنشدين فى القرون الوسطى قليلا لايكفى للترويح عن الناس . ومن ثم اتيحت للكتاب المسرحيين الفرصة الأولى لممارسـة حرفتهم بعد ان انقطعت امثال هذه الفرص منذ عهد دول المدن اليونانية الأولى لالفين من السنين خلت . وقد عرفت القرون الوسطى المسرح بوصفه جزءا بعينه من اعياد الكنيسـة فحسب . فقد كانت مآسى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تروى قصـة الآلام الـتى قاساها الرب . على ان المسرح الدنيوى عاد الى الظهور فى القرن السادس عشر . صحيح أن كاتب المسرحيات المحترف والممثل المحترف لم يكونا من أصحاب المكانة السامية بحال ، فقد كان **شكسبير** ضربا من اللاعبين فى ملاعب الوحوش (سرك) يسلى جيرانه بمآسـيه وفكاهياته . الا انه كان قد بدأ يكسب احترام هؤلاء الجيران عندما ادركته المنية عام ١٦١٦ ، وعاد الممثلون لايونسعون تحت رقابة رجال الشرطة .

وكان معاصر شكسبير ، **لويه ده فيجا** ، ذلـكم الاسبانى العجيب الذى كتب ما لا يقل عن الف وثمانمائة مسرحية دنيوية وأربعمائة مسرحية دينية ، رجلا من ذوى المكانة تلقى من البابا مايفيد رضاه عن آثاره . اما **موليير** الذى جاء بعد **لويه** بقرن من الزمان ، فقد كان اهلا لصحبة الملك لويس الرابع عشر نفسـه .

ومن يومئذ اخذ الناس يتعلقون بالمسرح تعلقا يزداد باطراد حتى لقد اصبح المسرح اليوم جزءا من كل مدينة حسنة النظام ، كما تغلغلت « المسرحية الصامتة » التى تبرز على الشاشة البيضاء فى أصغر القرى والدساكر .

على ان ثمة فنا آخر قدر له ان يصبح أشيع الفنون جميعا ، الا وهو الموسيقى . لقد كانت معظم صـور الفن القديمة تتطلب براعة فنية عظيمة ، ودربة تستغرق سنوات وسنوات قبل ان يتهيأ ليدنا الجافية ان تطيع مايشير به المخ ، وتمثل مايتراءى لخيالنا على القماش او فى المرمر . وتعلم التمثيل او كتابة رواية جيـدة يقتضيان من المرء مكابدة تستغرق حياته كلها ، كما أن الجمهور يحتاج الى دربة عظيمـة حتى يتيسر له الحكم على آيات التصوير وروائع الادب وبدائع فن النحت .

اما الموسيقى فكل النـاس ، الا من صمت طبيعته عن النغم صما ، يستطيعون أن يتتبعوا لحنـا من الالحان ، وكل الناس الا مانذر يستطيعون أن يجدوا المتعة فى ضرب ما من ضروب الموسيقى . ولم يستمع الناس فى القرون الوسطى الا الى القليل من الموسيقى التى كانت مقصورة على موسيقى الكنائس فحسب . وكانت التراتيل الدينية خاضعة لقوانين بالغة الصرامة فيما يختص بالايقاع وتناسق الأنغام ، ومن ثم سرعان ماغدت هذه التراتيل رتيبة مملولة ، كما انه لم يكن فى استطاعة الناس ترتيلها ترتيلا حسنا فى الشوارع او فى الأسواق .

وقد غير عصر النهضة من هـذه الحال ، وعادت الموسيقى الى شأنها القديم اصدق اصدقاء الانسان فى مسراته وأحزانه .

لقد كان المصريون والبابليون واليهود القدماء جميعا

من عشاق الموسيقى المولعين ، بل بلغ من امرهم انهم جمعوا آلات مختلفة فى فرق موسيقية منظمة . الا ان اليونان استنكروا هذه الرطانةالهمجية الدخيلة . فقد كانوا يؤثرون أن يسمعواالرجل يترنم بشعر **هوميروس وبندار** الرفيع ، وسمحوا له بأن يقرن هذا الترتيل بالعزف على القيثارة افقر الآلات الوترية جميعا . وكان هذا هو شأن كل فرد منهم اذا شاء الا يتعرض فى غدوه لخطر استهجانالناس له . اما الرومان فكانوا يحبون ان يستمعوا الى فرق الموسيقى تعزف فى عشائهم ومآدبهم ، فاخترعوا معظم الآلات التى نعزف عليها اليوم بعد أن عدلناها تعديلا كبيرا . وقد ازدرت الكنيسة القديمةهذا الضرب من الموسيقى لأنه كان يشير الى حدكبيرالعالم الوثنى الشرير الذى كانت هذه الكنيسة قد قضت عليه وشيكا . ولم يكن جميع اساقفة القرنين الثالث والرابع الميلاديين يسمحون الا باغنيات قليلة يرتلها اهل الملة جميعا . ولما كان اهل الملة خليقين بأن يشذوا فى غنائهم عن قواعد اللحن شذوذا مستقبحا ، ان لم يسترشدوا بآلة من الآلات الموسيقية ، فقد اجازت الكنيسة فيما بعد استعمال الأرغن . وهو آلة من مستحدثات القرن الثانى للميلاد حيث جمعت بين المزامير القديمة لرب الرعاة اليونان وزوجين اثنين من المنافيخ .

ثم حل عصر الهجرات الكبرى ، وقتل آخر الموسيقيين من الرومان ، أو غدوا من عازفى الكمان المتجولين، ينتقلون من بلد الى بلد، ويمارسون حرفتهم فى الطرقات يستمطرون القروش ، شانهم شأن عازفى القيثارة فى المعديات التى تنقل الناس اليوم من شاطىء الى آخر .

على ان ازدهار الحضارة الآخذة بقسط أوفر من الدنيا فى مدن العصور الوسطى المتأخرة ، جعل الناس فى حاجة جديدة الى الموسيقيين . وصنعت آلات موسيقية كالنفير الذى كان لايستعمل الا علامة مؤذنةبالصيد او القتال . على نحو جديد ، يخرج انغاما توائم الراقصين فى حلبات الرقص والأضياف فى قاعات المآدب . وصنع القوم قوسا شد عليه شعر الخيل للعزف على القيثارة العتيقة، وتطورت الآلة ذات الأوتار الستة (وهى اقدم الآلات الوترية جميعا ، اذ يرجع تاريخها الى أيام مصر القديمة واشور) قبل نهاية القرون الوسطى الى تلك الكمان الحديثة ذات الأربعة الأوتار التى بلغ بها **ستراديفاريوس** وغيره من صناع



الموسيقى المتجول

الكمان فى القرن الثانى عشر ، أرفع مراتب الكمال .

ثم اخترع آخر الأمر البيان ، اشيع الآلات الموسيقية جميعا . وقد تبعت هذه الآلة الانسان الى اعماق الغابات الموحشة واصقاع الجليد فى جرينلنده . وكان الارغن اول الآلات ذات المفاتيح ، ولكن العازف عليه كان يعتمد دائما على معونة رجل يتولى عنه نفخ منافيخه ، وهو عمل يؤدى الآن بواسطة الكهرباء . ومن ثم تطلع الموسيقيون الى آلة اقرب تناولا واكثر مواءمة للظرف ، تعاونهم على تدريب التلاميذ الذين يؤهلون للانخراط فى فرق المرتلين الكثيرة . وفى خلال القرن الحادى عشر العظيم ، زودنا **جويدو** الراهب البندكتى ، من اهل ارتزو مسقط رأس الشاعر بترارك ، بالطريقة الحديثة التى نتبعها فى التدوين الموسيقى . وقد حدث فى خلال هذا القرن حينما كان ثمة اهتمام شديد بالموسيقى أن صنعت اول آلة تجمع بين المفاتيح والأوتار . ولابد أن انغامها كانت تصلصل صلصلة بيان الاطفال الذى نستطيع ان نشتريه من اى حانوت يبيع لعب الصغار . وتطور المصوات المفرد الوتر الصغير فى فينا ــ وهى البلدالتى كان موسيقيوها المتجولون من اهل القرون الوسطى الذين سلكوا ضمن المشعوذين والمحتالين ، قد اقاموا اول نقابة مستقلة للموسيقيين عام ١٢٨٨ ــ تطور الى شىء يمكن أن نعده

الأصل الذى اخذ منه بياننا الحديث . وانتقلت الآلة الوترية ذات الملاوى أو المفاتيح (وهو الاسم الذى غلب عليها فى تلك الايام بالنسبة الى ماتزودت به من ملاو أو مفاتيح) من النمسا الى ايطاليا . ثم ارتقوا فى ايطاليا بهذه الآلةواصبحت تسمى «اسپينت» نسبة الى مخترعها **جيوفانى سپينتى** البندقى . واخيرا استطاع **برتلوميو كريستوفورى** ، خلال القرن الثامن عشر فيما بين سنتى ١٧٠٩ و ١٧٢٠ ، أن يصنع بيانا له لوحة من الملاوى تمكن العازف عليه من أن يرتفع بالنغم أو يخافت به . وقد تطورت هذه الآلة بعد ادخال بعض التعديلات عليها ففقدت مايعرف بالبيان .

ومن ثم اصبح فى متناول العالم لاول مرة آلة سهلة ميسرة ، يستطيع المرء ان يتقن العزف عليها فى بضع سنين من غير حاجة الى مداومة ضبط اوتارها وتنغيمها كما هو الشأن بالنسبة للقيثارة والكمان ، آلة الطف مسمعا من ابواق القرون الوسطى ومزاميرها على اختلاف انواعها . وكما ان الحاكى قد ادخل فى قلوب المحدثين لأول مرة محبة الموسيقى ، فكذلك نشر البيان الأول المعرفة بالموسيقى فى دائرة أوسع وارحب ، واصبحت الموسيقى جزءا من تعليم كل رجل مهذب وكل امرأة مثقفة ، وغدا للأمراء وسراء التجار فرق موسيقية خاصة . وادخلت الموسيقى فى تمثيل الروايات المسرحية ، ومن ثم نشأ فن الأوبرات الحديثة . ولم يكن يستطيع تحمل نفقة فرق الأوبرا فى اول الامر الا عدد قليل جدا من الامراء الاغنياء . على أن تذوق الناس لهذا الضرب من ضروب الترويح عن النفس ازداد ، فأقام كثير من المدن مسارح خاصة حيث كانت تمثل الاوبرات الايطالية ثم الاوبرات الالمانية ، فيستمتع بها المجتمع باسره الى اقصى حدود الاستمتاع ، اللهم الا عدد قليل من طوائف المسيحيين المتزمتين الذين ظلوا ينظرون الى الموسيقى نظرة فيها شك كثير ، لانها شيء أفتن من أن يعود على الروح بالخير العميم .

وما ان حل منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت حياة الاوربيين الموسيقية فى عنفوانها . ثم حدث ان برز الى الصفوف الاولى رجل اعظم من سائر الناس ، عازف ارغن بسيط من كنيسة **توما** بليپسك يدعى **يوهان سبستيان باخ** . وقد وضع هذا الرجل اساس موسيقانا الحديثة كلها بفضل الألحان التى صنعها لجميع الآلات المعروفة ، لافرق فى ذلك بين اغنياته الفكاهية ورقصاته الشعبية واناشيده وتراتيله الدينية التى بلغت الغاية فى الجلال والروعة . فلما توفى **باخ** خلفه **موتسارت** ، الذى ابدع وشيا موسيقيا من موارد الجمال الصافى يذكرنا بغلالات منمنمة نسجها صاحبها ، فكانت هى الانسجام وهى الشعر . ثم اتى من بعده **لودفج فون بيتهوفن** الذى كانت حياته افجع حياة يمكن ان تمر برجل ، فزودنا بالفرقة الموسيقية بمعناها الحديث ، الا انه لم يسمع لحنا واحدا من الحانه العظيمة ، فقد حل بأذنه وقر من جراء البرد الذى أصابه فى سنى بؤسه .

وقد عاش بيتهوفن فى زمن الثورة الفرنسية الكبرى ، وامتلأ قلبه بالامل فى حلول عهد جديد مجيد ، فأهدى احدى سيمفونياته الى نابليون ، ولكن قدر له ان يعيش ليشهد مصرع هذا الأمل ، ومات بيتهوفن سنة ١٨٢٧ ، وكان نابليون قد ولى وانقضى عهد الثورة الفرنسية . الا ان الآلة البخارية كانت قد حلت وملأت العالم بصوت لايشبه فى شيء قط ، الأحلام التى عبرت عنها السيمفونية الثالثة .

والحق ان النظام الجديد الذى خلقه الحديد والفحم والمصانع الكبرى ، لم يعد على الفن والتصوير والنحت او الموسيقى الابفائدة قليلة . ولم يعد ثمة وجود للكنيسة والأمراء وتجار القرون الوسطى والقرنين السابع عشر والثامن عشر الذين كانوا حماة الفن ورعاته . وقد كان أئمة العالم الصناعى الجديد ، أكثر عملا واقل ثقافة من ان يحفلوا بالصور والمطبوعات والسوناتا واللطائف المنقوشة من العاج ، بصرف النظر عن الفنانين الذين ابدعوا هذه الآيات التى لم يكن لها نفع مادى للمجتمع الذى عاش فيه هؤلاء الفنانون . واخذ العمال فى المصانع يسمعون جلبة آلاتهم حتى فقدوا كل احساس بعذب انغام الرباب والناى الذى ابدعه اسلافهم الفلاحون . لقد اصبحت الفنون اولادا غير شرعيين للعصر الصناعى الجديد ، وانفصل الفن عن الحياة تمام الانفصال . وكانت آثار المصورين مهما بلغ شأنها تموت موتا وئيدا فى المتاحف . وغدت الموسيقى وقفا على عدد قليل من ارباب التحف الذين نقلوا هذا الفن من البيوت الى المحافل الموسيقية .

على أن الفنون اخذت تستعيد الآن كيانها بخطى وئيدة وان تك مطردة . وبدأ الناس يشعرون بأن **رامبرانت وبيتهوفن ورودان** ، هم بحق انبياء الجنس البشرى وقادته ، وأن العالم اذا خلا من الفن والسعادة كان أشبه بدار من دور التمريض خلت من اسباب الضحك والسرور .

التوسع الاستعماري والحرب

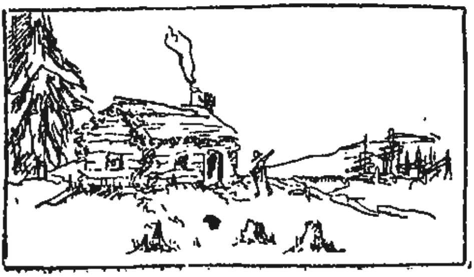
فصل يجب أن يقدم اليك جانبا كبيرا من المعلومات السياسية فى السنوات الخمسين الاخيرة ، على ان هذا الفصل يضم بين دفتيه حقا تغيرات عدة ومبررات قليلة

لو اننى كنت اعلم بالمصاعب الجمة التى تعترض كتابة تاريخ للعالم ، لما اقدمت قط على هذا العمل . ولا شك فى ان اى رجل أوتى من الهمة مايسمح له بنسيان نفسه ست سنوات بين ارفف الكتب الوخمة فى مكتبة من المكتبات ، يستطيع ان يصنف مجلدا ضخما يصف الحوادث فى كل بلد وفى كل قرن . ولكن ليس هذا هو الغرض من هذا الكتاب . فقد اراد الناشرون أن ينشروا تاريخا محكما محبوكا ، أو قل قصة لاتسير حوادثها سيرا ، وانما تركض ركضا . وانا الآن اذ اوشك ان اختم الكتاب أجد أن فصولا معينة منه تركض ، على حين تسير فصول اخرى سيرا وئيدا خلال صحراء موحشة من الأزمان التى جر عليها النسيان أذياله منذ عهد بعيد ، وان اجزاء قليلة منه لاتتقدم على الاطلاق ، على حين تزخر اخرى بالنشاط والحركة حقا وتجيش باعاجيب البطولة والفروسية . ولم اكن أحب ان يحصل ذلك ، ومن ثم اقترحت على الناشرين ان نعدم المخطوط باسره ونعاود كتابته من اوله ، على انهم لم يرضوا بذلك .

ورايت ان خير حل يذلل هذه المشاكل التى اعترضتنى بعد رفض هذا الاقتراح ، هو أن احمل صفحات هذا المؤلف المكتوبة على الآلة الكاتبة واعرضها على عدد من اصدقائى البررة ، لقراءة ماكتبت والانتفاع بما يبدونه الى من نصح . على ان هذه التجربة كانت مخيبة للآمال . لقد كان لكل منهم أهواؤه وهواياته ومفاضلاته . فسألونى جميعا : لماذا فعلت كذا ؟ واين كيت وكيت ؟ وكيف اجترات على الاغضاء عن امتهم الاثيرة لديهم ، واهمال رجل دولتهم المفضل ، بل احب مجرميهم الى قلوبهم ؟ ورأى بعضهم ان نابليون وجنكيزخان ، كانا حريين بكل فضل ! فقلت لهم مبينا : اننى حاولت بكل ما وسعنى أن انصف نابليون ، ولكنه كان فى تقديرى اقل شأنا بكثير من غيره من الرجال امثال جورج واشنطون وجوستافوس فاسا ، واغسطس ، وحمورابى او لنكولن ونفر آخر سواهم ، ولم اجد بدا من كتابة فقرات قليلة عن كل واحد منهم لا لشيء ، الا ان المقام لم يكن يسمح باطالة الحديث عنهم

اما بخصوص جنكيزخان ، فانى لا اعترف له الا بالقدرة الفائقة على قتل الناس جملة ، ومن ثم صحت نيتى على الا ازيد فى شهرته أكثر مما اطيق .

ووجه الى الناقد الثانى الحديث قائلا « هذا حسن جدا بقدر ما يبلغ اليه من مدى ، ولكن ماشأن المتطهرين ؟ لقد احتفلت امريكا أخيرا بانقضاء ثلثمائة سنة على نزولهم فى أرضها . وكان يجب أن يفرد لهم



الرائد

حيز أكبر فى الكتاب . . فكان جوابى عليه ان المتطهرين كانوا خليقين بان يخصص لهم نصف فصل من الفصول الاثنى عشر الأولى ، لو اننى كنت اكتب تاريخا لأمريكا ، على ان كتابى هذا تاريخ للانسانية ، وان الحادث الذى وقع عند صخرة پليموث لم يصبح مسالة من المسائل الدولية البعيدة الاثر الا بعد ذلك بعدة قرون ، وان الذى انشأ الولايات المتحدة ثلاث عشرة مستعمرة لا مستعمرة واحدة . وان معظم زعمائها البارزين فى العشرين سنة الأولى من تاريخها ينتمون الى ڤرجينيا وپنسلڤاليا وجزيرة نڤيس أكثر من انتمائهم الى ماساشوستس ، وان المتطهرين يجب من ثم ان يقتنعوا بصفحة من الكتاب وخريطة واحدة خاصة بهم .

ثم جاء دور المتخصص فى دراسات ماقبل التاريخ فسألنى بحق جبابرة العظايا العظيمة : لم لم افرد حيزا اكبر لذلك الجنس العجيب ، جنس انسان كرومانيون الذي بلغ مرتبة سامية من الحضارة منذ عشرة آلاف سنة ؟ وهذا صحيح ، ولكن لم لم أفعل

هذا ؟ السبب بسيط . هو اننى لا اعنى بتوفية الكلام عن هذه الاجناس الاولى عناية رجل من رجالنا البارزين فى علم الانسان . فقد خلق روسو وفلاسفة القرن الثامن عشر « الهمجى النبيل » الذى افترضوا انه عاش فى سعادة كاملة فى أول الأزمان . الا ان علماءنا المحدثين انكروا « الهمجى النبيل » الذى احبه اجدادنا اخلص الحب واستعاضوا عنه ب « الهمجى الجليل »، همجى الوديان الفرنسية الذى قضى منذ خمسة وثلاثين الف سنة على السيطرة التى فرضها على العالم أولئك المتوحشون ذوو الجباه الضيقة والحياة المنحطة : قوم نيندرتال وجيرانهم الالمان الآخرون . واطلعونا على الفيلة التى صورها انسان كرومانيون ، وعلى التماثيل التى نحتها ، وكللوا هامته بكثير من آيات المجد والفخار .

ولست اعنى بذلك انهم على خطأ . وانما الذى اعتقده هو ان ماعرفناه حتى الآن عن هذه الحقبة باسرها اقل من ان يبيح لنا ان نستعيد صورة المجتمع الاول فى غربى اوربا على نحو دقيق مهما بلغ حظه من التواضع . وانا اوثر ان اغضى من اشياء محققة اكثر من ايثارى الانزلاق الى ذكر اشياء لم تتحقق .

ثم ان ثمة نقادا آخرين اتهمونى بالتحيز الصريح . فلماذا اهملت بلادا كايرلندا وبلغاريا وسيام ، واقحمت بلادا اخرى مثل هولندا وايسلندا وسويسرا ؟ فكان جوابى اننى لم أقحم اية بلاد فى كتابى ، ذلك ان الظروف القاهرة هى التى اقحمتها ، وغاية الامر انه لم يكن فى مقدورى أن استبعد مثل هذه البلاد . وانى لارجو ان تسمحوا لى بان اذكر تبيانا لمقصودى اساس تقديرى للموضوعات التى رايت انها جديرة بان يتناولها هذا التاريخ حقا .

لم اجر فى هذا الكتاب على قاعدة واحدة . فقد كنت أتساءل : هل استحدث الشخص او البلاد التى انا بصددها فكرة جديدة، او اتى بعمل مبتكر لولاه لتغير تاريخ الجنس البشرى باسره ؟ . فلم تكن المسالة اذن مسالة تقدير شخصى ، وانما كانت مسالة حكم رصين يكاد يقوم على المقاييس الحسابية . فما من قوم كان لهم فى التاريخ صفحة ازهى من صفحة المغول ، كما ان التاريخ لم يعرف قوما اقل منهم فضلا على سائر البشر ، سواء فى فعالهم أو فى ميدان التقدم العقلى .

وسيرة **تجلات بلصر** الاشورى حافلة بالاحداث المثيرة ، ولكن وجوده اوعدم وجوده يستويان بالنسبة للانسانية . وكذلك لاتعود اهمية تاريخ الجمهورية الهولندية الى ماحدث فى وقت من الاوقات من خروج بحارة **ده رويتر** للصيد فى مياه نهر التيمز ، وانما السبب فى اهميته هو ان هذا الجسر الطينى الصغير الذى يساير شواطىء بحر الشمال قد فتح ذراعيه لكل جنس من عجائب الناس الذين كانوا يعتنقون الافكار العجيبة فى شتى الموضوعات الشاذة كل الشذوذ عما الف الناس .

والحق كل الحق ان اثينا وفلورنسا فى اوج مجدهما كان يسكنهما عدد من الناس لايتجاوزون عشر سكان مدينة كانساس . على ان تاريخنا كان خليقا ان يختلف عما صار اليه كل الاختلاف لو قدر لهاتين المدينتين الصغيرتين من مدن حوض البحر المتوسط الا تبرزا الى عالم الوجود . ولا يكاد يصدق هذا على القصبة النشيطة الواقعة على نهر مسورى ، مع تقديم الاعتذارات الواجبة الى اهل مقاطعة وياندوت الصالحين .

ولتسمحوا لى بان اسوق لكم حقيقة واحدة اخرى ، مادمت قد رميت باننى انظر للامور نظرة شخصية ضيقة .

فنحن اذا قصدنا زيارة طبيب ، فاننا نتحقق قبل ان نذهب اليه : هل هو جراح أو مشخص للامراض او معالج الداء بالداء أو مطبب للروح . ذلك اننا نرغب فى معرفة المنحى الذى سينحوه فى علاج مانشكو منه . ويجب ان نكون حريصين فى اختيار مؤرخينا حرصنا فى اختيار اطبائنا . وانا لنذهب فى التفكير الى القول « حسننا ، التاريخ هو التاريخ » وليكن هذا هو شأنه . على ان مؤلف هذا الكتاب الذى تربى فى بيت برسبتيرى متشدد فى ناحية من اقاصى اسكتلنده ، سينظر الى كل مسالة من مسائل العلاقات الانسانية نظرة تخالف نظرة جاره الذى كتب عليه ، وهو بعد طفل ، ان يستمع الى تلك العظات الاخاذة ، عظات **روبرت انجرسول** عدو جميع الشياطين الذين يتكشفون للانسان . وقد ينسى كل من هذين الرجلين بمرور الزمن تعليمه الاول ولا يعاود قط زيارة الكنيسة او قاعة المحاضرات ... ولكن اثر هذه السنين المكين يظل راسخا فى نفسه لايستطيع منه فكاكا فى كل مايكتب او يقول او يفعل .

وقد ذكرت لكم فى مقدمة هذا الكتاب انه لا ينبغى لى ان اكون من الهداة المعصومين . وانى لاكرر هذا التحرز ونحن موشكون على بلوغ خاتمته . ولدت وتعلمت فى بيئة سادتها تلك السماحة العتيقة التى اعقبت كشوف داروين وغيره من رواد القرن التاسع عشر . وقد اتفق لى وانا طفل ان قضيت معظم

الساعات التى كنت أتريض فيها على قدمى مع عم كان من كبار الجامعين لآثار **مونتانى** صاحب المقالات الفرنسى العظيم الذى عاش فى القرن السادس عشر . وكنت اقع دائما على آثار ارازمس بحكم ولادتى فى **روتردام** وتعلمى فى مدينة **جودا** . ولأمر ما لا اعرفه تملك هذا الداعيــة الكبير من دعـاة التسامح زمام نفسى التى لم تكن تعرف التسامح . ثم كشفت من بعد **اناتول فرانس** . وكـان اول عهـدى باللغــة الانكليزية ان وقعت صــدفة على رواية **تاكرى** « هنرى ازموند » ، وهى رواية كان اثرها فى نفسى اكبر من اثر اى كتاب انكليزى آخر .

ولو اننى ولدت فى مدينة امريكية من مدن الريف ، فربما كنت اميـل بعض الميـل الى التراتيل التى سـمعتها فى طفـولتى . على ان اول ما اذكـره من الموسيقى يعود الى امسية من الامسيات اخـذتنى فيها امى لسماع مقطوعة لعلم من اعلام الموسيقى هو **باخ** . وقد اثر فى نفسى هـذا الـكمال المحكم الذى سما اليـه ذلك الامام العظيم من ائمة البروتستانت الى حـد اننى عدت لا اسمع التراتيل المالوفة التى تلقى فى صلواتنا الا وينتابنى شعور من الكرب ممض والم واضح صريح .

ثم اننى لو كنت ولدت فى ايطاليـا ، واستـدفأت بالشمس الساطعة فى وادى ارنو السعيد . . لكنت خليقا بان احب الصور المشرقة الزاهية الالوان التي لا تحرك نفسى الآن ، لان اول عهدى بالفن كان فى بلد تسطع فيها الشمس النادرة الطلوع فى قـوة تكاد تبلغ حد الوحشية على ارض بللها المطر ، فتحيل كل شيء ظلاما ونورا متباينين اشد التباين .

وانا اذكر هذه الحقائق القليـلة عامدا متعمدا حتى ايسر لك معرفة اهواء الرجل الذى كتب هذا التاريخ وتبين منحى تفكيره .

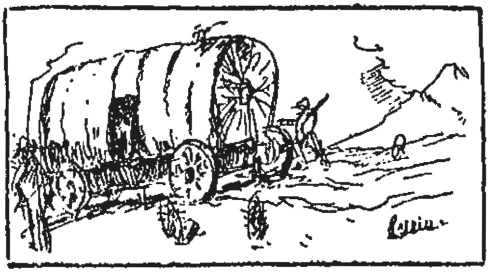
ولنعد الآن الى تاريخ الخمسين سنة الاخيرة بعد هذا الاستطراد الوجيز الذى لم يكن منه بد .

لقد حدثت عدة امور خلال هذه الفترة ، على أن قليلا جدا مما وقع هو الذى كان يبدو آنئذ عظيم الخطر . فقد انقضى العهد الذى كانت الدول الكبرى فيه مجرد وكالات سياسية ، واصبح معظمها هيئات كبرى لها مشروعاتها التجارية . ذلك ان هذه الدول مدت السكك الحديدية ، وانشأت خطوطا للبواخـر تسير الى انحاء العالم كافة ، واعانت هـذه الخطوط باموالهـا ، ووصلت املاكهـا بشـبكة من الخطوط البرقيـة ، واخـذت تزيد باطراد من املاكهـا فى القـارات الاخـرى . وشرعت كل دولة من الدول الكبرى المتنافسة تنادى باحقيتها فى امتلاك كل ارض تتيسر لها فى افريقيا وآسيا . وغـدت فرنسا امـة استعمارية لها مصالح فى الجزائر ومدغشقر وآنـام وتونكين فى شرقى آسيا . ونادت المانيا باستحقاقهـا اجزاء من جنوبى افريقيا وشرقيها ، وانشأت مستعمرات لهـا فى الكمرون على الساحل الغربى لافريقيـا وفى غينيا الجديدة وفى كثير من جزائر المحيط الهادى . ورحبت بالفرصة التى اتاحها لها مقتل بعض المبشرين ، واتخذتها ذريعة للاستيلاء على ميناء كياوتشاو على البحر الاصفر فى الصين . وارادت ايطاليا أن تبلو حظها فى الحبشة فالحق بها جنود النجاشى هزيمة منكرة ، وتعزت عن هذه الهزيمة باحتلال املاك الترك فى طرابلس بشمالى افريقيا . اما روسيا التى كانت قـد احتلت اراضى سيبيريا باسرها ، فقد انتزعت ميناء بورت ارثر من الصين . واحتلت اليابان جزيرة فرموزا بعد ان هزمت الصين فى الحرب التى نشبت بينهمـا عام ١٨٩٥ ، وبدات عام ١٩٠٥ تنادى بحقها فى امتلاك امبراطورية كوريا باسرها .

اما انكلترا ــ اكبر امبراطورية استعمارية عرفهـا التاريخ ــ فقد اخذت على عاتقها « حماية ! » مصر عام ١٨٨٣ . وخاضت انكلترا فى الثلاثين سنة التى تلت ذلك عددا من الحروب الاستعمارية فى شتى انحاء العالم ، وتمكنت عام ١٩٠٢ من غزو **جمهوريتى البوير** المستقلتين : الترانسفال وولاية **اورانج** الحرة بعد قتال مرير دام ثلاث سنوات . وقد شـجعت فى الوقت نفسـه سسل رودز على اقامة دعائم دولة افريقيـة عظمى امتدت من راس الرجاء الصالح الى قرابة مصب النيل ، والتقطت بعزيمة صادقة ما تركته الدول الأوربية الأخرى من جزائر واقاليم .

واستغل ليوبولد ملك بلجيكا الاريب كشوف هنرى استانلى ، فاقام دولة الكنغو الحرة سنة ١٨٨٥ . وكانت هذه الامبراطورية الاسـتوائية الهائلة فى أول أمرها « ملكية مطلقة » ، على انها ظلت تحكم عـدة سنوات حكما سيئا مخزيا . فمـا كان من البلجيكيين الا ان ضموها الى املاكهم ، وجعلوها مستعمرة لهم سـنة ١٩٠٨ ، وقضوا على الفظائع التى اقترفها عاهلهـا الغشوم الذى كان لا يعبأ قط بمصـير رعاياه مادام يحصل على نصيبه من العاج والمطاط .

اما الولايات المتحدة فقد كانت اراضيها أكثر من ان تدعوها الى طلب المزيد . على أن الحكم الرهيب



غزو الغرب

الذى كانت كوبا ــ آخر أملاك الاسبان فى نصف الكرة الغربى ــ ترزح تحت أعبائه ، دفع حكومة واشنطن الى العمل بالفعل . فنشبت بينها وبين اسبانيا حرب قصيرة الأمد خالية من الاحداث انتهت بطرد الاسبان من كوبا وبورتوريكو والفلبين . وغدت بورتوريكو والفلبين مستعمرتين من مستعمرات الولايات المتحدة .

وقد كان تطور العالم الاقتصادى طبيعيا للغاية . ذلك ان عدد المصانع المتزايد فى انكلترا وفرنسا والمانيا كان فى حاجة مطردة الى المواد الخام ، كما كان عدد العمال الأوربيين المتزايد فى حاجة دائما الى المزيد من الطعام . وتعالت صيحات الناس فى كل مكان مطالبين بالمزيد وباسواق اغنى ومناجم فحم وحديد ومزارع مطاط وآبار بترول أيسر منالا ، وموارد حنطة وغلال أوفر وأكبر .

اما الحوادث السياسية البحتة التى كانت تمر بالقارة الاوربية ، فقد انعدم شأنها فى نظر اولئك الذين كانوا يرسمون الخطط لاقامة خطوط للبواخر على فيكتوريا نيانزا ، أو مد خطوط حديدية تخترق قلب شانتونج .

لقد كان هؤلاء يعلمون ان ثمة مشاكل اوربية كثيرة تقتضى الحل ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك ، وتركوا لأحفادهم بتهاونهم وقلة احتفالهم بالأمور ، ميراثا رهيبا من الحقد والبؤس . فقد ظل الركن الجنوبى الشرقى لأوربا قرونا لاتحصى ميدانا للثورة وسفك الدماء . واخذ أهل الصرب وبلغاريا والجبل الأسود فى العقد السابع من القرن الماضى يحاولون من جديد الحصول على حريتهم ، كما شرع الترك بمعاونة كثير من الدول الاوربية يحاولون أن يمنعوا عنهم هذه الحرية .

ومرت ببلغاريا فى عام ١٨٧٦ فترة سادتها المذابح الوحشية بخاصة ، فعيل صبر الشعب الروسى ، واضطرت حكومته الى التدخل ، فكان شأنها شأن الرئيس **ماكنلى** سواء بسواء ، اذ اضطر هو أيضا الى انفاذ حملة الى كوبا لايقاف فرق الرماة التابعة للجنرال **ويلر** عند حدها فى هافانا . وفى ابريل عام ١٨٧٧ عبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب ، واقتحمت ممر شبكا ، واستولت على بلونه ، وسارت جنوبا حتى بلغت ابواب الاستانة . وقد استنكر فريق كبير من الانكليز ما اقدمت عليه حكومتهم عندما انحازت الى السلطان . . الا ان **دزرائيلى** عزم على التدخل ، وكان قد فرغ وشيكا من تنصيب الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند ، كما كان يحب الترك لما كان فيهم من بهاء وحمية ، ويكره الروس لانهم كانوا يبطشون باليهود الذين يعيشون فى بلادهم . وحمل الروس على عقد صلح **سان ستفانو** سنة ١٨٧٨ ، وترك حل مشكلة البلقان لمؤتمر تقرر عقده فى برلين فى يونية أو يولية من السنة نفسها .

وقد سيطرت شخصية دزرائيلى على هذا المؤتمر سيطرة تامة ، حتى ان **بسمارك** خشى بأس ذلك العجوز الاريب ذى الشعر الجعد المضمخ جيدا بالزيت والغطرسة المتعالية التى كانت تخفف منها فكاهته اللاذعة وقدرته العجيبة على الملق والمداهنة . ولم تغب عن عين رئيس وزراء بريطانيا رعاية مصير اصدقائه الترك فى مؤتمر برلين ، واعترف بالجبل الاسود والصرب ورومانيا ممالك مستقلة . اما امارة بلغاريا فقد جعلت شبه مستقلة تحت حكم الامبراطور اسكندر صاحب باتنبرج ابن اخى القيصر اسكندر الثانى .

على انه لم تتح لدولة من هذه الدول ان تنمى سلطانها او مواردها ، مع انها كانت قمينة ان تبلغ ذلك لو ان انكلترا كانت أقل حرصا على مصير السلطان الذى كانت املاكه لازمة لأمن الامبراطورية الانكليزية بوصفها حصنا يقيها من شر عدوان آخر يأتى من ناحية روسيا . وزاد مؤتمر برلين الطين بلة ، فسمح للنمسا بانتزاع ولايتى البوسنة والهرسك من تركيا ، وتولى شئونهما بوصفهما جزءا من املاك هابسبورج. صحيح ان النمسا قد احسنت فى ذلك فحكمت هاتين الولايتين المهملتين على خير ما تحكم انكلترا مستعمراتها، وفى هذا القول الكفاية . الا انه كان يسكنهما كثير من الصربيين . وكان هؤلاء الصربيون فيما مضى من الازمان جزءا من الامبراطورية الصربية العظيمة ، امبراطورية **ستيفان دوشان** الذى استطاع فى مستهل القرن الرابع عشر ان يحمى غربى اوربا من غزوات الترك ، والذى كانت حاضرته **أسكوب** مركزا من مراكز

الحضارة قبل أن يكشف **كولومبس** عن أراضي الغرب الجديدة بمائة وخمسين عاما . وقد تذكر الصربيون مجدهم القديم . . وما كان أحراهم أن يفعلوا ! واستنكروا وجود النمسويين في ولايتين كان الصربيون يشعرون بان التقاليد جميعا تجعلهما من نصيبهم .

وقد كانت **سيراجيفو** عاصمة البوسنة هي التي شهدت في ٢٨ يونية سنة ١٩١٤ مصرع الغرانددوق **فرديناند** ولي عهد النمسا . وكان قاتله طالبا صربيا دفعته الى ذلك دوافع وطنية خالصة . ولكن جريرة هذا الحادث الرهيب الذي كان السبب المباشر لاندلاع نيران الحرب العظمى **(الأولى)** ، وان لم يكن السبب الوحيد ، لاتقع على كاهل ذلك الشاب الصربي المتهوس أو على ضحيته النمسوي .

وانما يجب علينا أن نرجع بهذا السبب الى أيام مؤتمر برلين المشهور حينما كانت أوربا مستغرقة في اقامة حضارة مادية استغراقا صرفها عن العناية باطماح وآمال شعب منسي في ركن موحش من شبه جزيرة البلقان القديمة .

عالم جديد

الحرب العظمى (الأولى) التي كانت في حقيقة امرها نضالا في سبيل اقامة عالم جديد افضل من العالم الذي كنا نعيش فيه

كان المركيز **كوندورسيه** من انبل شخصيات ذلك الفريق الصغير من المتحمسين الصادقين الذين كانوا سببا في اشعال نار الثورة الفرنسية الكبرى . لقد وهب هذا الرجل حياته للفقراء والبائسين ، وكان فردا من الأفراد الذين عاونوا **دالمبير وديدرو** عندما صنفا موسوعتهما المشهورة ، كما كان في السنوات الاولى للثورة زعيم فريق المعتدلين من رجال المؤتمر الوطني .

وكان تسامحه ورحمته وعظيم ادراكه للأمور قد اثارت الريب حوله عندما اتاحت خيانة الملك وعصبته لغلاة المتطرفين فرصة الاستيلاء على الحكم وقتل خصومهم ، فندد به « خارجا على القانون » ، أو طريد القانون ، واصبح من ثم تحت رحمة كل وطني غيور . وابدى أصدقاؤه استعدادهم لاخفائه على مهدتهم ، ولكن كوندورسيه أبى عليهم هذه التضحية ، وعمد الى الفرار ، وحاول أن يبلغ قصره لعله يأمن فيه على نفسه ، وقضى ثلاث ليال في العراء ثم دخل خانا ممزق الثياب ، دامي الاوصال ، وطلب طعاما . وفتشه اولئك الريفيون المتشككون فوجدوا في جيبه نسخة من ديوان الشاعر اللاتيني هوراس ، فدل ذلك على أن سجينهم رجل طيب النشأة لا شأن له بطرق الريف في زمن كان ينظر فيه الى كل متعلم نظرة العدو لحكومة الثورة .

وحملوا كوندورسيه وقيدوه وكمموه والقوا به في سجن القرية ، حتى اذا اقبل الشرطة في الصباح ليحملوه الى باريس وقطع راسه . . . الفوه ، ويا للعجب ، ميتا !

وقد كان من حق هذا الرجل الذي بذل نفسه جميعا بلا جزاء ولا شكور ، أن ييأس من الجنس البشري . على انه كتب كلمات قليلة يتبدى صدقها اليوم كما تبدى منذ مائة وثلاثين سنة . وهأنذا اكرر هذه الكلمات ليفيد منها القراء :

« لم تضع الطبيعة حدا لآمالنا . وان صورة الجنس البشري الذي تحرر الآن من اغلاله ، واخذ يسير في طريق الحق والفضيلة والسعادة بخطى ثابتة ... لتمد الفيلسوف بمشهد يتعزى به عن الاخطاء والآثام والمظالم التي مازالت تدنس هذه الأرض ويسود منها اديمها » .

لقد مر العالم وشيكا بنوبة من الألم اذا قيست به الثورة الفرنسية كانت اشبه بالحادث العابر . وبلغ من هول الصدمة انها أخمدت آخر بصيص من الأمل في صدور ملايين من الناس . ولقد كان هؤلاء يتغنون بنشيد التقدم ، واعقبت صلواتهم في سبيل السلام اربع سنوات من المذابح ، ومن ثم اخذوا يتساءلون « أيحق لنا أن نعمل وان نستعبد لخير مخلوقات لم تتجاوز بعد طور انسان الكهوف الأول ؟ » .

وليس ثمة الا رد واحد على هذا السؤال .

وهذا الرد هو « أن نعم » !

صحيح ان الحرب العظمى كانت كارثة فظيعة، ولكنها لاتعنى أن الأمور قد بلغت نهايتها ، بل هى على خلاف ذلك قد آذنت بحلول عهد جديد .



الحرب

ومن اليسير الكتابة عن تاريخ اليونان أو الرومان أو القرون الوسطى ، ذلك ان الممثلين الذين قاموا بأدوارهم على هذا المسرح الذى جر عليه النسيان أذياله منذ عهد بعيد ، قد عدا عليهم الموت جميعا . ونحن نستطيع أن ننقدهم فى هدوء ومن غير انفعال . فقد تبدد شمل النظارة الذين صفقوا استحسانا لما فعلوا ، وليس من الممكن ان تؤذى ملاحظاتنا شعورهم .

اما الحوادث المعاصرة فمن اشق الأمور أن نعرضها عرضا صادقا ، ذلك ان المشاكل التى تشغل عقول الناس الذين نجتاز واياهم طريق الحياة : هى مشاكلنا نحن ، وهى تسرنا ابلغ السرور أو تؤلمنا اشد الالم ، اذا وصفت وصفا يتحرى الانصاف الواجب عند كتابة التاريخ ، ولا يتعمد قرع طبول الدعاية والاعلان . ومهما يكن من شىء فساحاول ان اذكر لكم السبب الذى يجعلنى اتفق فى الرأى مع كوندورسيه المسكين فى تعبيره عن عقيدته الراسخة فى قيام مستقبل أسعد واهنأ .

وقد سبق أن حذرتكم كثيرا من تلك الفكرة المخطئة ، التى تولدت من استعمال ماتعارفنا على تسميته بالعهود التاريخية التى تقسم قصة الانسان الى اربعة اطوار : العالم القديم ، والعصور الوسطى ، وعصر النهضة ، وعصر الاصلاح الدينى ، والعصر الحديث ، وآخر هذه العصور هو اخطرها جميعا . فالصفة « حديث » تدل فيما تدل على أننا — اهل القرن العشرين — قد بلغنا غاية مابذله الانسان من جهود . ومنذ خمسين سنة اعتقد الاحرار فى انكلترا بزعامة غلادستون ، أن مشكلة قيام حكومة نيابية ديمقراطية بحق ... قد حلت الى الابد بفضل مشروع قانون الاصلاح العظيم الثانى الذى جعل نصيب العمال فى الحكم مساويا لارباب العمل الذين يستخدمونهم . ولما وصف دزرائيلى واصدقاؤه المحافظون هذا المشروع بأنه « خطوة فى الظلام » رد عليهم الأحرار « أن لا » . ذلك انهم كانوا مؤمنين بقضيتهم ، واثقين بأن جميع طبقات المجتمع ستتعاون من ثم على انجاح حكومة وطنهم المشترك . وقد حدثت منذ ذلك عدة امور ، وبدأ الأحرار القلائل الذين مازالوا على قيد الحياة يدركون أنهم كانوا على خطأ . وليس ثمة جواب شاف لأية مشكلة تاريخية .

ويجب على كل جيل ان يجاهد حق الجهاد من جديد ، أو يهلك كما هلكت الحيوانات البليدة التى كانت تعيش فى عالم ماقبل التاريخ .

وما ان تعى هذه الحقيقة الكبرى حتى تكتسب نظرة جديدة الى الحياة أوسع وأفسح . وعليك من بعد ان تخطو خطوة اخرى الى الامام ، وتحاول ان تتخيل نفسك فى موضع أحفاد أحفادك الذين سيحلون محلك فى سنة ١٠٠٠٠ م . وهؤلاء سيدرسون أيضا التاريخ . فبأى نظرة سينظرون الى تلك الحقبة القصيرة ، حقبة اربعة من آلاف السنين التى احتفظنا خلالها بسجلات عن فعالنا وأفكارنا ؟ سيحسب هؤلاء أن نابليون كان معاصرا لتجلات بلصر الفاتح الأشورى . وربما خلطوا بينه وبين جنكيزخان أو الاسكندر المقدونى . وستنجلى لهم الحرب الكبرى التى انتهت وشيكا فى ضوء ذلك الصراع التجارى الطويل الذى قضى فى أمر السيادة على البحر المتوسط حينما قاتلت روما وقرطاجنة مائة وثمانيا وعشرين سنة فى سبيل السيطرة على هذا البحر . وستبدى لهم اضطرابات البلقان فى القرن التاسع عشر — ونعنى بذلك نضال الصرب واليونان وبلغاريا والجبل الاسود فى سبيل حريتها — حلقة من حلقات القلاقل التى سببتها الهجرات الكبرى . وسينظرون الى صور كاتدرائية ريمس التى أتت عليها مدافع الألمان بالامس ، نظرتنا الى صورة من صور الاكروبوليس التى تلفت منذ مائتين وخمسين سنة مضت خلال الحرب التى نشبت بين الترك والبنادقة . وسيعدون الخوف من الموت الذى مازال شائعا بين عدد كبير من الناس خرافة من خرافات الاطفال لعلها كانت أمرا مألوفا بالنسبة لقوم ظلوا يحرقون الساحرات حتى

سنة ١٦٩٢ . بل ان مستشفياتنا ومعاملنا وقاعات الجراحة التى نعتز بها غاية الاعتزاز ، سوف تبدو فى نظرهم صورة من صور معامل كيمائيى وجراحى العصور الوسطى أصابها تحسن ضئيل .

والسبب فى ذلك بسيط . فنحن معشر الرجال والنساء المحدثين .. لسنا «محدثين» على الاطلاق . وانما نحن على العكس من ذلك ننتسب الى الاجيال الاخيرة من سكان الكهوف . ذلك ان اساس العهد الجديد لم يوضع الا بالامس. واتيح للجنس البشرى الفرصة الاولى ليغدو جنسا متمدينا بحق عندما تذرع بالشجاعة ، واخذ يشك فى كل الأمور ، وجعل « المعرفة والفهم » الاساس الذى يبنى عليه مجتمعا من البشر عاقلا فطنا . لقد كانت الحرب الكبرى « الألم المستفحل » الذى أصاب هذا العالم الجديد.



انتشار فكرة الامبراطورية

وسوف يظل الناس أمدا طويلا يكتبون الكتب الطوال لاثبات أن زيدا او عمرا أو بكرا هم الذين تسببوا فى قيام هذه الحرب. وسينشر الاشتراكيون المجلدات يتهمون فيها الراسماليين باشعال نارها سعيا وراء الربح . ويرد الراسماليون بان خسارتهم خلال هذه الحرب كانت فادحة تربى على ماجنوه من مكاسب ، وأن أولادهم كانوا من السابقين اليها ... فقاتلوا وقتلوا ، ثم هم يبينون كيف أن رجال المال فى كل بلد قد حاولوا ، ماوسعهم ، الحيلولة دون قيام العداوات . وسوف يقلب المؤرخون الفرنسيون صفحات الجرائم الالمانية منذ عهد شرلمان الى عهد ولهلم سليل بيت هوهنزلرن. ويرد عليهم المؤرخون الالمان التحية ويقلبون صفحات الفظائع الفرنسية منذ ايام شرلمان الى ايام الرئيس بوانكاريه . ثم يقرر كل منهم مايرتاح اليه من ان الفريق الآخر هو السبب فى اشعال نار هذه الحرب . اما رجال الحكم ، الأموات منهم والاحياء ، فسوف ينهضون الى آلاتهم الكاتبة ، ويبينون للناس كيف حاولوا أن يتجنبوا الحرب وكيف دفعهم خصومهم الأشرار الىخوض غمارها .

اما المؤرخ الذى يجىء بعد ذلك بمائة عام فسوف لايحفل بهذه المعاذير والتبريرات ، وسوف يدرك كنه الأسباب الخفية ، ويعلم أن طموح الأشخاص وخبثهم وجشعهم ... لم يكن لها الا شأن ضئيل فى اشتعال نار الحرب آخر الأمر ، وأن الخطأ الأصلى الذى تسبب عنه كل هذا البؤس والشقاء ، قد ارتكب حينما بدأ علماؤنا عالما جديدا قوامه الصلب والحديد والكيمياء والكهرباء ، ونسوا أن العقل البشرى أبطأ من السلحفاة التى ضرب بها المثل ، وابلد من الكسلان ، ذلكم الحيوان المعروف المشهور ، فهو يتخلف مابين مائة عام وثلثمائة عام عن ركب ذلك النفر من الرواد الشجعان .

فالرجل من الزولو يظل هو هو ، وان لبس الملابس الرسمية . والكلب الذى درب على ركوب العجلات وتدخين الغليون ، لايخرج عن طبيعة الكلاب . والرجل الذى طبع عقله بطابع تجار القرن السادس عشر ، يظل محتفظا بعقليته هذه وان مارس قيادة احدث طراز من سيارات رولز رويس .

واذا عجزت عن فهم ذلك لأول مرة فعاود قراءته مرة اخرى ، ولسوف تتبين معناه فى لحظة ، ويفسر لك كثيرا من الامور التى وقعت منذ سنة ١٩١٤ .

ويمكننى ان اسوق لك مثلا آخر اكثر شيوعا حتى تتبين ما ارمى اليه . يحدث كثيرا فى الدور التى تعرض فيها الصور المتحركة ان تظهر على الشاشة نكات واشارات مضحكة . فلترقب النظارة فى الفرصة الثانية التى تتاح لك ، تجد أن عددا قليلا منهم يكاد يلتهم الكلمات التهاما ، فلا تستغرق منهم قراءة السطور الا ثانية واحدة* . على أن ثمة آخرين تقتضيهم قراءتها مابين عشرين وثلاثين ثانية . ثم يأتى بعد هؤلاء رجال ونساء لا يقرأون الا مايستطيعون ، ولا يدركون النكتة الا حينما يكون الأذكياء من النظارة قد اخذوا يكشفون سر اللقطة الثانية . وحياة الانسان لا تختلف عن ذلك كما سابين لك .

لقد ذكرت لك فى فصل من الفصول السابقة كيف قدر أن تعيش فكرة الامبراطورية الرومانية الف سنة بعد وفاة آخر اباطرة الرومان ، وسببت قيام عدد كبير من الامبراطوريات على غرارها ، واتاحت لأساقفة روما السيادة العالية ، ودفعت نفرا من زعماء البرابرة المسالمين الوادعين الى اقتراف الجرائم وشن حروب متصلة لانهاية لها ، لأنهم كانوا دائما ابدا مفتونين بسحر هذه الكلمة « روما » . وكل هؤلاء القوم والبابوات والأباطرة وسواد الجند لم يكونوا يختلفون كثيرا عنى وعنك . الا انهم عاشوا فى عالم سيطرت عليه السنن الرومانية ، وكانت هذه السنن شيئا حيا ، شيئا لم تغب ذكراه عن الوالد والابن والحفيد . ومن ثم فقد ناضلوا وضحوا بأنفسهم فى سبيل قضية قد لاتجد اليوم الا عددا من الأنصار لايتجاوزون اصابع اليد .

وقد ذكرت لكم فى فصل سابق أيضا كيف قامت الحروب الدينية الكبرى بعد نيف وقرن من وقوع أول عمل سافر من اعمال الاصلاح الدينى . وانت اذا وازنت بين الفصل الخاص بحرب الثلاثين سنة ، والفصل الخاص بالمخترعات ــ لرايت أن هذه المذابح المشينة حدثت حينما كانت أولى الآلات البخارية الساذجة تنفخ بالفعل فى معامل طائفة من علماء الفرنسيين والالمان والانكليز . ولكن العالم عامة لم يحفل اى احتفال بهذه البدع ، واستمر فى جدل دينى عنيف خليق بان يبعث الآن الملالة الى النفوس ، ولكنه لايثير الغضب .

وهكذا استمر الحال على هذا المنوال ، وسيستعمل المؤرخ بعد الف عام الكلمات نفسها فيما يتعلق باوربا فى القرن التاسع عشر المنصرم ، وسيعلم كيف كان الناس منهمكين فى صراع

* على عهد السينما الصامتة طبعا ...

قوى رهيب ، على حين كانت المعامل من حولهم حافلة بقوم من اهل الجد لايعنون اية عناية بشئون السياسة ، ماداموا قادرين على حمل الطبيعة على البوح بقدر يسير آخرمن أسرارها التي تعد بالملايين.

ولسوف يتكشف لك رويدا رويدا مارمي اليه . فقد استطاع المهندسون والعلماء والكيميائيون في مدى قرن أن يملأوا اوربا وامريكا وآسيا بعدد هائل من آلاتهم وخطوط برقهم وطائراتهم ومنتجات القار المستخرج من الفحم الحجرى ، واقاموا عالما جديدا أصبح الزمان والمكان فيه شيئا تافها لا قيمة له ، وابتكروا منتجات جديدة وهبطوا باثمانها هبوطا جعل شراءها ميسورا للناس كافة تقريبا . وقد سبق أن ذكرت لك كل هذا ، ولكنه لاشك جدير بالاعادة .

واحس اصحاب المصانع الذين كانوا قد غدوا حكام الأرض ، بالحاجة الى المواد الخام، والفحم خاصة، ضمانا لاستمرار مصانعهم المتزايدة في العمل . وكان جمهور الناس مازالوا في الوقت نفسه يفكرون بعقلية القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويتمسكون بالافكار القديمة عن الدولة بوصفها امة تتوارث حكمها اسرة مالكة أو نظام سياسى .

وقد استعين بهذا النظام الفج المأثور عن القرون الوسطى نجاة لحل مشاكل هذا العالم الذى يسير على احدث طراز ، عالم الآلات والصناعة . وقد فعل هذا النظام كل مافى وسعه في حدود القواعد التى وضعت له منذ قرون ، وجهزت الدول على اختلافها جيوشا ضخمة ، واساطيل هائلة استخدمتها في الحصول على املاك جديدة في بلاد قاصية ، وكانت تقوم مستعمرة انكليزية أو فرنسية أو المانية او روسية حيثما خلت قطعة ارض صغيرة من طامع يطمع فيها ، فاذا اعترض اهلها قتلوا . على انهم كانوا لايعترضون في معظم الاحيان ، ومن ثم كانوا يؤمنون على حياتهم ماداموا لايتدخلون في مناجم الماس او الفحم او الذهب أو في مزارع المطاط ، ويجنون منافع كثيرة من الاستعمار الاجنبى .

ويتفق احيانا ان تطمع دولتان من الدول الباحثة عن المواد الخام في قطعة واحدة في آن واحد . فتنشب بينهما الحرب ، وقد حدث هذا منذ أمد قريب حينما تقاتلت روسيا واليابان في سبيل امتلاك بعض أراض من املاك الصين . على ان هذه الحروب تعد خروجا عن المألوف ، ذلك انه ما من دولة ترغب في القتال حقا . والواقع ان فكرة القتال بالجيوش والبوارج والغواصات اخذت تبدو سخيفة في اعين الناس في مستهل القرن العشرين . فقد رأوا ان فكرة الالتجاء الى العنف تقترن بعهد الملكيات المطلقة والأسر الحاكمة المتآمرة ، وهو عهد جر عليه النسيان اذياله منذ أمد بعيد . فقد كانوا يقراون في صحفهم كل يوم انباء ابتكار مخترعات جديدة ، واخبار شراذم من العلماء الانكليز والأمريكان والالمان كانوا يعملون معا متوادين اصدق الود ، في سبيل الاهتداء الى كشف جديد في الطب او في الفلك . وكان اولئك الناس يعيشون في عالم حافل بالصناعة والتجارة والمصانع . ولكن قل منهم من لاحظ أن تطور الدولة ، ونعنى بها هذه الجماعة الهائلة من الناس الذين يدينون بمثل مشتركة ، كان متخلفا عن الزمن عدة مئات من السنين .

وقد حاول هؤلاء ان يحذروا غيرهم ، ولكنهم وجدوهم مشغولين بشئونهم الخاصة .

ولقد سبق أن استعملت عددا كبيرا من التشبيهات وانى استميحكم العذر في استعمال تشبيه آخر . كانت سفينة الدولة (وهو التعبير القديم الموثوق به الذى لا تخلق جدته ولا رواؤه ابدا) عند المصريين والاغريق والرومان والبنادقة والتجار المغامرين في القرن السابع عشر ، سفينة متينة البنيان مصنوعة من خشب تم جفافه ، يقودها ربابنة عركوا بحارتهم ومركبهم ، وعرفوا حدود فن الملاحة الذى تناقلوه عن اجدادهم .

ثم اقبل العهد الجديد ، عهد الحديد والصلب والآلات ، فتغير جزء من السفينة القديمة ثم تغير جزء آخر ، واتسعت رقعتها وحل البخار محل الشراع ، واقيمت احياء للسكنى افضل واحسن ، ولكن عددا اكبر من الناس اضطر الى الهبوط الى موقد السفينة . وكان العمل في الموقد مأمونا مجزيا الى حد لابأس به الا انهم كرهوه كراهيتهم لعملهم القديم في جذب اشرعة السفينة وتسلق أمراسها . وانتهى الأمر بأن استحالت هذه السفينة الخشبية القديمة ذات الأشرعة المربعة ، على نحو لم يكد يحس به احد ، عابرة محيط حديثة . على ان ربان السفينة وملاحيه ظلوا على حالهم بلا تغيير ولا تبديل ، فكانوا يعينون او يختارون على منال ماكان يحدث منذ مائة سنة خلت . وكانوا يتدربون على اصول الملاحة التى كان يتدرب عليها ملاحو القرن الخامس عشر . وكانت تعلق في قمراتهم الخرائط البحرية نفسها والبنود التى كانت تستعمل في أيام لويس الرابع عشر وفردريك الاكبر . وصفوة القول انهم كانوا أبعد مايكونون عن الكفاية ، ولم يكن الذنب في ذلك ذنبهم .

وليس بحر السياسة الدولية ببحر مترامى

الاطراف . ومن ثم كانت الحوادث خليقة بأن تحدث عندما اخذت بواخر الدول الامبراطورية والاستعمارية تعجم كل منها عود الاخرى ، وتتسابق فيما بينها . بل لقد وقعت هذه الحوادث فعلا ، وما زال في مقدورك ان تشاهد حطامها اذا اجترأت على عبور ذلك الجزء من المحيط .

والمغزى المستفاد من هذه القصة بسيط سهل . فالعالم في اشد الحاجة الى رجال يتولون زعامته من جديد ، رجال أوتوا الشجاعة الكفيلة بتحقيق مايطوف باحلامهم ، رجال يستطيعون آن يتبينوا آننا مازلنا في بدء المرحلة ، وانه يجب عليهم ان يتعلموا نهجا جديدا في الملاحة لم يسبقهم اليه احد قط .

ويجب على هؤلاء الرجال أن يتمرسوا بهذا الفن الجديد عدة سنوات تمرس التلاميذ . وعليهم ان يشقوا طريقهم الى القمة مقتحمين كل عقبة يمكن ان تصادفهم في طريقهم . وقد يتمرد عليهم ، اذا بلغوا الجسر ، ملاحوهم الشائنون فيوردوهم مورد الهلاك . ولكن سوف يظهر من بين الصفوف في يوم من الايام ، رجل يقود السفينة الى شاطىء الأمان ، فيكون هذا الرجل بطل العصور .

هكذا كانت الدنيا.. وهكذا ستكون..

« كلما امعنت النظر في مشاكل حياتنا ، زدت اقتناعا بانه يجب علينا ان نحتكم الى السخرية والرحمة ، شاننا شان المصريين الذين كانوا يبتهلون الى ربتهم ايزيس وربتهم نفتيس يسالونهما الرحمة لموتاهم .

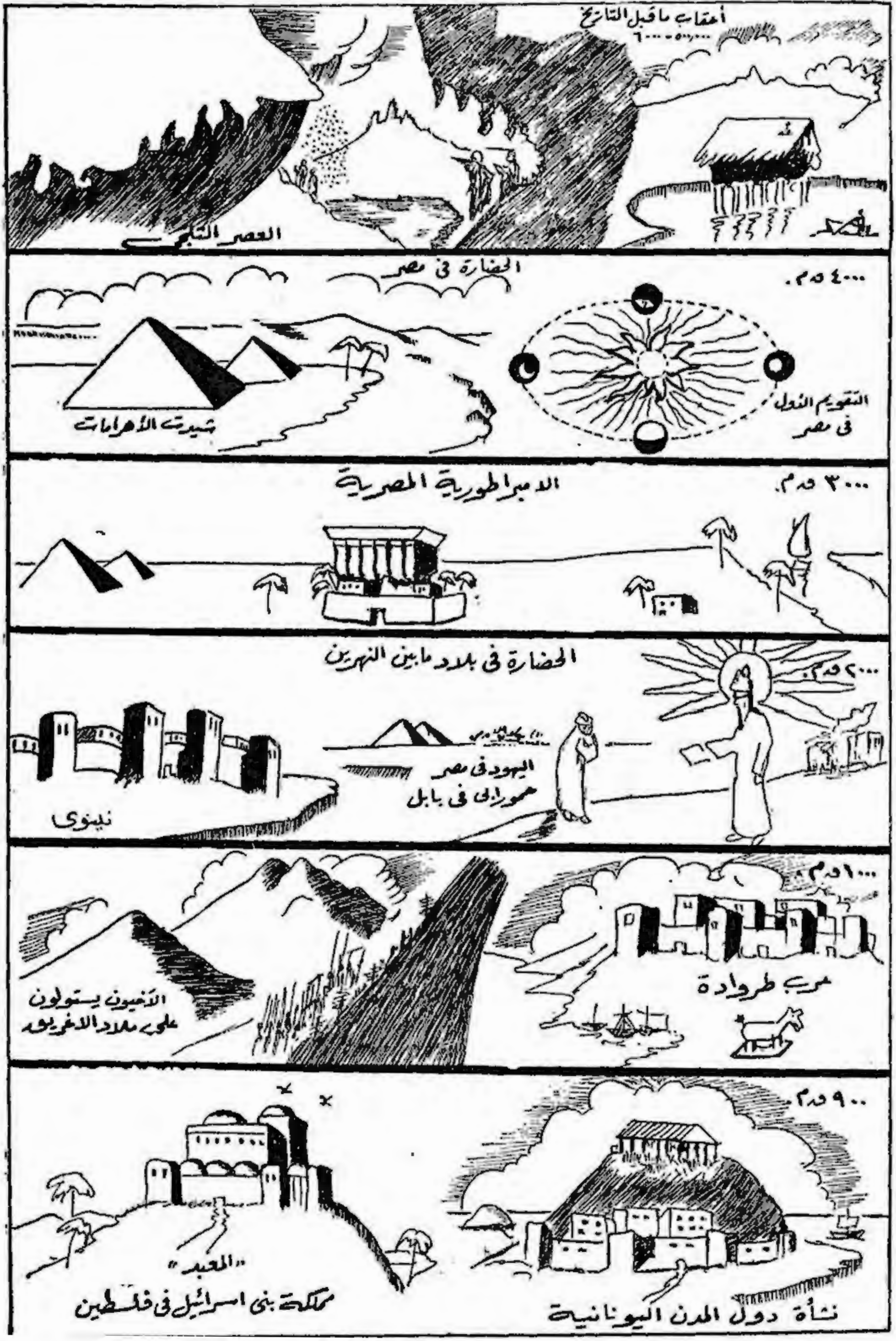
« والسخرية والرحمة كلتاهما ناصح امين . فالاولى تجعل الحياة مقبولة بما تثيره من بسمات ، والثانية تبارك الحياة بدموعها .

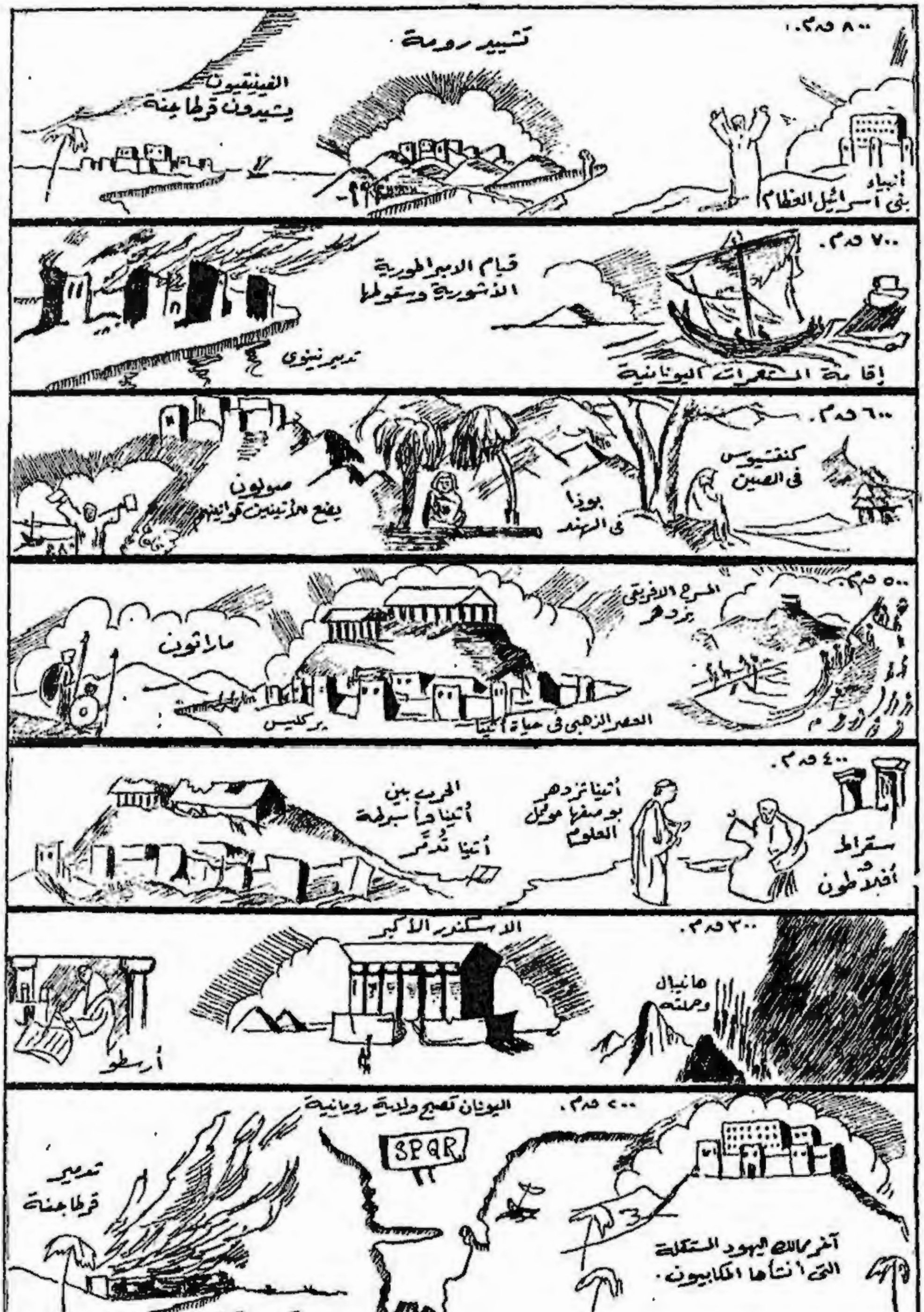
« والسخرية التى انشدها ليست الها جبارا عاتيا ، فهى لاتسخر بالحب ولا بالجمال ، وهى سخرية لطيفة ودود ، تجرد بمرحها المرء من سلاحه . وهى التى تعلمنا كيف نضحك من الاشرار والحمقى ، ولولاها لتخاذلنا وازدريناهم وحقدنا عليهم » .

وبهذه الكلمات الحكيمة التى قالها رجل من خيرة عظماء الفرنسيين . . استودعكم الله .

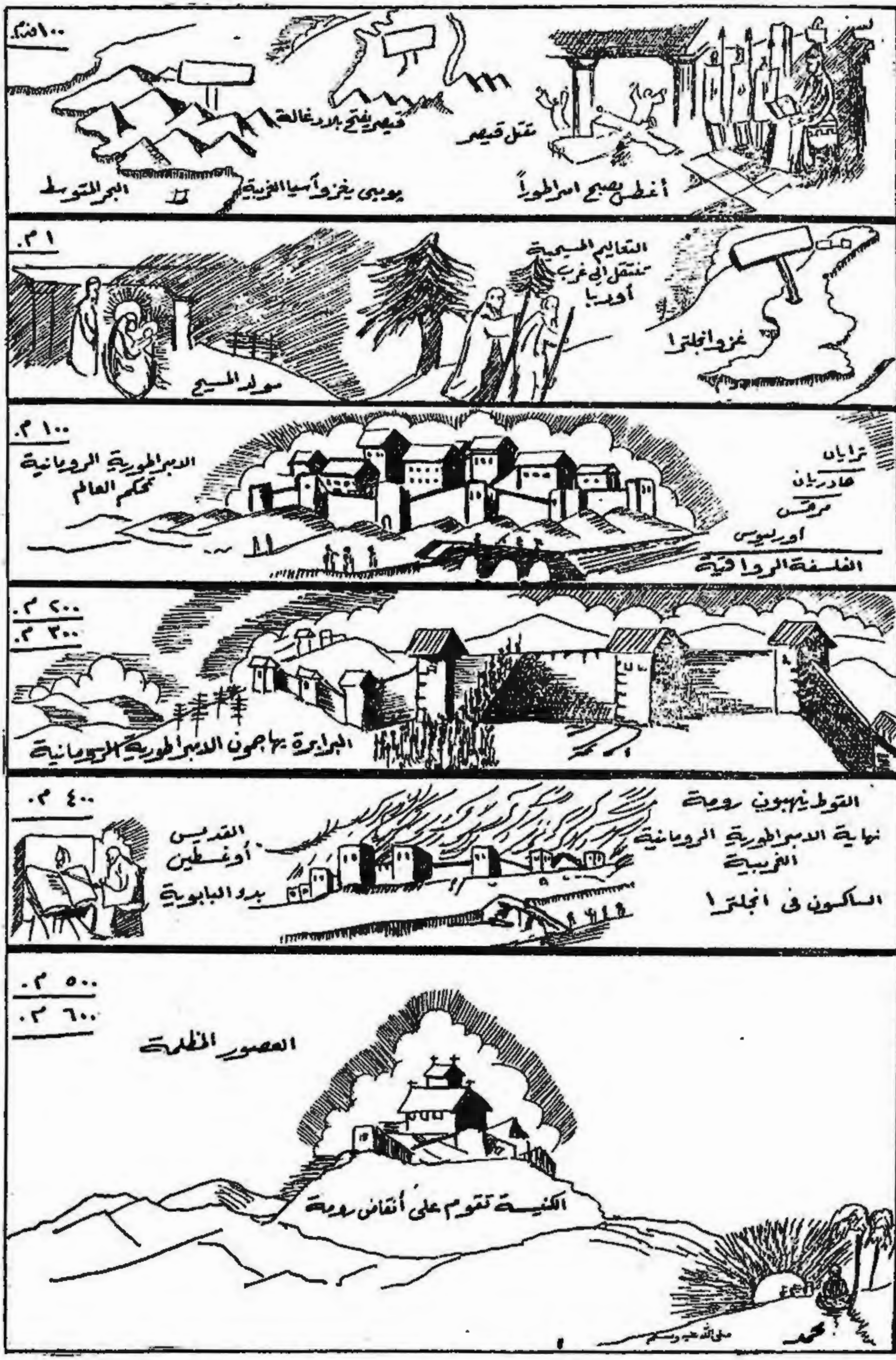
سجلّ تاريخي حيّ ...

من عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد
الى عام ١٩٢٢ بعد الميلاد

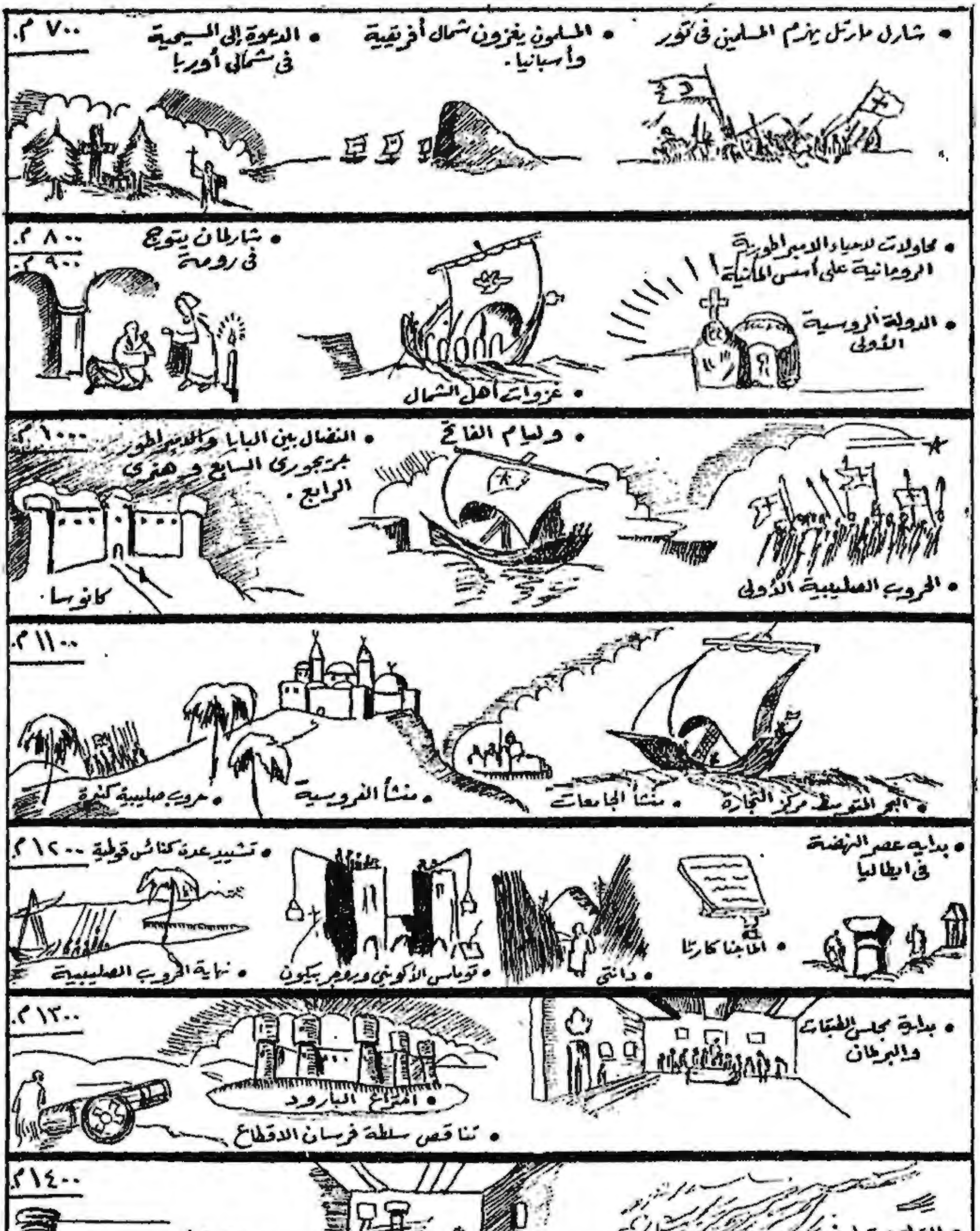


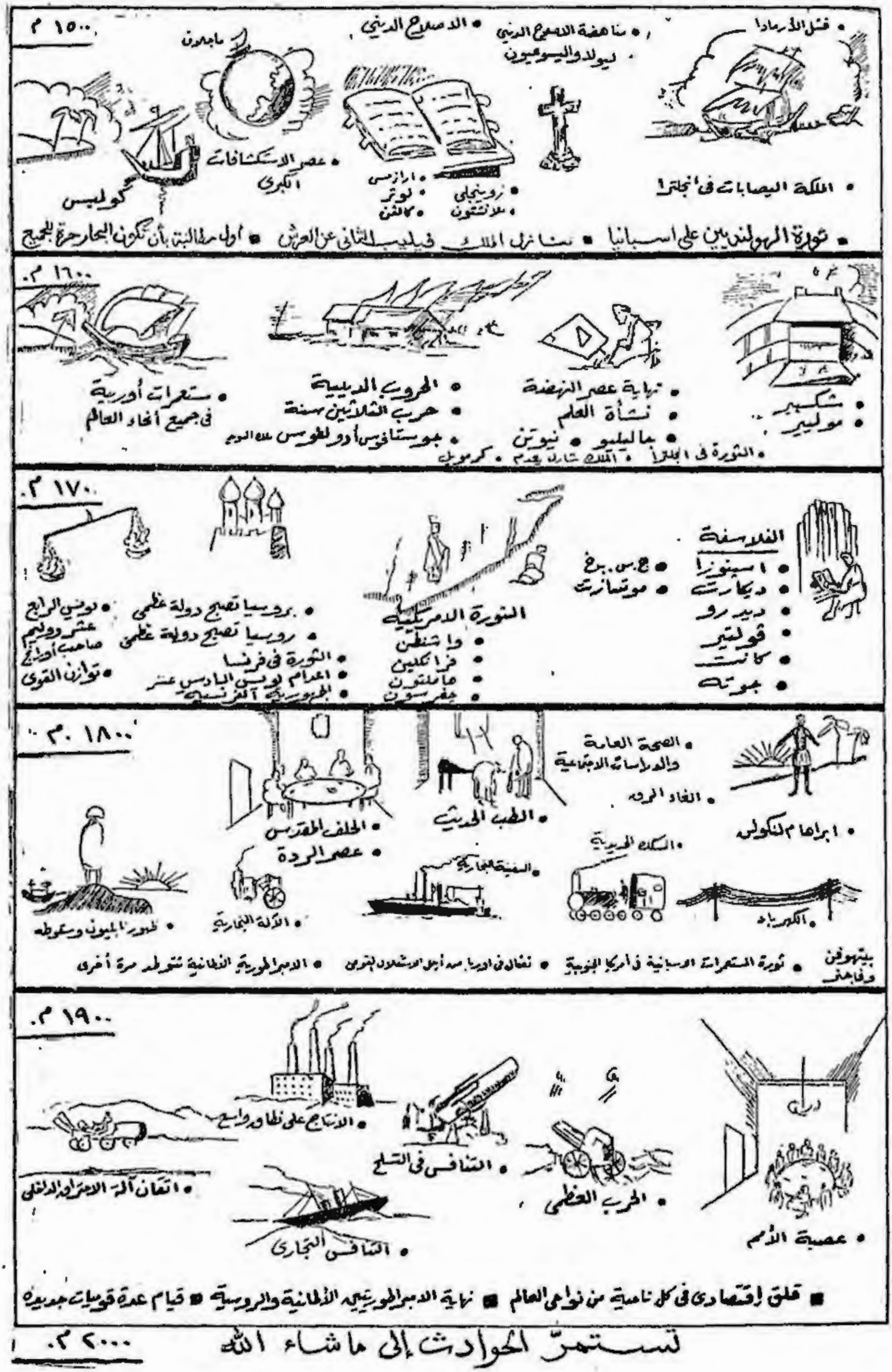


٨٠٠ ق.م.
تشييد رومة
الفينيقيون يشيدون قرطاجنة
أنبياء بنى إسرائيل العظام
٧٠٠ ق.م.
قيام الامبراطورية الآشورية وسقوطها
تدمير نينوى
إقامة المستعمرات اليونانية
٦٠٠ ق.م.
كنفشيوس فى الصين
بوذا فى الهند
صولون يضع للأثينيين قوانينهم
٥٠٠ ق.م.
المسرح الإغريقى يزدهر
ماراثون
العصر الذهبى فى حياة أثينا
بركليس
٤٠٠ ق.م.
الحرب بين أثينا وإسبرطة و أثينا تدمر
أثينا تزدهر بوصفها موئل العلوم
سقراط و أفلاطون
٣٠٠ ق.م.
الإسكندر الأكبر
هانيبال وحملته
أرسطو
٢٠٠ ق.م.
اليونان تصبح ولاية رومانية
SPQR
تدمير قرطاجنة
رومة سيدة البحر المتوسط
آخر ممالك اليهود المستقلة التى أنشأها المكابيون.



١٠٠ ق.م.
قيصر يفتح بلاد الغالة
مقتل قيصر
البحر المتوسط
بومبي يغزو آسيا الغربية
أغسطس يصبح امبراطوراً
١ م.
التعاليم المسيحية تنتقل الى غرب أوروبا
غزو انجلترا
مولد المسيح
١٠٠ م.
الامبراطورية الرومانية تحكم العالم
ترايان
هادريان
مرقس
أوريليوس
الفلسفة الرواقية
٢٠٠ م.
٣٠٠ م.
البرابرة يهاجمون الامبراطورية الرومانية
٤٠٠ م.
القوط ينهبون روما
نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية
الساكسون فى انجلترا
القديس أوغسطين
بدء البابوية
٥٠٠ م.
٦٠٠ م.
العصور المظلمة
الكنيسة تقوم على أنقاض روما
محمد
صلى الله عليه وسلم


٧٠٠ م.
• شارل مارتل يهزم المسلمين في تور
• المسلمون يغزون شمال أفريقية وأسبانيا.
• الدعوة إلى المسيحية في شمالي أوربا
٨٠٠ م.
٩٠٠ م.
• محاولات لإحياء الإمبراطورية الرومانية على أسس ألمانية
• الدولة الروسية الأولى
• غزوات أهل الشمال
• شارلمان يتوج في رومة
١٠٠٠ م.
• الحروب الصليبية الأولى
• وليام الفاتح
• النضال بين البابا والإمبراطور جريجوري السابع وهنري الرابع.
كانوسا.
١١٠٠ م.
• البحر المتوسط مركز التجارة
• منشأ الجامعات
• منشأ الفروسية
• حروب صليبية كثيرة
١٢٠٠ م.
• بداية عصر النهضة في ايطاليا
• الماجنا كارتا
• دانتي
• توماس الأكويني وروجر بيكون
• نهاية الحروب الصليبية
• تشييد عدة كنائس قوطية
١٣٠٠ م.
• بداية مجلس الطبقات والبرلمان
• اختراع البارود
• تناقص سلطة فرسان الاقطاع
١٤٠٠ م.
• الترك يستولون على القسطنطينية
• خاتمة الامبراطورية الرومانية الشرقية
• الطباعة
• جان دارك تطرد الانجليز من فرنسا



٢٠٠٠ م. تستمر الحوادث إلى ما شاء الله

لقد انقضى عهد الكتب التاريخية المقررة الخالية من رسوم توضحها . فرسوم المشاهير وصورهم الشمسية وكذلك صور الأحداث المشهورة ، تملأ صفحات الكتب السائرة . وقد اهملت الصور الشمسية فى هذا الكتاب لافسح المجال لسلسلة من الرسوم خططتها فى بيتى لتمثل الافكار أكثر مما تمثل الحوادث .

ومؤلف هذا الكتاب اذ لايدعى انه بلغ مرتبة عظيمة من الكمال الفنى (فقد كان يميل ميلا واضحا للرسم وهو بعد طفل ، ومع ذلك فقد تعلم العزف على الكمان بوصفه واجبا من واجباته) . . . ليفضل ان يصنع خرائطه ورسومه التخطيطية بنفسه ، لانه يعلم على وجه اليقين مايريد أن يقول ، وليس فى مقدوره ان يشرح مايرمى اليه لزملائه الذين يفوقونه فى حلبة الفن . زد على ذلك ان جميع الصور قد رسمت للأطفال ، وافكار الأطفال عن الفن مختلفة تمام الاختلاف عن افكار والديهم .

وانى لأسوق هذه النصيحة الى جميع المدرسين : دعوا تلاميذكم من البنين والبنات يرسمون تاريخهم وفق ما يشاءون كلما واتتكم الفرصة . وانتم تستطيعون ان تطلعوا تلاميذ فصلكم على صورة معبد من معابد الاغريق ، أو قلعة من قلاع القرون الوسطى ، وسيجيبكم التلاميذ الى ماتطلبون قائلين : « سمعا وطاعة يا استاذنا » أو « سمعا وطاعة يا معلمنا » ثم يأخذون فى نسيان كل شىء عن ذلك . ولكن اجعلوا المعبد الاغريقى او القلعة الرومانية محور حادثة من الحوادث ، ودعوا الأولاد يرسمون بانفسهم صورة « تشييد المعبد » أو « اقتحام القلعة » . . . فهم بلا شك سيتأخرون عن ساعات الانصراف للانتهاء مما وكل اليهم . ومعظم الأطفال يستطيعون الرسم من نموذج قبل أن يتعلموا كيف يرسمون من قوالب من الصلصال ، وهم خليقون فى كثير من الأحوال أن يجيدوا الرسم بهذه الطريقة . وقد يبدو فيما يرسمونه باقلامهم شىء من فن ماقبل التاريخ ، بل قد يبدو مشابها لرسم بعض قبائل الكونغو الأعلى . على أن الطفل او الطفلة كثيرا مايكون هذا شأنه فى تذوقه للفن فيعبر عن هذه الغرائز البدائية تعبيرا عجيبا فى دقته .

والمهم فى دراسة التاريخ هو ان يتذكر التلميذ حوادث بعينها فى « سياقها الزمنى » ، وقد اقنعت تجارب السنين الطويلة المؤلف بأن الأطفال قلما ينسون ما رسموا ، وقلما يذكرون ما اكتفوا بقراءته .

وهذا هو ايضا الشأن بالنسبة للخرائط . اعط الطفل خريطة من الخرائط المأثورة المألوفة ذات النقاط والخطوط والبحار الخضر ، واطلب منه ومنها ان يعيد ابراز هذا المنظر الجغرافى من عنده . وعندئذ سوف تبدو الجبال شاذة بعض الشذوذ عن نسق الخريطة ، والمدن قريبة الى حد عجيب من مدن العصور الوسطى ، كما تبدو العالم فى كثير من الأحيان بعيدة كل البعد عن الدقة ، على ان المنظر فى جملته سيبلغ من الصدق والامانة مبلغ خرائطنا المأثورة التى دابت منذ أيام السيد **جراردوس مرقاتور** ، تحكى قصة عجيبة فى خطئها . واهم من ذلك كله ان هذه الخريطة ستجعل الطفل يشعر بالفة بينه وبين الحقائق التاريخية والجغرافية لاتتاتى باية طريقة اخرى .

فهرس

الجزء الأول

صفحة

مقـدمة ٥

تهيئة المسرح ٧

اسلافنـا الاولون ١٠

انسان ما قبل التاريخ ١٢
يبدأ فى صنع أشياء لنفسه

الهيروغليفية ١٤
اختراع المصريين فن الكتابة وبدء تدوين التاريخ

وادى النيل ١٦
نشأة الحضارة فى وادى النيل

قصـة مصر ١٨
نهضة مصر وسقوطها

ما بين النهـرين ١٩
أرض الجزيرة ، المركز الثانى للحضارة الشرقية

السـومريون ٢٠
الكتاب السومريون الذين تحدثنا لوحاتهم الصلصالية بقصة أشور وبابل ، الوثقة السامية العظيمة

موسى ٢٢
زعيم الشعب اليهودى

الفينيقيون ٢٤
الذين امدوا العالم بالابجدية

الجنس الهنـدى الاوربى ٢٤
الفرس - وهم من الجنس الهندى الاوربى - يغزون العالم السامى والعالم المصرى

بحر ايجه ٢٦
شعب بحر ايجه يحمل حضارة آسيا القديمة الى برارى اوربا

الاغريق ٢٩
قبيلة هيلين الهندية الاوربية تستولى على بلاد الاغريق

المدن الاغريقيـة ٣١
التى كانت دولا حقا

صفحة

الاغريق يحكمون انفسهم بانفسهم ٣٢
وهم اول قوم مارسوا تلك التجربة العسيرة

الحياة الاغريقيـة ٣٣
كيف كان يعيش الاغريق ؟

المسرح الاغريقى ٣٥
أصول المسرح ... اول صورة من صور الترفيه الشعبى

الحروب الفارسية ٣٧
كيف حمى الاغريق أوربا من الغزو الاسيوى وردوا الفرس على اعقابهم عبر بحر ايجه ؟

أثينا تناهض اسبرطه ٤١
كيف تقاتلت أثينا واسبرطه قتالا طويلا خطيرا فى سبيل زعامة اليونان ؟

الاسكندر الاكبر ٤٢
يقيم امبراطورية عالمية ، والمصير الذى انتهى اليه هذا المطمح العظيم

خلاصة ٤٣
عرض موجز للفصول العشرين الاولى

روما وقرطاجنة ٤٤
اقتتلت مستعمرة قرطاجنة السامية - التى كانت على الساحل الشمالى لافريقية - ومدينة روما الهندية الاوربية - التى كانت على الساحل الغربى لايطاليا - فى سبيل امتلاك غربى البحر المتوسط فقضى على قرطاجنة

قيام روما ٥٢
كيف قامت روما ؟

الامبراطورية الرومانية ٥٣
كيف اصبحت الجمهورية الرومانية امبراطورية بعد قرون سادها الاضطراب والفتن ؟

يسوع الناصرى ٥٨
قصة يشوع الناصرى ... الذى سماه الاغريق يسوع

صفحة

سقوط روما ٦٠
غروب شمس روما

قيام الكنيسة ٦٣
كيف اصبحت روما قصبة العالم المسيحى ؟

محمد (صلى الله عليه وسلم) ٦٧
النبى العربى الذى اوشك اتباعه أن يفتحوا العالم المعروف بأسره تمجيدا لله الاله الواحد الحق

شارلمان ٦٩
كيف تأتى لشارلمان ملك الفرنجة ان يحمل لقب الاسبراطور ، وكيف حاول أن يحيى حلم القدماء باقامة امبراطورية عالمية

النورمان ، أهل الشمال ٧٢
لماذا ابتهل اهل القرن العاشر الى الله أن يحميهم من غضب أهل الشمال

النظام الاقطاعى ٧٤
كيف أصبحت أوربا الوسطى — بعد ان هوجمت من ثلاث جهات — معسكرا مسلحا ؟ وكيف كانت أوربا خليقة بأن يحل بها الدمار لولا ان قيض لها أولئك الجنود المحترفون والحكام الذين كانوا جزءا من النظام الاقطاعى

الفروسية ٧٥

البابا يناهض الامبراطور ٧٦
الولاء المزدوج العجيب الذى كان يدين به اهل العصور الوسطى ، وكيف أدى الى نزاع لا ينقطع بين البابوات وبين اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

الحروب الصليبية ٧٩
على أن هذا النضال على اختلاف انواعه تنوسى عندما استولى السلاجقة على الاراضى المقدسة ، وتدخلوا تدخلا خطيرا فى التجارة بين الشرق والغرب فهبت أوربا تحارب حربا صليبية

المدينة فى العصور الوسطى ٨٢
لماذا قال اهل العصور الوسطى : ان « هواء المدينة هواء حر طلق » ؟

صفحة

حكم الشعب فى العصور الوسطى ٨٧
كيف قرر اهل المدن حقهم فى ان يسمع صوتهم فى المجالس الملكية فى بلادهم ؟

عالم العصور الوسطى ٩٠
فكرة أهل العصور الوسطى عن العالم الذى قدر لهم أن يعيشوا فيه

التجارة فى العصور الوسطى ٩٤
كيف جعلت الحروب الصليبية البحر المتوسط مرة أخرى يعج بالحركة التجارية ، وكيف اصبحت مدن شبه الجزيرة الايطالية مركزا عظيما لتوزيع التجارة بين آسيا وافريقيا ؟

عصر النهضة ٩٨
اجترا الناس مرة اخرى على التفكير فى السعادة لا لشيء الا لانه قد كتبت لهم الحياة ، فحاولوا ان ينقذوا مابقى من حضارة الرومان واليونان التى التى كانت أقدم من حضارتهم واحب الى قلوبهم ، وتملكهم الفخر والاعتزاز بما بلغوه من عرفان ، حتى لقد لهجت السنتهم بالنهضة أو ببعث الحضارة من جديد .

عصر التعبير ١٠٤
بدأ الناس يشعرون بحاجتهم الى التعبير عن مسرات الحياة التى كشفوها حديثا ، فعبروا عن سعادتهم بالشعر والنحت والعمارة والتصوير وبالكتب يطبعونها .

الاستكشافات العظيمة ١٠٧
اما وقد خرج الناس آنئذ على الحدود الضيقة التى فرضتها عليهم العصور الوسطى ، فقد اقتضاهم ذلك التماس مجال أفسح لتجوالهم . ذلك ان العالم الاوربى كان قد ضاق كثيرا عن ان يتسع لاطماعهم ، وكان الوقت قد آذن بقيامهم برحلاتهم الاستكشافية العظيمة

بوذا وكونفشيوس ١١٥
ما يتصل ببوذا وكونفشيوس

فهرس

صفحة

الاصلاح الدينى ١٢٣
تقدم الجنس البشرى اشبه برقاص ساعة ضخم،يروح ويغدو دائما أبدا . وقد امتاز عصر النهضة بعدم احتفال الناس بالدين وغيرتهم على الفن والأدب . ثم اعقبه عصر الاصلاح الدينى ، فلم يحفل الناس فيه بالأدب والفن ، وتحمسوا للدين .

الحروب الدينية ١٢٨
عهد المنازعات الدينية الكبرى

الثورة الانجليزية ١٣٦
النزاع بين حق الملوك الالهى وحق البرلمان،وهو حق أقل من الاول قدسية واقرب منه الى العقل ، وكيف انتهى هذا النزاع بماساة حلت بالملك شارل

توازن القوى ١٤٥
اما فى فرنسا فقد استمر حق الملوك المقدس فى الحكم قائما ، وزاد فخامة وبهاء عما كان عليه . ولم يحد من اطماع الملك الا السنة التى استخدمت فى تلك الايام ، الا وهى توازن القوى

قيام روسيا ١٤٧
قصة الامبراطورية المسكوفية المحاطة بالاسرار التى انبعثت فجاة على مسرح السياسة الأوروبية الكبير

النزاع بين روسيا والسويد ١٥١
خاضت روسيا والسويد حروبا كثيرة فى سبيل تقرير أيتهما تكون لها السيادة على شمال شرقى اوربا

قيام بروسيا ١٥٣
انبعاث عجيب لدولة صغيرة تعرف ببروسيا فى جزء موحش من شمالى المانيا

صفحة

الطريقة التجارية ١٥٥
كيف حاولت الحكومات القومية الناشئة ، أو حكومات الأسر المالكة الاوربية ، أن تثرى . وماذا كانت تعنى عبارة « الطريقة التجارية » .

الثورة الامريكية ١٥٨
فى اواخر القرن الثامن عشر سمعت اوربا اخبارا عجيبة عن حادث وقع فى برارى القارة الشمالية الامريكية ، فقداضاف سلالة اولئك الرجال الذين عاقبوا الملك شارل لتمسكه بالحق المقدس للملوك ، فصلا جديدا الى تلك القصة القديمة ، قصة نضال الناس فى سبيل حكم انفسهم بانفسهم

الثورة الفرنسية ١٦٥
الثورة الفرنسية العظيمة تعلن مبادىء الحرية والاخاء والمساواة الى شعوب العالم قاطبة

نابليون ١٧٢

الحلف المقدس ١٧٨
ما ان ارسل نابليون الى جزيرة سانت هيلانه حتى عمد الحكام الذين أنزل بهم هذا القورشقى المقوت الهزائم مرارا وتكرارا الى الاجتماع فى فينا ، وحاولوا ان يقضوا على التغييرات الكبيرة التى احدثتها الثورة الفرنسية

الردة الكبرى ١٨٤
ارادوا ان يحققوا للعالم حقبة من السلام ، لايعكر صفوه شىء ، وذلك بخنق كل فكرة جديدة . واقاموا الشرطة عينا على اكبر عمال الدولة ، فما لبثت سجون الدول أن امتلات باولئك الذين نادوا بأن الناس من حقهم أن يحكموا انفسهم على الوجه الذى يرون فيه صلاحهم

صفحة

الاستقلال القومي ١٨٧
على ان حب الاستقلال القومي كان ارسخ من ان يقتلع على هذا النحو . وكان اهل امريكا الجنوبية اول من ثاروا على التدابير الرجعية التى اتخذها مؤتمر فينا . وحذت حذوهم اليونان وبلجيكا واسبانيا وعدد كبير من سائر بلاد القارة الاوربية . وقد حفل القرن التاسع عشر باخبار حروب كثيرة فى سبيل الاستقلال

عصر الآلة ١٩٨
على ان العالم الذى عاش فيه اهل اوربا كان يتغير تغيرا تاما فى الوقت الذى كانوا يقاتلون فيه من اجل استقلالهم القومى ، وذلك بفضل سلسلة من المخترعات جعلت الآلة البخارية الساذجة التى استحدثت فى القرن الثامن عشر اعظم واخلص خادم للانسان

الثورة الاجتماعية ٢٠٢
على ان الآلات الجديدة كانت باهظة التكاليف ، لايستطيع اقتناءها الا الموسرون . وقد اضطر النجار القديم او الاسكاف الذى كان سيد نفسه فى حانوته الصغير ، ان يلتحق بخدمة اصحاب الآلات الكبيرة .. فزاد كسبه وفقد فى الوقت نفسه ماكان له من استقلال ، وهو امر اسخطه واحنقه

التحرر ٢٠٦
لم يفىء اصطناع الناس للآلات على العالم ذلك العهد من السعادة والرخاء الذى تكهن به الجيل الذى راى السكة الحديدية تحل محل مركبات السفر العامة . وقداقترحت عدة اقتراحات لعلاج هذه الحال ، ولكن لم يفد واحد منها فى حل المشكلة حلا شافيا

صفحة

عصر العلم ٢٠٩
على ان العالم كله قد طرأ عليه تغير آخر اعظم شأنا من الثورات السياسية والثورات الاقتصادية ، فقد استطاع العلماء آخر الامر أن يظفروا بالحرية فى العمل بعد أن مرت بهم اجيال من الظلم والاضطهاد ، واخذوا يحاولون الكشف من القوانين الانسانية التى تسير الكون

الفـــن ٢١٢
فصل عن الفن

التوسع الاستعمارى والحرب ٢١٩
فصل يجب أن يقدم اليك جانبا كبيرا من المعلومات السياسية فى السنوات الخمسين الاخيرة ، على ان هذا الفصل يضم بين دفتيه حقا تغيرات عدة ومبررات قليلة

عالم جديد ٢٢٣
الحرب العظمى (الأولى) التى كانت فى حقيقة امرها نضالا فى سبيل اقامة عالم جديد افضل من العالم الذى كنا نعيش فيه

هكذا كانت الدنيا .. وهكذا ستكون ٢٢٨

سجل تاريخى حى ٢٢٩

الصور ٢٣٤
مايتعلق بصور هذا الكتاب

كتاب الشعب

تصدره

جريدة الشعب

لم نصدر ((كتاب الشعب)) الا بعد دراسة مستفيضة شاملة ...

حددنا الأهداف ، وحددنا الميدان ، وحددنا الوسائل ...

* * *

ادركنا ان حاجة البلاد الى كتب قيمة قليلة العدد ، يشترك فى قراءتها مئات الالوف، اشد من حاجتها الى مئات الكتب يطبع منها بضعة آلاف ولا يقراها الا بضع مئات من القارئين .

فبالكتب الأولى نصل الى النسيج الثقافى العام المتجانس ، الذى يؤدى الى التفكير العام المتجانس ، والعمل الجماعى الذى حرمنا بركة آثاره دهورا طوالا .

اما الكتب الثانية فلا نصل بها الا الى النسيج الثقافى المتمزق ، الذى يجعلنا نصيب النجاح – اذا اصبناه – افرادا ، ونمنى بالاخفاق جامات .

فمن اهدافنا ، اذن ، ان تكون كتبنا ايجابية نافعة ، يشعر المرء – بعد قراءة الكتاب منها – بان مستواه الثقافى قد ارتفع .

ومن اهدافنا أيضا ان يقراها وهو يشعر بانه يشارك مئات الألوف من مواطنيه قراءات رفيعة ، ويزاملهم فى نهضة فكرية شاملة .

* * *

اما ميداننا فهو العلم النافع ، والثقافة الرفيعة .

واذا كان هذا قد بدا فيما اصدرنا من كتب حتى اليوم ، فانه سيزداد وضوحا كلما جد بنا المسير .

* * *

اما وسائلنا فهى تخفيض ثمن الكتاب ، حتى يقبل على القراءة النافعة المفيدة كل قارىء واع ، دون ان يصطدم بعقبة ارتفاع أثمان الكتب الثقافية الجيدة ، فيسير الجميع مع موكب النهضة الذهنية الشاملة ، وركب الوعى الثقافى الصاعد ...

* * *

وواضح ان المشروع ليس مشروعا تجاريا .

فليس الثمن الذى حددناه مصدرا لربح .

وليس الميدان الذى اخترناه يغرى الا طبقة ممتازة من القراء عددها فى جميع بلاد العالم اقل من قراء « الكتب الاخرى » ...

* * *

هذه اهداف ((كتاب الشعب)) ، واضحة ناصعة ، لانبغى من ورائها الا وجه العلم ، وحسبنا العلم سبيلا الى كل ماتبغى من رقى وتقدم ونهوض ...



كتاب الشعب
تصدره
جريدة الشعب

٢٠ ص

مطابع الشعب